

دِرَاسَاتُ فِي
الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ

تأليف
د. محمد عبد النعم خفاجي
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

دار الأعمى
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الحديث

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

وزارات
الأحياء والبيئة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصديق

هذه دراسات تمهيدية للحياة الأدبية في عصرين من أزهى عصور الأدب وأنفصرها على الإطلاق ، وهما : عصر الجاهلية وعصر صدر الإسلام؛ والعصر الأول وهو العصر الجاهلي وضع أسول الأدب العربي ومقوماته ورسومه الفنية سواء في القصيدة أم في الخطبة أم في فنون الأدب الأخرى من وسايا ومحاورات ومفاخرات ومناظرات وسجع كهان .

ومن هذه الأسول نستخدم مختلف مقومات القصيدة والخطبة والوسية وتسير عليها ونحذف مذكر الأدب حتى اليوم .

والعصر الثاني وهو عصر صدر الإسلام جاء بأعظم آثار البلاغة العربية على الإطلاق ، وهما القرآن الكريم رسالة السماء إلى الأرض ، ثم الحديث النبوي الشريف ، وكما أحدث هذا العصر كل مقومات حياتنا الروحية والأدبية والفنية ، فقد جاء بأعظم رسالة نزلت على أكرم وأعزرف رسول ، وهو محمد بن عبد الله صل الله عليه وسلم .

وهذه الدراسات تناولت كل ظواهر الأدب وسماته وعناصره وأصوله ، بالدراسة والتحليل ، وعرضت لأدبه خصائصه ومميزاته في كل من العصرين وهي دراسة تنسم بالشمول والتمعن والشفقة بما .

ونحن إذ نقدمها للدارسين والباحثين ، نشتر بها لأنها ثمرة جهد مقاسل وبحت طويل .

ومن الله نستمد العون والقوتين والسداد .

القسم الأول
الحياة الأدبية للجاهليين

الفصل الأول

مقدمات في أصول الأدب العربي

الأدب العربي ودراساته

- ١ -

أدب اللغة العربية مأثور شعرها الجليل ونثرها البليغ اللوثر في النفس التبر
المواطف . وما يصل بهما بين علميه وتدوته وتقدمه من لغة وأخبار وأيام وأنساب
ونحو ذلك مما قد تحس الحاجة إليه في فهم الأدب ، كالإلام بأطراف من الفلسفة
ومذاهبها والفلك والمفاهيم والتحل ، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً في
التصريح الأدبية كما نجد في شعر ابن المعتز والتعليق وغيرها ، والأدب صورة الحياة
ومرآتها . تمثل فيه جوانب النهضة ، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان
الثقافة ، ومراتب الحياة ، ونوازع النفوس ، لسكل أمة من الأمم في كل عصر من
العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الأدب حفظ إشارات العرب وأشعارها والأخذ
من كل فن بطرف »^(١) . ويقول ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالماً فليعلم لغة واحداً
ومن أراد أن يكون أدبياً فليسمع في العام » .

وعلى هذا النحو نجد أمهات الكتب الأدبية كالألاني والأدب والكمال والقد
الغريد والبيان والتبيين .

- ٢ -

ولقد كان منجز المؤلفين من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء
ورواية آثارهم الأدبية وتقدمها أو مرجعها وتحليلها ، وقد يوزنون بينها وبين
(١) للقدمة ٤٨٨ - ويلاحظ أن هذا ليس تعريف للأدب بمعنى هذه النصوص التي ندرسها
ونفتشها ، وإنما هو في الواقع تعريف لا يفسر الأدب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنتاج
الأدب وللمنهج وللمنهج .

غيرها من الآثار ، مع الإلام ببعض أصول الأدب والشعر ، ونحو ذلك مما نجد مبثوثاً مرفقاً في كتبهم الكثيرة ، أو مجتمساً قليلاً في بعض الكتب . وقد برزوا في هذه النواحي تبرزاً قوياً ظهر في كتبهم ، كوثيات الأعيان لابن خلدان ، وفوات الوفيات لسككي ، ونبية الوعاة للسيوطي ، ومجموع الأدباء لياقوت ، والأغاني لأبي الفرج ، ونبية البحر للشالي ، وفلاذ العيان لفتح بن خاقان ، وفتح الطيب للقرني ، والعمدة لابن رشيقي ، والثل السائر لابن الأثير ، والتقدمة لابن خلدون ، والرواية للأمدى وغيرها .

غير أن ما في هذه الكتب لا يبدو - في الجملة - أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصرها من العصور ، ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً في زمن من الأزمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصنعة والذهب ، ولا تذكر ما عرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، نعى أدب لا تاريخ أدب .

وجاء المستشرقون لجمروا هذه المسائل للفرقة ، واستمدوا منها أصولاً أمانتهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء مجموعهم في تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الأدب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية ، وحلقوا اللوثرات السامة التي أترت في كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهبهم ، وما يكون من تأثير القديم في الحديث ، وما يسكون من التشابه والفروق التي تباعد بين الشعراء والكتاب أو تفرهم ، وغير ذلك من الدراسات التي لم يهدها أدباء العرب والتي نسميها نحن الآن « تاريخ الأدب العربي » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وأدائها ، ويصور ما يختلف عليها من رقي وأحطاط في مختلف العصور والأطوار ، ويسعى بتاريخ التلاميذ من أهل المعاصرين وتند مؤلفاتهم وتأثير بعضهم في بعض الفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث النشأة ، أجدده الإيطاليون في القرن الثامن عشر وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد خلاطه

والغرب ، فكان أول من نقله إليه الرحوم الأستاذ حسن ترويق العدل على أثر عودته من ألمانيا وبقيامه بتدريسه في دار العلوم .

تم تتابع المؤلفون على هذا النهج كالإسكندري في (الوسيط) وجورجي زيدان في (تاريخ آداب الفسفة العربية) والراني في (تاريخ آداب العرب) والزيوت في (تاريخ الأدب العربي) وغيرهم من أساتذة الجامعة والأزهر .

أما كتابا « الوسيلة الأدبية للمصنف » و « الواهب التصحية » لمزة فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهي كما ذكرنا من كتب الأدب لامن كتب تاريخ الأدب . لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية ، وتاريخه هو العلم الذي يبحث في أحوال هذه النصوص وأطوارها والدوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التي أثرت فيها .

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العام من حيث ساحة كل منهما إلى الآخر ، فالتاريخ السياسي يحتاج إلى تاريخ الأدب في استظهار بعض الصور الأدبية التي تتصل بالأخلاق مما يسببه على تدليل التقلبات السياسية ونحوها . والتاريخ الأدبي يحتاج إلى التاريخ السياسي في استنباط الصورة الأدبية الصحيحة بما يمرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة في الأدب وفي حياة الأدب أو الشاعر ، فكلهما متأثر بالآخر مؤثر فيه .

هكذا ومؤرخو الأدب ينقسمون عصور تاريخ الأدب العربي إلى أقسام حسب الخصائص الفنية لسلك مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الأقسام هي : العصر الجاهلي ويقدره بقرن ونصف قبل الإسلام ، وعصر صدر الإسلام من البتة إلى سنة ٤١ هـ ، والعصر الأموي من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣٦ هـ والعصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ . ثم عصر الدول المتتابعة حتى يد حكم محمد علي سنة ١٢٢٠ هـ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي إلى اليوم .

وهذا في الواقع تقسيم تخريبي مبنى على مسايرة اللغة العربية للاقتلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه المصور متداخلة ، نظراً لأن هذه السائرة تكون بليغة ، وتأثر الأدب بهذه الاقتلابات يكون تدريجياً بعد أن تتشبع نفوس الأدياء بالأحداث الجديدة .

وينقسم الأدب إلى إنشائي ووصفي ، فالأدب الإنشائي هو ما تثير به من شعر أو نثر مما تحس به من الطوايح والمواقف والمواقف نحو الطبيعة سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجسدها في قلبك مشتتة في عواطفك وميولك وأهوائك ، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياح والأحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة أو راقك مشهد من مشاهدنا ، أو اختلجت نفسك بإطرفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الأزدراء ، وسورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هذا التصوير الذي يمثل في شرك أو ترك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن ، وأرتجفته مقلداً به الطبيعة التي يظهر ابتسامها وعضها متلاق في عصف الريح وعصف الورد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضائها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وترويد العائر ، وإن فنون الأدب الإنشائي الطبيعة داخلية أو خارجية .

أما الأدب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائي بالوصف والتقد والتفريط ، فيثني عليها ويعظمها إن رضى عنها ، وينقدها ويمبها إن سخط عليها ، فهذا التقد أو التفريط لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً ، ولا يصور تأثر صاحبه بها ، وإنما يصف الكلام الذي قيل في تصوير الطبيعة ، فوضوحه إذن هو الكلام لا الطبيعة : القصيدة التي تصور البحر لا البحر نفسه .

فالأدب الوصفي إذن هو الذي نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجد بعد الأدب

الإنتاش ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الأدب ، إذ كان مما يخاله هذا التاريخ الموزنة والمصانص الفنية ونحوها .

وبهذا نستطيع أن نقسم الأدب الرسمى إلى قسمين : أحدهما النقد الذى بين ما يمتاز به الأدب الإنتاشى من الحراسن واليوب ، والآخر تاريخ الأدب . وقد عرفت مهمته فى بيان أحوال الأدب وأطواره .

ويقدم الأدب كذلك إلى ذاتى وموضوعى .

فالأدب الذاتى هو الذى يبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر التناهى - وهو تسميم التمثيل والتصصى - من الأدب الذاتى لأن الشاعر يفتى فيه بيواطنه الذاتية وخواجله النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هنا أنه مجرد من الصبئة الموضوعية ، بل معناه أن الصبئة الذاتية هى الراجحة فيه .

والأدب الموضوعى هو ما لا يبر به الأديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا يفتى بلسان نفسه ، وإنما يبر به عما يجول بخواطر غيره فالأدب التمثيل والتصصى من الأدب الموضوعى ، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يبر بهما عما يجول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم ويبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالأدخ يسرد الحداث التاريخى فى أسلوب يبلغ دون أن يصيغ عباراته بزمعانه وميوله وآرائه الخاصة .

العوامل المؤثرة في الأدب

الأدب مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ، يخضع لما تخضع له ، ويتأثر بما تتأثر به ، فإما هو إلا التعبير القوي الصادق عما تجيش به نفس الأديب من مختلف المشاعر والمخاوف والأخبة ، وهذه تتأثر بعوامل الطبيعة وأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وأنظمة الفلك وتقلبات السياسة ، فالأدب صورة إنجيلية ، والأديب ابن بيئته ، وإن فن واجب مؤرخ الأدب أن يلم بهذه العوامل ، لأنها تنبئه على فهم الأدب وتذوقه ورده إلى أصوله وتفسيره ، كما أن من واجب دارس الأدب أن يضيف إلى الإلمام بذلك المؤثرات الخاصة التي لا يست حياة الأديب الشخصية ، ووجهت مذهبه ولونت مزاجه .

فن أهم العوامل المؤثرة في الأدب :

أولاً - الاستعداد الفطري : فهناك إنسان قد جبل على دفقة الحس ودفقة الشعور وصفاء الطبع ، فهو يتأثر بما يحيط به ، فيصور تأثره هذا في الشعر أو النثر . وهناك إنسان قد أنجح له من ذلك حظ يسير أو لم ينجح له شيء من هذا الاستعداد . والأهم كالأفراد في هذا الحظ . فالأمة العربية قد منحت من هذه الواهب حظاً عظيماً ، فقد كان العرب أقوى الأمم شاعرية وأشهر الأمم السامية ، لغرائهم وشدّة حسهم وصفاء قرائهم وحريةهم واستقلالهم وصفاء سمائهم ، وسكون صحرائهم ، وحنينهم وعبادتهم : بسبب كثرة حنهم وترطابهم . . . وكذلك كان حظ الأمة اليونانية من هذا الاستعداد ، أما الأمة الرومانية فقد كان حظها منه قليلاً ، فأتيح لها مواهب أخرى هيأتها للنبوغ في الحرب والسياسة والتشريع .

ثانياً - الإقليم والناخ: قد يكون الإقليم صحراوياً ، وقد يكون جبلياً ، وقد يكون سهلياً ، وقد تشقه الأنهار أو يكون قريباً من البحر . وهذه العوامل تؤثر في الحياة المادية والمعنوية للأمم التي تعيش في هذه الأقاليم ، فأحوال الأقليم هي التي تتيح لساكبيه سنن العيشة ، ونظام الاجتماع ، وتكون أختلافهم وطباعهم ، ومناظرهم

التي ترى ذوق أبنائه ، وتندى خيال كتابه وشعراته ، فالشعر الجاهل مثلا معانٍ أشد الفأر بطبيعة البادية وحياة البدو ، في الداعلة خشونة جبالها ، وفي مائيه وحشية أوابدها ، وفي أساليبه تشابه شعرها ، وفي أخيلته جذب قفرها ، وإنت تستمرته نزاره سورة سادقة لهذه الطبيعة ، وترى فيه وسف الصحراء والسراب والأبهر والتزلان والسكتيان والأطلال والجبال أكثر مما ترى أي في آخر .

فما أنت الرب في الأقاليم المتحصرة تأثرت آدابهم بها ، وكان شعرهم فيها غير شعرهم في الجزيرة ، بل كان شعرهم في إقليم يختلف عنه في الأقليم الآخر وهكذا طال حامل الطبيعة يمدل فله ، حتى وأبناء يختلف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس ، فقد وجد شعراء الرب في الأندلس الطبيعة التبرجة الشاعرة من مروج مطرزة بالزهر ، وجبال مؤزرة بالبيت ، وأنهار تلتف كالأساور على معاصم الحساب ، وعوائل تمدد كأهداب على البيون الذباب ، هذا إلى الأمطار اللصقة ، والناظر المختلفة . فديجوا الشعر تديج زهرها ، وسلسله سلسلة أنهارها ، ونوعوا فيه ، وجددوا في أوزانه وقوافيه .

وهذا السائل هو الذي يختلف كذلك بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق ، فالطبيعة المصرية مسألة لا تزج بالزلازل ، ولا تهز بالمواسف ، ولا يهيجها البرد القارس . ولا يدعها الحر اللاتع . فبورها لا يكاد يختلف ، ومناظرها لا تكاد تتغير ، ولهذا طبع أهلها على المحافظة والروامة والمكاهمة وجاء الشعر المصري منضد اللفظ جيد السبك بلي . التجدد هادي الأسلوب ، يتناول الأمور في اعتدال ورفق ولين ؛ بينما ترى الشعر الشامي شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الأساليب ، بسبب نشاط الحياة وتمدد الناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة . وبينما ترى الشعر العراقي قويا نائراً ساخطاً متوثباً متوقد الشعور من إسراف الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على السكان .

وقد أخذ حامل الطبيعة يضيف بسهولة الرواسلات وانتشار الدنية ، وسيزداد ضعفا في المستقبل ، ولكنه سيحفظ بتأثيره على كل حال .

ثالثاً - خصائص المجلس : فالجلس الآري يميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتصق ، بينما يميل المجلس الساسي إلى التميم والإجمال والبساطة لكاه عليه وحدة عاظره ، وهكذا يتميز كل جلس بمصانمه وسماته . وهي خصائص تؤثر في الإنتاج الأدبي وتبدو فيه بصورة واضحة ، فشمع العرب يختلف عن شمع اليونان والأوربيين في الذهب والخيال والترض ، وشمع ابن الرومي مثلاً يختلف عن شمع ابن الأثير مع أنهما نشأ في بلد واحد وعصر واحد . فابن الرومي يميل ويصق ويستقصي ، بينما يسم ابن الأثير ويجمال ويتوسط لأنه عربي أسيل .

رابعاً - الحضارة والاجتماع : فالحضارة والرخاء مما يؤثر في النوع ، ويزيد في الصور والناظر ، ويتوسع في مفايق الأدب وأفراسه . فالناس التي تحضر للتحضرين غير الناس التي تحضر لأهل البادية ، والأفراش التي يقول فيها أهل الحضر غير أفراش البدويين . والأفراط الحضري تلائم الحياة التحضرية رفة وعذوبة ووضوحاً وحسن استقصاء . ولهذا نجد الفروق عظيمة بين شمع العرب قبل أن يتحضروا ، وبعد أن تحضروا في مصر والشام والراق والأندلس . وكذلك ترى الفروق عظيمة بين شمعهم إبان ازدهار حضارتهم وشمعهم بعد انحطاط الحضارة الإسلامية حين تغلب الترك والبتار . ومن هنا عاد إلى الأدب العربي رونقه ورفقه بوجه عام حين أخذت الحضارة تزدهر منذ كانت النهضة الحديثة .

ومن شواهد تأثير الحضارة والحياة الاجتماعية في الأدب أن مدن الحجاز حينما ذهبت بالمال ونمت بالفراخ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الأول للهجرة ، غرق أهلها في الميو وعكفوا على البناء وصرفوا بالنتم واستسلموا للصبابة وانتفع شراؤها إلى النزول فاقنوا فيه ، ونصروا في معانيه . كسمر وجميل وكثير .

ومن الشواهد كذلك ظهور الشعر الباسي في بندا والأندلس في عصر واحد ، ففي بندا ظهر التواليا على لسان سفان البرامكة وشمع التوما الذي كان يتأدى به رجع العامة في طرائهم بالليل في شهر رمضان ، وفي الأندلس ظهر الموشح والرجل ، ونبغ

فيهما التواضع . ولكن اليناديين استهجنوا أدب العامة وعزفوا عنه ، بينما استعصمه الأندلسيون وبنوا فيه . والسبب في ذلك أن بغداد كانت أرسطراطية ، لأنها موطن الأشراف وذوي الأحساب والثروة ، فسكانوا يترشون عن التسب وأدبه ، ويأعون من مجارته . أما الأندلس فكانت ديمقراطية غنية ، لم يتر أحد فيها بالنسب للساويين فيه ، ولا بالثروة للموم الرخاء وحسن توزيع الثروة ، لذلك لم يترفع الشراء والأدباء فيها عن تقليد الأدب العاى وتدوينه .

خامساً - العلم : وهو لون من ألوان الحضارة له أثره وخطره في رقية العقل وتقوية الشعور وتقدمية التصور ، وخلق أنواع طريفة من الأدب . فإذا صرفنا النظر عن منظومة ابن عبد ربه في التاريخ والأدب ابن مالك في النحو ، فإننا نلاحظ أن انتشار العلوم قد أحدث نوعاً من الفصيح الخيالية تخرج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وخرابة الحوادث تخفياً زائياً أو تشويقاً للعلم . كما صنع ابن طفيل الأندلسي في رسالة (حي ابن يقظان) فقد صرح في هذه القصة كيف يستطيع الإنسان بمجرد عقله أن يتدرج من المسوسات البسيطة إلى أسس النظريات العلمية ، ولكنه يهجز عن إدراك أرق الحقائق بدير وحى من الله أو هداية نبي .

والتاريخ تأثير كبير في الأدب فهو مادة لا يد منها ثقافة الأديب يستمد منها فيما يكتب ، ويستعين بها فيما يفكر . وكثيراً ما كانت أحداثه مادة الأدب وخاصة في العصور الحديثة ، حيث أصبحت موضوعاً مهماً للقصاص التاريخية كما فعل شكسبير في بعض قصصه في الأدب الإنجليزي ، وكما فعل جورج زيدان وأحمد شوقي وغيرهما في الأدب العربي . ومن ناحية أخرى ترى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعاً أدبية كما في تاريخ الطبري ، بل إن بعض الكتب التاريخية كتب أدبية بألفاظها ، وهكذا يكون التاريخ من أهم العناصر التي تنشئ الفكر العربي وقد ظنوا إن كتاب هيرودوت هو أقدم كتاب منثور وأهم عرقة الأدب اليوناني . وللعلوم فضل ظاهر على الفنة في المادة والأسلوب ، وأرقوى في رقية الفكر خاصة لأنها تسكبها القوة والمدقة والوضوح .

ولم يرتق الشعر في أمة إلا بعد رقيها في الحضارة والعلم ، لأن الثمرة العقل كما إن الشعر لغة الخيال ، فالشعر العربي لم يرتق إلا في ظلال الحضارة .

وهذا وقد يختلف تأثير انتشار التعليم في الأدب باختلاف ما يكون له من مدى ، فانتشار العلم في العصور القديمة كان نسبياً مقصوراً على طائفة خاصة ، فكان الأدب أرسطوياً أو قريباً من الأرسطوياً ، فأما في العصور الحديثة حين أتيح العلم للناس جميعاً فقد أصبح الأدب ديمقراطياً شعبياً ، وأخذ الأدباء يتكلمون حين يشعشون في طبقات من الناس لم يكن يلصقونها أحلامهم .

سادساً - الدين : ولدين وما يتصل به من أخلاق ومعتقدات تأثير كبير في الأدب ، فإنه يخلق موضوعات جديدة ، ويؤثر في الأخلاق والمواعظ تأثيراً يتردد صداه في مفاهيم الأدب ، ولا يدع ظلاله في فوam الحياة النفسية للشعوب ، ومن ثم كان أثره واضحاً في كل ما يصدر عنها من آثار مادية ومعنوية ، فالآثار السائدة الفنية كالمآبذ والمساجد والكنائس والتمثال ، أما المعنوية فتها هذه الأناشيد الدينية التي هي مبدأ الشعر في كل أمة كأناشيد (روح) عند المصريين وأناشيد (أريه) عند اليونانيين ، ومنها هذا السجع الذي كان يجري على ألسنة الكهان في الجاهلية والذي يظن أنه مبدأ الشعر العربي ، وكثير من الميانات صبه كقالب مقدس بعد مثالا أدبياً ممتازاً كالقرآن الكريم ، والأدب التمثيلي أثر من آثار بعض الميانات اليونانية ، وقد أوجد الدين الإسلامي الأدب الصوفي ، وشعر الزهد ، ونهض بالخطابة الدينية التي تاتي في محافل الصلاة العامة ومقامات الوعظ ، ونحو ذلك مما يدلنا على أن تأثير الدين في الحياة الدينية قوي عميق ، وهو فوق ذلك يهذب النفس ويرقى الشعور ويسمو الإنسان إلى مستوى رفيع .

سابعاً - الحياة السياسية : وللنظام السياسي أثره في خلق غمسون من الأدب أو ازدهار بعض أوانه ، أو انحطاط بعضها ، فالنظام الاستبدادي السيف ينج أروانا من الأدب يظهر فيها الخناق والتفائق والإسراف في تمجيد أصحاب السلطان ، ومن

ثم يزدهر فن الشعر ، وفي ظلال الحرية والنهضة السياسية تزدهر الخطابة ولا سيما الخطابة السياسية ، ذلك النوع الذي تخلته الحرية السياسية والحياسة الديمقراطية والأنظمة الدستورية ، كما حدثت في النهضة العربية المعاصرة التي أخرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . وكذلك يزدهر الشعر الجانبي والوطني ونحوهما من الشعر السياسي الذي تصطنقه الأحزاب السياسية كما ترى اليوم وكما رأينا في صدر الدولة الإسلامية ، وفي ظللال الاستبداد يخفت صوت الخطابة ويذهب الأدب الصريح الصادق الذي يمثل الحرية الفردية والاجتماعية .

وتتمثل السياسة عملها في دواج بعض الفنون وانتشارها ، في خسارة مساوية انتشار المهجاء للفتح في العراق لأنه ساهم بالتفريق وإحياء النصبة ليشغل الناس عن المصومة في خلافته بالمصومة في أمر جرير والبرزدق مثلاً ، وانتشر التزل في الحجاز لأنه احتفل شباب الهاشميين في مدنه وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال والفرح . وقد يكون ضعف السياسة قوة للأدب كما حدث من ازدهار الأدب بعد انصاع شمل الخلافة بعد عهد التوكل واستقلال الولاة في قوس ومصر والشام والترب بسبب النفاسة بين هؤلاء الولاة .

تماماً - اتصال الشعوب : وقد تتكون الصلة بين الشعوب حربية فتصل بين التالِب والشلوب وينقطع كل بما عند الآخر ، فقد تأثر الرومان بحضارة اليونان وآدابهم لهذا السبب ، كما إناد العرب من البرس والروم وسائر البلاد التي فتحوها ، على أن الحروب بين الشعوب تنسى فنونا حاسية وربما أوجدت الشعر القصصي : فالإلياذة الإغريقية تدور على حروب اليونان لأهل طروادة ، والشاهنامه الفارسية على تاريخ الأكامرة ووصف الحرب بين أهل إيران وأهل طوران ، وهكذا كان الشعر القصصي أو الملحم التي خلا منها الشعر العربي لسواهل ترجع إلى البيئة والأقليم والدين ، على أن عامل الحروب قد أثر في النثر العربي والشعر العامي فإن نشوب الحروب الصليبية فدلقت في تدوين بعض النصوص الجاسية كقصصة عنقرة وسيرة بني هلال ونحو ذلك ، كما أثر في الشعر القصصي الذي يسود أيام العرب ووقائعها في الجاهلية .

أما الاتصال السلي بين الشعوب فيتيح لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية وغيرها ، وتتواصل بالحوار والمصاهرة وهكذا يأخذ بعضها من بعض ، ويقبَل بعضها بعضاً .

فنشأ في الأدب فنون لم تكن معروفة ، وتطور الفنون التي كانت معروفة ، وقد تضمت فنون كانت قوية قبل الاتصال ، فهدم دولة البساسيين في بئداد ودولة الأرميين في قرطبة كانت حضارة كل منهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة ، لسلك شمس منها خصائصه ، فالتقت العقيدة السامية بالعقيدة الآرية ، وكان لهذا التلاح أثر في الفسكرب يعلى لنا وفرة السامى الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وابن الرومي وغيرهم ، وأثر في الأندلس يظهر في الأعراس الجديدة كالنزل بالذكر مثلاً الذي ولده هذا الاختلاط . وقد اتصلت مصر والشرق العربي بأوروبا منذ القرن السادس تطورت الحياة الأدبية فيهما تطوراً ملحوظاً . وتأثر الأدب المصري بالأدب الأوروبي في أساليبه ومذاهبه .

تاسماً .. التقليد والاحتذاء : والتقليد فطري في الإنسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم أو يحلم ، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب ، فالشعر والنثر إنما يصانان على قواعد وأساليب خاصة ، وما مراعاتها إلا اقتداء الأديب بمن سبقه وترسم خطاه . والتقليد في الآداب أثر ظاهر ، فالشعر اللاتيني عاش زمناً على تقليد الشعر اليوناني ، كما نقل الأوربيون اليونان في الشعر المثلث وغيره من اللحن وظهر أثر التقليد في الأدب العربي الحديث فظهر الشعر النثبي على يد شوق ونعسيه من الشعراء وظهرت الأقصوصة والنصه والزوايه ، وغير ذلك مما أضاف إلى نصوصه فصولاً شائعة . والأدب الفارسي والأدب التركي قد تأثرا بالأدب العربي ، فترجم الفرس الشعر بالعربية ، أما الأتراك العثمانيون فإنهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في القرن الثامن اكتسبوا من الفرس بعض الأوزان العربية مدهداً لأوزانهم القديمة .

عادياً : وهناك عوامل أخرى كثيرة تؤثر في الأدب بعضها خاص وبعضها عام، لا يمكن حصرها وإن كان ينبغي أن نذكر منها أيام العرب وأصواتها، وستحدث عنها في فصل خاص ، وكذلك النقد الذي يرشد الأدياء إلى النهج السالمة والثناء الذي يهذب ألسان الشعر ويرقق حاشيته، ويذيع الأدب وينشره بين جميع الطبقات ، فيرتفع بأذواق العامة وأفكارهم وأساليبهم كما نرى في عصرنا الحالي ، ويجب ألا ننسى مجالس الأدب التي كان يقدمها أمثال عبد الله بن مروان وما لها من أثر كبير في النهوض به ، والناقصة في روايته ، كما لا ننسى أثر تشجيع الأدياء وإيجازهم مما يدمر إلى الإجابة والإبداع وغير ذلك مما يؤثر في الأدب .
والخلاصة في ذلك أن أي أثر في الحياة يظهر في الأدب لأنه صورته وترجمتها وتاريخها^(١) .

(١) من مصادر هذا البحث : أسرار النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشاذلي ، في أسرار الأدب للأستاذ الزيات ، الترميز الأدبي للأستاذ محمد حسين ، مجلة للأستاذ أحمد أمين في مجلة دار العلوم .

اللغة العربية^(١)

أصل اللغة العربية :

هي إحدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا ، وهي لغة الجنس العربي الذي ستحدث عنه وعن موطنه وحياته السامة وصفاته وأخلاقه في العصر الجاهل .

ولغات السامية هي - حسب ترتيبها ترتيباً زمنياً مطابقاً لانتشار آدابها - كما يأتي :

- ١ - اللغة البابلية والآشورية (من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م) .
- ٢ - العبرية (ظهرت من ١٥٠ ق م) واستمرت إلى يومنا هذا .
- ٣ - السبئية أو الحيرية أو العربية الجنوبية^(٢) وجدت منها نقوش يرجع تاريخها إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح وقد تلاهم السبئيون نهائياً من صنععات التاريخ حينما أخذ العدنانيون في الظهور والقوة .
- ٤ - اللغة الآرامية وهي كاللغة الحيرية (نقوش وجدت منها منذ سنة ٧٠٠ ق م) .
- ٥ - اللغة الفينيقية وترجع للنقوش التي عثر عليها منها إلى القرن السابع قبل المسيح .
- ٦ - اللغة الحبشية (٣٥٠ ق م حتى يومنا هذا) .

(١) راجع الكلام على أصلها وخصائصها ومراحل نموها في :
الخصائص - الزهر - السامي - كتب لغة اللغة - الأدب العربي لبراقني .
وراجع أيضاً لغة في : ٤٣٣ : شرح نوح البلاغة ، و ٨٠ : بلوغ الأرب ، والبسر
والقداح لابن فنيبة ، وكتاب الأدب لبراقني .
(٢) راجع الكلام عليها في ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لإسرائيل
والفلسون ط ١٩٢٩ القاهرة . ويرجع للفلسون معلوماتاً عن اليمن ولغاتها لغة القرآن وكتب
السيرة وكتاب الإكليل للبهمني ، وبسبب مصادر عبرية يهودية ، ومصادر تاريخية يونانية
ورومانية غيرودوث وسترابو الروماني وسواهما ، ونقوش وكتابات جمها الرواد الأوروبيون خلال
القرن التاسع عشر .

٧- اللغة العربية السامية^(١)، وهي لغة الشعر والنثر الجاهليين ولغة القرآن الكريم. وهي من أحدث اللغات السامية عهداً وأقربها ظهوراً، وكل ما ألف ودون عنها وما روى من آثارها فهو ليس بعيداً عن البيئة الحميدية بأكثر من مائة عام تقريباً.

والسامية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة^(٢) لأن الجنس العربي عاش في عزلة تامة بعيداً عن العالم ولم يختلط بغيره اختلاطاً كافياً لاختلاط الأجناس الأخرى بسواها ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم^(٣) فلم تتأثر لغتهم تأثراً كبيراً بغيرهم، وتمتاز السامية عن اللغات الأخرى^(٤) بميزات وخصائص^(٥) منها:

(١) كثرة عدد حروفها.

(ب) أغلب الكلمات فيها يرجع في اشتقاقه إلى أصل ثلاثي الحروف وهذا الأصل هو الفعل، والرأي الذي يذهب إليه بعض علماء العربية من أن أصل الاشتقاق هو المصدر مخالف لأصل الاشتقاق في باقي اللغات السامية ولله تسرب إلى اللغة

(١) راجع تاريخ الأدب العربي للسيد حسني الإنجليزي فيقول: يتكلمون. ص ١٠٧ الصحاح الراسد لعل جمة ط ١٩٢٩.

(٢) راجع ٧ : ٢ من كتاب تاريخ اللغات السامية طبع القاهرة ١٩٢٩.

(٣) وقد يكون السبب في قرب اللغة العربية من الأصل الأول لغات السامية أنها كانت موجودة في عهد اللغات السامية أو في ناحية قريبة منه أو أن التماس التي تزعت له بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية.

(٤) لغات الأخرى تشمل مجموعتين: اللغات اليانغية أو الآرية، واللغات الهامية.

أما الآرية فقد انتشرت في الهند وسارت منها إلى الأندلس وفرنسا ثم إلى أوروبا. وهي لسكان: أ- الآرية الشمالية وهي لغات أوروبا القديمة والحديثة.

ب- الآرية الجنوبية وهي السنسكريتية (لغة الهند القديمة) والفارسية: المنسوبة الحالية والفارسية والآرية والأفغانية.

وأما الهامية فقد انتشرت شمالاً آرية وتصل إلى النوبة والبربرية (لغة سكان المغرب) والعبرية القديمة (قبل فتح الإسكندرية لعمرو).

وأما اللغات السامية فقد انتشرت غرباً آسيا.

(٥) راجع ص ١٤ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩.

العربية من اللغات الهندية الإيرانية في اللغة العربية بتقليد الآرية إذ الأصل في الاشتقاق عند الآريين هو المصدر الاسمي .

(ج) ليس في اللغات السامية إتر لإدغام كلة في أخرى حتى تصير الكلمتان كلة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلين مستقلين كما هي الحال في غير اللغات السامية .

(د) اختصارها في الكتابة على الحروف دون حركاتها .

(هـ) كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة .

(و) اشتراكها في كثير من الكلمات مع اختلاف قليل أحياناً ويظهر ذلك من التشابه بين العربية والديرية ، فبعض الكلمات والصيغ في العربية وهي بالشين في العربية ، والألف في العربية وأو في الديرية ، فسلام في العربية هي سلام في الديرية . وكذلك التاء في العربية شين في الديرية كثور وشور ، وما كان في العربية والشاد فهو في الديرية بالصاد كأرض وأرض وهكذا .

وهذا الاشتراك دليل على أن اللغات السامية من أصل واحد^(١) . وأوجه التشبه بين أغلب اللغات السامية تظهر في بعض أسماء الأشياء التي كانت معروفة لهم جميعاً كأعضاء الجسم وكألفاظ إنشائية متقاربة فيها جميعاً .

وتنقسم اللغة العربية بوجه عام - لا اللغة البدائية خاصة - إلى لهجاتين :

(١) لهجات القبائل البدائية شمال الجزيرة .

(٢) يختلف الباحثون في ذلك : فالبعض يذهب إلى أن اللغات السامية تنحدرت من أصل واحد مجهول ، والبعض يذهب إلى أن إحداهن أصل لأنسابها، فقبل اليابسة من الأصل ، وقبل العربية ، والرايبع أن اللغات السامية تنحدرت من أصل واحد مجهول ، وأنه ذلك جورج زيديان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

واللغات السامية من الرجة الجزائرية تنقسم إلى ثلاث مناطق :

(أ) شرقية وتشمل اليابسة والأمازيغية .

(ب) مغربية وتشمل الكنتانية والديرية والأمازيغية .

(ج) جنوبية وتشمل لهجات العربية في جميع بلدان الجزيرة العربية واليهجات المحلية .

(ب) لهجات القبائل الصحراوية جنوب الجزيرة وتسمى اللهجة الحجزية^(١) وهي أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر في اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللهجة ولها حروف تختلف الحروف العربية المرونة كما أن لها شيئاً في التنوين وجمع الذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تختلف لغة أهل الحجاز وكذلك في حروف السكيات فهجزة أفضل في بعض السكيات الحجزية عام .

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز أو اللغة الدنانية فهي أحدث من لغة الجنوب ، وما روى إلينا من شعر جاهل فهو بها ، لأن الشعراء الذين نزلوا هذا الشعر إما من ربيعة أو مضر وما قرآن عدنانيان ؟ وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كملح وكعدة وتبوخ .

واللغة الدنانية هي التي يميزها البحث عنها ، وهي التي ينصرف إليها الحديث عند إطلاقنا لفظ « اللهجة العربية » .

نشأتها :

١ - اللهجة العربية البادية - التي هي الدنانية - هي مزيج من لهجات مختلفة اختلط بعضها ببعض وسارت لغة واحدة بد أن في أصحاب اللهجات الأولى وولدوا بالحروب والهجرة والامتزاج بينهم^(٢) .

على أن امتزاج هذه اللهجات وتدخل بعضها في بعض لم يتم مرة واحدة أو في زمن واحد بل حدث شيئاً فشيئاً وسار تدريجياً أزمة طويلة أثناء الجاهلية إلى ما قبل الإسلام بقليل وهكذا كانت لغة الشمال اللهجة الدنانية ذات سلطان قوي وعمود واسع في المصور القرينية من ظهور الإسلام قابضت اللهجات الجنوبية والشمالية الواحدة منها نحو الأخرى . وسادت هي في أغلب أقاليم الجزيرة العربية ، وكونت نفسها أدياً جديداً وشعراً قديماً .

(١) وتشمل اللهجة الدنانية واللهجة البهشية واللهجة الحجزية واللهجة القحطانية وحضرموت وفي تاريخ اللغات السامية لوفسون حديث طويل عنها (٢٢٧ - ٢٥٢ ط القاهرة ١٩٢٩) .
(٢) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩ .

وأخذت اللهجات في بلاد اليمن تندهر وتلاشى حتى كانت تبقى في القرن السادس الميلادي ، وخاصة لفقدان الياء لغيرها بمضمونها للأحياش طورا ثم للفرس طورا آخر تندهرت حنازتها ، وتلاشى ظل اللهجات الجبية .

ويسر ذلك السبيل أمام اللغة البدائية لتندسر في الحركة ، ويقع من اللهجات الجبية في اللغة العربية سدى قليل لا يكاد يكون شيئا مذكورا^(١).

٢ - ووجود بعض الألفاظ عبرية ، وآرامية ، ويونانية^(٢) ، اندمجت في العربية بواسطة السريانية ، وفارسية^(٣) ، من الطغاة أن نستدل به على إقادة اللغة العربية من هذه اللغات في طور نشأتها ، لأننا لا نعلم متى دخلت هذه الألفاظ في اللغة العربية ، ولو سلفا أنها دخلت في العصر الجاهل فيكون المقول إن تمدأ أثرأ من آثار تهذيب اللغة العربية أو طورا من أطواره .

٣ - ولا شك أن اللهجات التي امتزجت باللغة العربية قسبان :

(أ) لهجات سكان شمال الجزيرة كشمود^(٤) وغيرها من القبائل العربية القديمة البائدة ؛ ومنها قبائل ميين^(٥) التي استوطنت في شمال الجزيرة العربية .

(ب) ولهجات سكان جنوب الجزيرة وتمثل في اللغة الميمنية القديمة^(٦) ، واللغة السبئية التي خلفت اللغة الميمنية^(٧) ، أما اللغة الحضرية فهي السبئية مع خلاف قليل

(١) وقى ص ٢٤٠ من الزهر السيوطي أن بس لهجات عربية صحراوية كانت عائدة في اليمن لقرن الثامن الهجري .

(٢) مثل: أجيبيل وأسطوانة، وأسلاف وناموس وبيبل وبتان وصراطا وبتنبريس وترفوس .

(٣) مثل : محوس وجيش وأسناد (راجع في ذلك ص ١٠١٥ من تاريخ آداب اللغة لعماد دواب) .

(٤) راجع موطئها وأشهرها في ١٢١ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٥) راجع ص ١٧٦ وما بعدها تاريخ اللغات السامية .

(٦) والقبليون قدموا من العراق إلى اليمن ولتتهم بابنية وبناتهم في اليمن أخذت تتباعد

من أصلها شيئا فشيئا حتى صارت لغة مستقلة (راجع ص ١٢٤ الصحاح الراسد) .

(٧) والسبئيون أو القحطانيون قدموا إلى جنوب شبه الجزيرة من الجهة أو من الشرق في القرن الثامن قبل الميلاد والقبسوا لغة اللبنيين (١٢٤ الصحاح الراسد) وأولهم هو قحطان

رأس العرب العاربة وابنه يربب هو الذي نقل لغة اللبنيين وبدأ يهذبها .

وقد نشأت مع اللثة الدنانية في وقت واحد^(١) ثم تنذت بها الدنانية ثم التهمتها وقضت عليها ، ومن المرجح أن ظهورها بدأ قبل الميلاد بقرن واحد أي قبل الهجرة بسبعمائة عام^(٢) .

٤ - ودخل إبراهيم بنه إسماعيل إلى الحجاز وأقام بمكة وعالط قبيلة جرم الثانية الجنية وساعرها وتلم لتبها سكان لهذا المنصر الذي يرجع إلى العبرية أثر في اللثة العربية الدنانية^(٣) .

٥ - ثم بدأت عوامل تهذيب اللثة العربية الدنانية تعمل عملها باخلاق التبايل العربية بعضها بعض ، ورحلات الترشين في البلاد واتسالم بالأمم الأخرى ، ثم زل القرآن الكريم فأشع على الدنانية ثوب القوة والجلود^(٤) . وهكذا نشأت الدنانية ونضجت . . . وقبل أن نعلم هذا البحث نعرض هذا النص ؛ قال الأستاذ محمد لطفى جمة ، في كتابه الشهاب الزاسد^(٥) : « ومن الجمع عليه لدى علماء أصول الفئات وعلماء الشريكات أن هذه العربية المحنة - الدنانية - هي القاية التي انتهت إليها تلك الفئات وكانت جميعها ووافد تندي نهرها العظيم ، فالجيشية والسبئية والحيربية والبرانية والبيطية وما تحلف عنها من لهجات متفرقة خدمت كلها تلك القرية الفصحى الخالصة » .

أطوار تهذيب اللثة:

١ - سبق^(٦) أن ذكرنا أن الليبيين بد هجرتهم من العراق إلى اليمن أحرمت لتبهم اليابلية ثم استقلت نسبت اللثة البينية ، وتوارثها السبئيون وأحرمت نصارت لثة جديدة هي اللثة السبئية ، وكانت هي لثة الحيربيين إلا أنها اكتسبت صفات

(١) ١٢٠٠ الصواب الزاسد . (٢) ١٣٣٣ قس الرجوع . (٣) وراجع ما كنيه الجاسق في البيان واليهود من إسماعيل وعالته بالعربية دون تعين (٤) ١٦٨ : ٣ . (٥) رابع ٢١٠ تاريخ لغات السامية . (٦) رابع ١٣١ الصواب الزاسد .

جديدة بصل الزمن وتبدل الحياة والعبئة ، ثم هاجر إسماعيل إلى مكة وأقام بها وكان لسانه عبرانياً، وجاور جرم الثانية النحطانية وخالطها وسأهرها وتكلم بشتها وهو اللغة النحطانية أو البشبية - وتكلم بهذه اللغة أجداده ، وبذلك نشأت اللغة البدائية ، وكانت نشأتها هي واللغة الحيرية في وقت واحد على الأرجح وذلك قبل البلاد بقرن واحد أو قبل البشة بسبعمائة عام ، ثم أفاضت البدائية من الحيرية وسأهرتها حتى طوتها وتكلمت عليها . وذلك هو الدور الأول من أدوار تهذيب اللغة العربية .

٢ - ثم كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر في تهذيب اللغة ورفعتها .

ولا شك أن الحروب ، والتجارة ، والمهج ، كان لها أثر كبير في اختلاط القبائل بعضها ببعض وتغامرها وتقارب لسانها ، مما يشبه الأثر الذي أحدثته سيل الرمم - التي حدثت حوالي ميلاد المسيح^(١) - وأدى إلى هجرة القبائل واختلاط النحطانيين بالبدائيين وتأثرت لغاتهم بذلك الاختلاط .

والمهج له - من بين هذه العوامل - أثر كبير في تهذيب اللغة ، فقد كان العرب يهجرون إلى السكبية وكانت تريض تتصل بهم ويصلون بها ، وكان الفرثيون على قسط من العرفة والرق القسكرى ، وفيهم ذوق ولم ملكات ناشجة في القعد النوى ، فسكأوا يمزجون بين اللهجات والألفاظ ، ويقسمون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأصحها ، ويضيفون ذلك إلى لغتهم ، فيذروا لغتهم حتى خلقت من السقيم والسليط من الألفاظ واللهجات ، كما كانوا في رحلاتهم التجارية إلى الشام وألمين وفارس والحبيشة يأخذون من لغات هذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها في لغتهم بعد أن يظفروا بها نطقاً عربياً فصيحاً - وهو ما نسميه

(١) راجع ١١٠ النهاب الرامد - وعظمه الزيات في جبل تاريخ سيل الرمم هو عام ٤٤٧ م (راجع ص ١٣ تاريخ الأدب العربي لقرينات) .

التصريف - وبذلك زادت ثروة الفئة المدنانة العرشية ، وفقدت القبائل الأخرى قريشاً في ذلك وحكمتها في لنتها وأخذت عنها فكان بذلك لقريش أثر كبير في تهذيب الفئة ، بل كانت تقوم بما تقوم به جماع الفئة الآن، وسارت لثة قريش أعذب اللغات لفظاً وأبنتها أسلوبياً وأوسمها مادة .

إثر الأسواق^(١) : ومن العوامل الأخرى - التي ظهر فيها اختلاط العرب وكان لها أثر في تهذيب الفئة - الأسواق .

والأسواق العربية كانت ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة ، كما كانت سبباً في دمج الوحدة والتفاهم بينهم وفي مزجهم ببعضهم ببعض ، وفي التقريب بين ألسنتهم ولهجاتهم وكانت مع ذلك مجماً أدبياً كبيراً حيث كان يجتمع فيها الشعراء والمطباء فيشيدون ويخطبون .

يقول سديري : « إنشأ العرب أسواقاً عامة يتصارفون فيها ويتصاحبون فلم تسكن هذه الأسواق في عكاظ ومجنة وذى الحجاز سوى مؤتمرات للشعر في الحقيقة خالية من التحكم على النفوس ، ولا على أرواح من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية ، فكان ينهض مقاتل شجاع مئز الحظا أمام جمهور سامت جامع لحواصه ، لم يكن عليه من الزينة ما يشير إلى أنه من طبقة عالية ، فكانت الأيصار تشخص إليه فيلشد بصوته الرخيم من فوق مرتق قصيدة بأسرها ، وتراه يترنم بأعماله السامية ويصرف عشيرته أحياناً ، وتراه يمدح القوة والشجاعة أحياناً ، وتراه يسود بحجاب الطبيعة وعزلة الصحراء وللناهل البتنة ويصف المنزال أحياناً ، وذلك على حين يسير الجمهور مع الشاعر التي يود الشاعر أن يوحى بها إليه ، فيشاهد على وجهه اللثة علام الإعجاب بالطل الصابر في الضراء كما تشاهد علام احتقار الجبان النذل ، وما كان للستمون ليخفوا حواصنهم ، والشاعر كلما

(١) راجع الكلام على عكاظ والربيع في الرسالة العدد ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٦ وفي بلوغ الأرب ٢٦٤ : ١ ، وسهم البدان . والكلام على عكاظ في النقد القديم ص ٣٦٩ - ٣ .

توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلى تشييده بحماسة جديدة ، وقصائد الشعراء إذا ما تبعتها مؤتمرات مكافأ بقبول حسن ، ككثير معروف من ذهب على نسج عينة وعلفت في السكينة لتعطف للعدنة ، ويستمتع العرب تحت الخيام مساء تلك الأشجار السجبية بللة وهي التي تجمع بين سحر النعسة الأثرية المزينة وبها من الترتيم وحلاوة التوقيع وهذوية اللحن ، فيجدها شاملة لسا يثيرهم من المواقف والشجون والحاسة ، فكأنها وسمت بللة مبررة عما يجيش في صدورهم ، وتجد في شعر الشعراء الذين اشتهروا في هذا الدور وسفاً دقيقاً لحياة عرب البادية الذين لم يتسد الزمن طياتهم ، وليس من النادر إن كانت تحدث بعد الوقائع المامية مباريات نقر وكرم عرفت بالمعارف ويقع التحكيم فيها من حكم برضونه ، وأحكام كفه لايد أن تصدر في احتفال كبير فتؤثر في النفوس تأثيراً جليلاً .

وإذا كان الخطباء والشعراء ، وكل ذي كلام - يريد له سمة فهم وكثرة ذبوع ، ولايد أن يريد - يرون لثة فريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انتسبوا إليها جيماً يستوحون فصاحتها وبيانتها ، ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع الجهات ، فأصبح لهم الذي يتوره يهتدى ، والإمام الذي به يقتدى ، عرف العرب لها ذلك واعتقدوه في الهاككة والتقليد ، فأخذوا يتفرون بلسانهم إليها ، وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقرب ، حتى قرب توحيد الجهات التام ، واستمد العرب لهم القرآن الكريم الذي نزل بللة فريش ، ولمرفة موطن الإنجاز فيه ، وما زال القرآن الكريم هو المحيط على هذه الوحدة والفرع هذه المنة بصوتها من أن تحوها التوازل أو تشبب منها لجهات مختلفة تنقطع سلتها بالنسج الأول فينتسب ويحذف .
ومن أم هذه الأسواق : مكافا ومجنة وذو الهاز :

١ - أما مكافا : فهي قرية بين نخلة والطائف ، كانت تمام بها سوق تجارية عامة ، وتاريخ إقامة هذه السوق يبدأ من عام ٥٤٠ م ، وكانت تنقد في أول ذي القعدة إلى العشرين ، وبقيت في الإسلام إلى أن نهىها الخوارج عام ١٢٨ هـ ، وكانت ميداناً

للغايرة والمناخنة والتجارة ونفاة الأسمى وإنشاء التصانيد ، وجاء ذكرها في الشعر العربي ، قال طريف بن تميم :

أو كلاً وردت عكاظ فبيته يشبوا إلى عربهم يتوسم
وقال الثابتة :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت السجاج فاشقت خياري
وقال حسان :

سأشتر إرث بيت لم كلاماً يترق في الجامع من عكاظ
وسوق عكاظ سوق عامة كان يحضرها العرب جميعاً ، أما الأسواق الأخرى
فمساكنات إسمائياً عملية ، وعكاظ هي عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيه فيمكث
بعضهم بعضاً والمضار ، وكانوا يتفخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا . وعكاظ محل
في واد بينه وبين الطائف لينة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق
العرب^(١) ، وكانت قبائل العرب تجتمع بمكة في كل سنة ويتفخرون بها ويحضرها
شمرائهم ويتفخرون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفخرون ، وكان هناك سخور يطوفون
بها ويحجون إليها ، ولم يكن عندهم أعظم من عكاظ ، قالوا : كانت العرب تقيم سوق
عكاظ فسر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم
تنتقل إلى سوق ذي الحجاز فقيم فيه إلى أيام الحج^(٢) ، وهذا رأى آخر في زمان انتفاذها .
ويرى إن اللغات أنشئت في عكاظ ، ويقول أحمد أمين من مثالة له : كان

لعكاظ أثر كبير في وادي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين
وعدنانيين تنزل بها ، ومكة الحيرة يبيت تجارته إليها ، ويأتي التجار إليها من مصر
والشام والعراق^(٣) ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تقام القبائل وتقارب اللججيات ،

(١) وقال الزمخشري : عكاظ بين نجد والطائف وراجع كتابه « قصة الأدب في الحجاز في
العصر الجاهلي » للملايين وعبد الجبار . (٢) ٢٠٣ : ٦ - مجلد البلدان .
(٣) يروون أن عباد الله بن جهمان أن مصر تبيع ما منه وعاد إلى سوق عكاظ نظر
الإكليل ليمداهي جزء ٨ من ٢٨٤ وما بعدها .

واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه اللق بها وأنسب لها ، كما إن التجار من البلدان القديمة كالشام ومصر والبراق كانوا يطلبون العرب على عيهم وأوا من أحوال تلك الأمم الأجنبية ، وفوق هذا كانت سكانا ممرساً للبلانة ومدرسة بدوية بقي فيها الشعر والمطرب وينتقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو الفتر: وكانت سكانا متاير في الجاهلية يترجم عليها الخطيب بمخلطه ونفاله وعد مآثره وإيام قومه من عام إلى عام فنها أخذت العرب أياها ونظرها ، وكانت النابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء ينسو ماء السياء^(١) توارتوا دمشق بمكك كابرأ بسد كابر
يؤمنون ملك الشام حتى تمكثوا ماركا بأرض الشام فوق النابر^(٢)
يفض أصراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم في سكانا .
قام عمرو بن كلثوم خطيباً بسوق سكانا وأنشد قصيدته الشهيرة :

• ألا هي بسحكك قاسيحينا^(٣) •

وكان الأمشى يوافق سوق سكانا كل سنة ، وفيها أنشدهم قصيدته في مدح الملحق^(٤) .

وكان الدابة القبياني تضرب له قبة آدم بسوق سكانا يجتمع إليه فيها الشعراء ، فيدخل إليه حسان بن ثابت وهذه الأمشى والغمام فيشدهونه جيماً ويقاضل بينهم وتندفها زموا قول حسان :

لنا الجففات الثرى يلمن في الضحى وأسباننا يتطرن من نجسة دما
قال لحسان : قلت العدد ولو قلت الجفان لسكان أكثر - وقلت : يلمن والضحى
ولو قلت يبرتن يلمن لسكان أبلغ في الدعج لأن الضيف بالليل أكثر طروقة^(٥) .

(١) ماء السياء لب عامر بن حارثة الأزدي أبو عمرو مزينة الذي خرج من اليمن إلى أحمس بسيل الرمم ، وسمى ماء السياء لأنه كان يلا أجدب قومه ماتهم - أي كلام مؤوتهم - حتى يأتيهم المصب فكانت خلف من ماء السياء - وقيل لونه : بنو ماء السياء ، وهم ملوك الشام .
(٢) الأرملة والأكنة ٢ من ١٧٠ - (٣) الأثاني ١ من ١٨٢
(٤) الأثاني ٨ من ٢٩ + ٨٠ - (٥) المرجع ٨ من ١٩٤ و ١٩٥

وفي حكاية مدح دريد بن الصمة ابن جهمان بعد أن هاج فقال : إليك ابن جهمان
أمرتها^(١) الخ . وخطب قيس بن ساعدة الناس خطيبته المشهورة .
فذكرهم بالله واللوت ورسول الله يسبح له^(٢) وكانت الخنساء تشهد الموسم بحكاية
وتعظم العرب بمصيبتها في أيها عمرو بن العريذ وأخوها سخر ومعاوية ، وتشهد في
ذلك القصائد^(٣) ، وعلى الجلة فكانوا في حكاية بنيامين وبصا كطلون وبناخرون
ويتحاجون ، وتشهد الشعراء ما نجد لهم . فن هنا كله نرى كيف كانت حكايات
مركزاً لحركة أدبية وثقافية واسعة النطاق ، كما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية .
وكانت القبائل - كما أسلفنا - تزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، تتلاقى
أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في المناسبات المختلفة . فكان الناس يجتمعون على
سرحة ، أو حول الخطيب يطلب على منبر ، أو في قباب من آدم تمام هنا وهناك ،
ويحفظ الرجال بالنساء في الجامع ، وقد يكون ذلك سبباً في خطبة أو زواج أو
تناذر^(٤) وكانت تحضر الأسواق - وخاصة سوق حكاية - إصراف القبائل . وكان
إصراف القبائل يتراوون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن اللوك كانت ترضع
للإصراف ، لسكن حريف بهم من الأرباح ، فكان حريف كل بلد يحضر
سوق بلده ، إلا حكايات فإنهم يتوافون بها من كل أوب^(٥) .
وكان الإصراف يشقون في هذه الأسواق مشددين ، خائفين أن يؤسروا يوماً فيكبر
تداؤم فكان أول من وقع القمام طريف الشبري ، لما رأى يظلمون في وجهه ويفرسون
في ثباته قال : فجع من وطن عمسه إلى على صرعه ، وحسر عن وجهه وقال : « أو كلاً
وردت حكايات قبيلة » إلى آخر الأبيات^(٦) .
وكان على سوق حكايات كلها رئيس إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين الخصامين ،

(١) الأثافي ٩ ص ١٠ (٢) الأثافي ١١ ص ١٢ و ٤١ (٣) سنة جزيرة العرب ص ٢٦٣
(٤) انظر الأثافي ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها ص ١٣٠ ص ١٤٠ وما بعدها .
(٥) الأثافي ٤ ص ١٢٦ وما بعدها . (٦) الأثرية والأثافي ٢ ص ١٦٦ .

قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني نجيم . . . وكان
من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب السدواني وسعد بن زيد بن مناة من نجيم ،
وقد نقر الخليل بذلك في شعره :

ليالي سدد في عكاظ يسوقها له كل عريق من عكاظ ومترب
حتى جاء الإسلام فسكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن جهاش^(١) .
ومن السير جدم أن محمد بن سفيان ، فلم يجد في ذلك تهرباً يصح التصويل عليه ،
يقول الأوسى في بلوغ الأرب : «إنها اتخذت سوقاً بعد الليل بخمسة عشرة سنة» ،
ولسكن إذا بحثنا في الأحداث التي رويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم
يرون - كما قدمنا - أن عمرو بن كثرتم أشد فصيده في عكاظ ، وعمرو بن كثرتم كان
قبل ذلك .

وقد عد للرزوق في الأزمنة والأمكنة من رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة ،
أولهم : عامر بن الظرب السدواني . وهذا - من غير شك - يجعل تاريخ عكاظ أهدأ
بما يحكي الأوسى بزمان طويل .

وظلت سوق عكاظ تنوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الإسلام حروب البجاء
وهي حروب أربع ، وكان سبب الأولى للفاخرة في سوق عكاظ ، وسبب الثانية تعرض
فتية من فريش لا امرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وسبب الثالثة مفاصلة
دائن لدينه مع إزالته في سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرجل شين أن تصل
تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة ففقه البراء في الطريق^(٢) .

فسلكها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله
عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وفيها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مسح
إمامه ، وقال : كنت يوم البجاء أنبل على عمومي^(٣) . واستمرت هذه الحروب
نحو أربع سنوات .

(١) انظر تعداد من ولي عكاظ في الأزمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٧ .
(٢) انظر العدد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأمان . (٣) النهاية لابن الأثير مادة بجر .

واستقرت مكات في الإسلام ، وكان يبين فيها من يقضي بين الناس ، فبين محمد
ابن سليمان بن جاشع قاضياً لمكات ، وكان أبوه يقضي بينهم في الجاهلية وسار ذلك
ميراثاً لهم^(١).

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضمت شأنها بعد الفتح فأصبحت البلاد الفتوحه
أسواقاً للعرب خيراً من سوق مكات ، وسار العرب ينشون المدن الكبيرة لتضاه
أعراسهم ، فضمت أسواق العرب ومنها مكات ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر
الهدايا قبيل سقوط الدولة الأموية . قال السككي : « وكانت هذه الأسواق بمكات
ومكة وذي الحجاز قائمة في الإسلام ، فأما مكات فأما تركت عام خرجت المروية بمكة
مع أبي حمزة الخزاز بن عوف الأحمسي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن
ينهبوا ، وغابوا الفتنة فتركها حتى الآن ، ثم تركت بمكة وذي الحجاز بعد ذلك ،
واستقرت بالأسواق بمكة وبجدة وبدمشق . . . وآخر سوق خربت سنة ١٩٧ أشار لهما
أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها تخريباً وتركت إلى اليوم^(٢) .

مكات عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب ،
وجرت فيها أحداث مجيئة التي سئل الله عليه وسلم قبل بعثته ، ومهدت المييل قبيل الإسلام
لتوحيد الله والأدب ، وحملت على إزالة التوارق بين عقليات القبائل ، وقصدتها النبي
سئل الله عليه وسلم بيت فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين
والعهد الأموي ولكن كانت حياتها في الإسلام أضمت من حياتها قبله ، وبدأ ضمها
من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين ،
فلما ضمت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والبراق
ومصر عرساً عنها ، ثم كانت ثورة أبي حمزة الخارجي بمكة كظم يأمن الناس على أموالهم
تقرت السوق ، وضمت صحيفة لحياة عائلته ذات أثر سياسي واجتماعي وأدبي^(٣) .

(١) الأمانة والأمانة - ٣ ص ١٦٧ وما بعدها . (٢) أخبار مكة للأزرق ص ١٢١ و١٢٢
(٣) راجع مكات في السان ٣٢٢ : ٩ ، والمدن العربية ٣٠٣٦ : ٣ ، وسبب الزمان
١٦٠٢٣ .

٢ - حجة : موضع عبر الظهور ، وكانوا يظنون إليها من مكاتب يقيمون إلى غاية ذى القعدة .

٣ - ذو الحجاز : خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها تعابضة أيام من ذى الحجة ثم يتفون برفة في اليوم التاسع .

وبعد ، فقد كان لهذه الأسراق حملها المتوى في التهم والتقد والإيتار والاختيار ، ثم في التبادل التوى بين القبائل عامة ، مما كان له أثر كبير في تهذيب اللغة .
ثم أنزل القرآن بلغة قريش فجمع العرب عليها وهذبها وجعلها أصح اللغات ونشرها في الدنيا وجعلها لغة عالية بعد أن كانت لغة العرب وحدهم ، والقرآن الكريم تحت سيادة لغة قريش على لغات جميع القبائل العربية الأخرى ولهجاتهم .

اختلاف اللهجات العربية :

(١) كانت اللهجات كثيرة لأن العرب شتوب وقبائل وبتون وأخذ وعشائر وفصائل متشعبة ، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها ، وبذلك كثرت اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها^(١) ، ولكنه كان في الفروع واللهجات لا في أصل اللغة ذاتها وكان إمرأً للبيئة والنبشة والحياة والجو ، ولم تدون جميع هذه اللهجات^(٢) ، ولكن بقي ظلتها في اللغة العربية .

ويقول أبو عمرو بن العلام م ١٥٤ هـ : ما لسان حبر وأقاصى اليمن بألسنتنا

(١) واختلاف اللغات - أو اللهجات - يرجع إلى أمور ثلاثة :

١ - بيان اللهجات وتوحيظ التنوع اللغوي كاختلافهم في صيغة اللفظ أو كيفية النطق وهو المراد هنا .

٢ - اختلاف اللفظ للفظ الواحد باختلاف اللغات التي تنطق به ومن هذا النوع للترادف والأشهاد .

٣ - ما يكون قد انفرد به عربي مع إيطاق العرب على النطق بخلافه وهذا يجوز أن يكون قد علم تلك الأسراق من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها .

(٢) بقيت اللغات سيادة منسوبة إلى أصعبها من العرب عند الرواة والبلغاء إلى آخر القرن الثالث (١٢٩٩ تنقيح الزمرد) .

ولا هريتهم هريتنا » ، وكذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « لغة حير لغة أخرى متباينة لغة مضر كما هي لغة لغرب لمهدنا » .

وهذا طبعاً تصوير للخلاف الواسع بين العربية والمجرية على عهد ابن اللؤلؤ وعهد ابن خلدون ، وما يتصدان إلى اختلاف اللهجات ، وذلك يدعي بما ذكرناه .

(ب) ومن سواد اختلاف اللهجات العربية ما يبدو لك^(١) من :

١ - الكشكشة في لهجة ربيعة ومضر ، وهي : زيادة شين بعد كاف المخاطبة اللؤنة في الوصف ، أو في الوصف والوصف جميعاً ، أو جعل الشين مكان هذه الكاف مع كسرها في الوصل وإسكانها وفقاً .
يقولون في رأيتك : رأيتكس ، أو رأيتش .

٢ - الكسكسة في لهجة ربيعة ومضر أيضاً ، وهي : أن يبدلوا بعد الكاف أو مكانهم في خطاب الذكر شيئا يقولون في حرفك : حرفكس أو حرفكس ونسبها الحريري لسكر لا ربيعة ومضر ، وجعلها مثل الكشكشة (زيادة شين بعد خطاب اللؤنة) ، ونسبها القاموس لثيم ونسرها بما نسرها به الحريري .

٣ - ششنة العين ، وهي : إبدال الكاف شيئا مطلقاً ، يقولون في لييك : لبيش ، وفي كئبي : شقبي .

٤ - الشقلة في لغة طلي ، وهي قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون : « يا أيها الحكا » في « يا أيها الحكمر » .

٥ - الخنخانية الشحر ومان ، وهي حذف بعض الحروف الينة فيقولون « مشا الله » في « ما شاء الله » .

٦ - طعانية حير : والطعنة : أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم ، والعلمانية هي : إبدال لام التمزيق مياء ، ومن ذلك « ليس من أبرامصيام في امسفر » وفي الآنة : الطعطم والطعاني : التي في لسانه نجمة والبي الذي لا يفصح .

٧ - خفجة هذيل وهي قلب الحاء عينا مثل « عني » في « حتى » .

(١) راجع ص ٩ وما بعدها ، ٦ من تاريخ آداب اللغة العربية لعماد الدين .

- ٨ - محببة فماعة^(١) وهي قلب الياء المتطرفة بعد عين جيا مثل «الصاحح» في «الساقي» .
- ٩ - عنمة فماعة وهي إختفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر .
- ١٠ - عنمة تيم وتيس وهي جعل الهززة البدوية بها عينا مثل «عتت كريم» في «أنت كريم» ، والبرنج يكسون فيقولون العين هززة فيقولون في «أبي» .
- ١١ - الاستعطاء في لغة سدد والأزد وتيس والأنصار وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو «إنطى» في «أعطى» .
- ١٢ - ثلاثة جهراء من تيم ويسمونها ابن فارس إلى أسمد وغيرهم وهي كسر أحرف الضارعة ، وقيل كسر تاء تملون .
- ١٣ - وهم كلب وهو كسر هاء النبية إذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة مثل منهم ومنهم .
- ١٤ - وكتر ديمة وهو كسر كاف الططاب في الجمع قبل ياء أو كسرة مثل «عليكم» .
- ١٥ - وثم الجين : وهو إبدال العين للهمزة تاء مثل الدات في الناس .
(ج) هل أن هناك اختلافات أخرى في الهمجات منها :
- ١ - إبدال التاء هاء ونكسه في الوقت عند على . يقول في فاطمة «فاطمت» وفي نيت «نسه» .
- ٢ - إبدال الياء ميا ونكسه مثل «ياميك» مكان «مايميك» و «مكر» مكان «بكر» وهو لغة «مازن» ومنها آثار في لغة أهل مديرية القهيلية وبعض القرية حديثاً في مصر .
- ٣ - وإبدال الحاء هاء مثل «مدهته» في : مدطه .
- (١) راجع ٦١ : ١ تاريخ آداب اللغة العربية ل محمد دياب .

خصائص اللفظة العربية :

تميز اللفظة العربية بما يأتي :

- ١ - ثروتها الثوبية ، فليها أسماء لكل مانع عليه العين أو تسمه الأذن أو يبول في الحاطر .
 - ٢ - سبغ المشاركة ، كخضاموا ونحاجوا ، فهي خاصة باللفظة العربية ولا توجد في اللغات الأخرى .
 - ٣ - الإعراب ويشاركها فيه كما يقول جورجى زيدان الحبشية والألانية وكادت الألانية تتخلص منه ، ويلاحظ أن العربية العامية تخلصت من الإعراب .
 - ٤ - الإيجاز فهو فيما أوضع .
 - ٥ - الهجاز والاشتقاق وهما كذلك ظاهران في اللفظة العربية .
 - ٦ - الاشتراك وهو دالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى كالعين للماء والذهب والفضة واللباس ، وهو خاص باللفظة العربية . ومشوّه على الأرجح تمدد التباين فيكون اللفظ بمعنى عند قبيلة وهو بمعنى آخر عند قبيلة أخرى . وقرائن الكلام والأسلوب توضح المراد من اللفظ .
 - ٧ - التضاد : وهو أن يدل اللفظ على معنيين متضادين كجبال للمعظم والمخير^(١) . ومشوّه كذلك تمدد التباين فتضع قبيلة اللفظ لمى ، وتضعه أخرى لنده .
- والترتبة فيه أيضاً هي التي ترشد إلى الزاد .

(١) وكلفظ الجبل الأبيض والأسود ، وللفظ الرطب القمود في لغة حير - ويروى في أصل لكل « من دخل طفار حير » أن أمرايا دخل على ملكه من ملك حير فقال له الملك : « تب » يريد : اللد بلفظ حير ، فوجب الأمرين ، شأن الملك من ذلك فقبل له : إن الرطب بلفظ حير هكذا ، فقال : أما إنه ليست عندنا عربية ، من دخل طفار حير ، أي تكلم بلفظ حير ، وهذا لكل صار يضرب إن يدخل في اليوم فيأخذ برأيهم .

عوامل نحو اللثة :

وأسباب نحو اللثة كثيرة منها :

١ - الاشتقاق : هو أخذ كلمة من أخرى مع تشابه في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها . وذلك كما كرم بكرم الخ وهو قياس .

وأسل الاشتقاق المصدر أو الفعل على خلاف في ذلك ، ويشق من أسماء الأجناس ككذاب الرجل وأسفأسد . وهذا النوع من الاشتقاق سماه .
والراء بالاشتقاق هنا الاشتقاق الصنعي طبعاً .

٢ - المجاز وبه يتسع التعبير ، وتظهر البلاغة ، ويشوع البيان .

٣ - التعريب ، وهو نقل اللفظ من النجبية إلى العربية^(١) . وفي القرآن ألفاظ معربة كسجبل ومشكاة وأبريق وإستبرق وبم وطور ، وأنكر ذلك أبو عبيدة ، وجمع آخرون بين الرأيين بأن الألفاظ الأجنبية بحسب الأصل ثم سارت عربية .

وقد نشأ التعريب في اللغة العربية بمجاورة العرب في الجاهلية لسوام من الأمم كالفرس والروم ، وباختلاطهم بهم في التجارة والحروب والبحوث العلمية وغير ذلك .

٤ - الفصح :

وهو أخذ كلمة من كثيرين فأكثر للدلالة بها على معنى ما عرفت منه « كمدل » في « الحمد لله » « ويسل » في « بسم الله » و« عيشي في « عبد شمس » .

وقالته الاختصار وزيادة ثروة اللغة وسهولة النطق .

وهو غير قياس إلا عند ابن فارس ، ومن الألفاظ الفصحوة الواردة : الفذلسكا .
• - الترادف^(٢) :

وهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد كالبر والتمج والبيث والأسد ، ويسكر بعض الباحثين الترادف في اللغة العربية بدعوى أن كل لفظ من الترادفات يفيد معنى لا يفيد الآخر والمصحح أنه ورد في اللغة .

(١) ص ٣ خفاء التليل للفتاوى ط ١٢٨٢ .

(٢) راجع ٣٠٣ : ١ : لغة معجم اللغة العربية والمعاصرة ط ١٩٣٠ .

والترادف وسيلة للتيسير والإيضاح والبيان وهو ثروة في اللغة وسهولة في النطق .
وسبب الترادف قد يكون تعدد النبائل فنضع قبيلة اسمها الشيء ونضع أخرى اسمها
آخر له ، وقد يكون اختلاف صفات الشيء ، ويرى ابن جني أنه لا مانع من أن
نضع القبيلة للمعنى الواحد ألقاباً كثيرة . ويروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم
قال لأبي هريرة - وكان من قبيلة دوس - : ناولني السكين ، فلم يفهم أبو هريرة حتى
أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : آلدية تريد ؟ فقبل له : نعم ، فقال :
أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سميتها إلا يومئذ .

٦ - الإبدال :

وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه مخرباً تالياً .
وهو عظيم الأثر في زيادة ثروة اللغة . كدخ ومدد .
ومندوؤه تعدد اللغات ووضع النبائل ، أو تعدد الوضع من القبيلة الواحدة .
ومن أمثاله : لطم ولطم ، ولطم أنه ورطمه . قالعلم : الضرب بالسكت
مفتوحة ، والدم : الضرب بفتح تنبيل يسمع صوته . ولطم اعنسه : اسكه .
ورطمه : كسره .

٧ - القلب :

وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مسح المحافظة على معناه
أو إعرابه قليلاً عن أصله .

وهو الاشتقاق الكبير . ومثله : سبك وسكب ، وجذب وجذب وهكذا .
وسببه التحريف أو اختلاف اللفجات أو استعمال القبيلة لها نياً لها مصدر
واحد .

فالقلب وروده في اللغة مسلم ، وهو رأي التنوين والكوفيين ، ويرى ابن
درستويه أن مثل هذا لا يسمى قلباً لأن كل لفظ موضوع على حدة وذلك بسبب تعدد
وضع النبائل .

ويرى آخرون أن ما كان له إسل واحد كان من اللب مثل أيس ويش .
وما كان له إسلان مروفان فهو من تمدد اللغات مثل جذب وجذب وهو مذهب
البحرين .

قصيدة لفة فريش :

ويهد ، فاللثة البدائية كما سادت على جيم لهجات العرب ، كذلك سادت لهجة
فريش على جميع اللهجات البدائية ، بما كانت تشبهه إلى نشأها دائماً من تروة لتروية
بفضل ما أفادته من ذوق لتروى في رحلاتها التجارية وفي مواسم الحج والعمرة والاحتفالات
الدينية في الأسواق وسواها .

ثم جاء القرآن الكريم بثقافة فريش فتم لها السيادة على جميع لهجات العرب .
وقال معاوية يوماً لجلسائه : أيّ الناس أفضح ؟ فقال رجل من السباط : يا أمير
المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رثة العراق ، وتيامسوا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا
عن تشقة تذب ، ليس فيهم عنمة فصاحة ، ولا مطنطانية حير . قال : من م ؟
قال : قومك يا أمير المؤمنين ففريش . قال : صدقت . فن أنت ؟ قال : من جرم .
قال الأعمى : جرم فصحاء الناس . ويحق كانت فريش أفضح العرب كما يقول الجاحظ
(٣/١٣٧ البيان والخبير) .

وكانت فريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله واكتسبوا منزلة دينية
وسياسية واجتماعية وأدبية كبيرة مما جعل في العصر الجاهل لثقتهم السيادة والتولية
والثبوت .

ويقول عبد الملوك بن هاشم :

نحن آل الله في ذمته لم نزل فيها على عهد قديم
لم نزل في حرمته يدلسح الله بها عنا القوم
ويقول عمر بن حبة : « إن كلامنا كلام يزل لفظه ويكثر معناه ويكثف بأولاه
ويستشق بأخراه ، يتصدر محمد الزلال على الكبد الحراء ، وله قوم أدركتهم كأنما

خلفوا الحصين ما بقيت الدنيا ، سهلت الفاظهم كما سهلت عليهم أقسامهم * .
وقال أبو الحسن : أسرع الناس جواباً عند الدبهة فريش ثم بنية العرب .

اللغة العربية ومزالتها بعد نزول القرآن :

وقد انتشرت اللغة العربية بعد نزول القرآن والفتح الإسلامي في جميع أرجاء العالم ، وأصبح يلمح بها بعد قرن سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقية الشمالية ، وكان الإغريق قد سيطروا من قبل على الشرق الأدنى ، لكن سكانه ظفوا يشككون لغاتهم الأصلية منذ توح الإسكندر إلى الفتح العربي ، ولم تُمدّ اللغة اليونانية خلال عشرة قرون أن تكون لغة الطبقة المثقفة التي تبحث في السياسية والعلوم والآداب . وحدث بعد مرور قرنين على الفتح العربي أن أعرضت كل هذه الشعوب عن لغاتها الوطئية واعتنقت العربية ، حتى إن الفلكلبيين بالعربية زاد عددهم عن عدده الفلكلبيين بالسرانية في القرن الثالث الهجري .

وقال الدكتور طه حسين في معاصرة له : إن لغة العربية مينة لا توجد في اللغة اليونانية ، وهي قوتها وجاهيتها وقدرتها على زحزحة اللغات الوطئية والمركز عملها ، وهي في العالم الشرق تشبه اللاتينية في أوروبا الغربية ، وقد ضلت في الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأسبانيا ما ضاعه اللاتينية في أوروبا الغربية ، فلتفتين إذا القوة نفسها والهمة نفسها .

ثم قال : إن أثر الثقافة اليونانية يومئذ لم يكن عميقاً ، وأن أولى الخدمات التي أدتها اللغة العربية للدين العالمية ، ولعلها أعظمها ، هي أنها سهلت للثقافة اليونانية الاتصال بمختلف طبقات الشعب في الشرق الأدنى ، ولهذا العمق في الثقافة اليونانية أهميته الخاصة نظراً إلى أثر هذه الثقافة في العالم ، فاللغة العربية لغة عالية حملت على التناوب بين الأمم والشعوب ، وهذه اللغة التي تكلمت بها شعوب الشرق الأدنى في أهل من قرنين انتشرت أيضاً في إيران والمقد والشرق الأقصى ، وهي إن لم تتمكن من زحزحة لغات هذه البلاد إلا أنها تركت

فيها الأثر البين ، وهي لغة السياسة ، كما أنها بصفة خاصة لغة الدين والعلوم والآداب .

وفي خلال ثلاثة قرون أهرض الإيرانيون عن أدبهم الإيراني وتأديبوا بالأدب العربي ، وكثيرون من كبار شعراء العربية م م من أصل إيراني أمثال بشار وأبي النعمان وسواهما ، وهكذا تسكنت العربية ، هذه اللغة البدوية في بعض الوعق من زحزحة لغة عربية كالإيرانية التي صمدت في وجه اللغة اليونانية .

واللغة العربية لم تنصمر على الزحزحة والاحتلال ، بل إنها أخذت تنسج الشعوب التي اعتنقتها عن لغاتها الأصلية ، وقد نحت سدورها لفلسفة اليونانية والحكمة الهندية والإيرانية ، والسياسة الإيرانية ولدنية اليونان والهند وإيران ، وأصبحت العربية لغة تتاون بين الشعوب ، وخاصة بين الذين لم يتمكنوا بنير واسطتها من الاتصال والتعام ، واللغة العربية هي الأولى في التاريخ التي أوجدت التعاون بين العالمين الشرق والغرب ، وهذا عمل كبير وجليل .

وقد استطاعت العربية أن تحفظ مكانها بوسنها لغة مدنية حتى في عالم اليوم - عالم القرن العشرين .

الفصل الثاني

النثر الجاهل

معنى الجاهلية :

يسمى العهد الذي كان قبل نبوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه العصر الجاهلي . وقد وردت نصوص إسلامية كثيرة فيها لفظ « الجاهلية » ، من ذلك قول عمر رضي الله عنه : إني نذرت في الجاهلية إن أعتكف ليلة ، وقول عائشة رضي الله عنها : كان النكاح في الجاهلية على أريمة أنهاء ، وقولهم : يا رسول الله كفا في جاهلية وجر ، وقالوا : شاعر جاهل ، وقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : أريمة في أمي من أمر الجاهلية ، كل ذلك من الجهل ، ضد العلم والمعرفة ، أو بمعنى السفه والغبش والإثم ، أو بمدحها جيداً ، ثم قيل جاهل بهذا الشيء أو ذاك أو ذلك ونسب إليه ، وأصبح ذلك علماً على العصر الذي كان في شبه الجزيرة العربية قبل مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الاسم حدث في الإسلام كما يقول ابن خلدون^(١) . وستفصّل هنا عن الأدب العربي في العصر الجاهلي وما كان عليه شعراً ونثراً ، وعن أعلام الأدب وحياتهم وأديبهم .

الشعر والنثر :

١ - الأدب الجاهلي ، أو قل الأدب على الإخلاق ، فسيان : شعرونث : فالشعر هو الكلام للوزن اللقي ، والنثر هو ما خلا من الوزن والتنظية . والشعر يعتمد على الخيال والتمثيل ، ويشير الشعور والوجدان . والنثر غالباً ما يعتمد على الحقائق ويركز إلى صدق التعبير ، وقد يعتمد على الخيال ويعتمد إثارة العواطف ، ويصاغ في أساليب شبيهة بأساليب الشعر فيسمى شعراً منظوماً .

(١) راجع ص ١٠ من كتاب عادات العرب في جاهليتهم ط القاهرة ١٩٢٤ وراجع في هذا البحث كتاب الراسد ص ٤٩ ط ١٩٢٦ .

والنثر نوعان : أحدهما ما يدور في كلامنا الأثرف إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض في حاجتهم ومعالجهم فيرسولته إرسالاً على سجيبتهم وعلى ما تدعو إليه الحاجة والمللحة ، وهذا ما نسميه لغة التضالمب ، وهذا لا يبنى به الأدب وليس مما منه غلبس شمرأ ، وهو في الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يحفظ ويروي ويتأدب به الذي هو أحد قسمي الأدب ، وإنما هو كلام مادي لم يقصد أصحابه فيه غالباً إلى الإيادة ولا إلى جمال لفي وإنما أرادوا تأدية ما في قلوبهم من اللاني وتحقيق ما تقتضيه مناسهم من الأعراس .

والثاني هو ما يسمى نثراً فنياً وهو ما جرى أمسكارا منظمة ، في عرض جميل جذاب وسياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب ، وهذا هو الذي يند نسباً للشعر في باب الأدب ، وأم أنواعه : الخطابة ، والسكابة الفنية . والسكابة عند الأوربيين : وصف أو قصص وعند العرب : رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . وستتكم على مظاهر الأدب في العصر الجاهل بالتفصيل .

٢ - ولكن هل الشعر هو السابق في النشأة الأدبية أو النثر الذي ؟

يرى الدكتور طه حسين ومن أتبه مقلدين في ذلك بعض المستشرقين كالسيرو حرسية الفرنسي أن الشعر أسبق في الوجود من النثر الذي^(١) . ويستدلون على ذلك بما يأتي^(٢) :

(١) الشعر في آداب الأمم الأوربية سابق على النثر فند اليونان كانت قصائد هوميروس تشد ويتنى بهسأ قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فني ، وفي الأدب الإنكليزي نرى أن أقدم الآثار الأدبية عند الإنكليز القدماء القصائد التي تصف

(١) راجع ص ٣٣ : ١ النثر الذي ذكره مبارك .

(٢) ص ١٠ - ١٢ - ١٧٢ وما بعدها التوجيه الأول ط ١٩٤٠ الباب السابع من كتاب أصول النقد الأدبي للهايب ، ٣٦٤ - ٣٦٨ من كتاب الأدب الجاهل لطله حسين ، وراجع في ذلك البحث : الطبع والعتبة بيهيولي و ٣٧ : ١ الميوان ليجانط .

أعمال « بيولف » وهي ترجع إلى القرن السادس أو السابع الميلادي . فقد ظلت الأمم تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر .

(ب) كثرة الشعراء في العهد الأول لأدب أي أمة من الأمم وزيادتهم زيادة جلية على كتاب النثر .

(ج) ومن أقوى الأسباب التي قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر في رأيهم أن الأدب المنثور يتطلب معرفة بالسكافية والكتابة متأخرة في تاريخ كل أمة ففصائد هوميروس انتشرت وذاقت وتناقلها الناس قبل أن تضيع الكتابة وكذلك روى الرواة الشعر العربي القديم قبل أن تضيع الكتابة ، وملشى . الأدب المنثور لا بد له من تدوين ما يحفظ له .

(د) الشعر يعتمد على الخيال في حين يعتمد النثر الفنى على المنطق والتفكير ، والخيال يسبق التفكير في حياة الأفراد والجماعات^(١) .

(هـ) الجماعة الساذجة تجد عندها كلاماً موزوناً دون أن تحسب عندها شراً قبيحاً صحيحاً .

(و) الشعر متصل بالنساء فالتناس ينثون شعراً قبل أن ينثوا نثراً لأنهم يجدون في الشعر أوزاناً تلائم تنطليح النساء وأغانمه^(٢) .

أما القليل الأول فلا يدل على شيء ، بل إن دل فأعما يدل على شياع القتر لعدم تدوينه ونفا . الشعر لأنه يملق بالخائفة ويملك بالرواية .

(١) يبدو لي أن نظرية سبق الشعر فنثراً أتقنعا للمتصرفون من كتاب الشعر لأرسطو ، فن النساء - فن الشعر - ما نعه : الخيل أسبق في الزمن من التصديق بالناس أول ما يسمعون بأننا يسمعون الأدب الشعرية أن فيها محاكاة للأقويل التخليية ثم يندرجون إلى الخطابة ثم إلى البرهان (النساء فن الشعر) .

(٢) يرى للمتصرفون أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية من كلمة « شعر » بمعنى الزينة أو النتيجة النفسية ويرجعون ذلك بأنه لم يرد في العربية شعر بمعنى القصيدة وكل ما فيها : شعر أي طالع الشعر . وفي اللغة الإنجليزية كلمة Bazzel معناها الشاعر الذي وكان الأسمى مناجاة العرب لأن شعره كان ينثى به (بحر الإسلام ٦٩ و ٢٧ الرياض والتوجيه الأدبي) .

ومن أجل ذلك بقي الشعر وأخبار الشعراء مرفوفة لم يحف عليها النسيان وهو السبب في كثرة الشعراء في المصور الأول من عصور آداب الأمم كثيرة كبيرة وفي زيادتهم على الكتاب ورجال الفن ، وبذلك نجد الدليل الثاني منسجراً .

ولعدم وجود الكتابة في المصور القديمة التي هي وسيلة لتخليد الفن الذي صنع أغلب ما لدى الأمم من فنون ، فكيف إذا استدلون على سبق الشعر للفن باحتياج الأدب الثور للكتابة في تدوينه ، وبذلك نجد الدليل الثالث لا يكاد يسير نحو الهدف خطوة واحدة .

وزعمهم أن الشعر يعتمد على الخيال والفن على المنطق والتفكير صحيح في الأول مبالغ فيه في الثاني ، فلم لا يكون الفن الذي في بدء نشأته قد اعتمد على الخيال أيضاً كالشعر ، ولم لا يكون هذا الفن قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتها ومقدار تفكيرها في هذه العصور القديمة ، وبذلك نجد الدليل الرابع لا يؤدي إلى غاية .

وأما أن الأمم التي لم تصعد درجة في الحضارة لها شعر وليس لها فن فن في الرأي ، فإن هذه الجماعات الساذجة يوجد بجانب مالهيا من شعر نثر ملائم لعقليتها ومظاهر الأمتال والحسك والتجارب والنصائح ، وذلك يشاهد كثيراً في بيئتنا العربية النامية التي يمثل بها هؤلاء تأييداً لرأيهم في سبق الشعر للفن وبذلك لا يمكننا التحويل على الدليل الخامس .

وأما أن الشعر بقي به من تقدم قبل أن يبتدأ نثراً فنشأ ذلك أن الشعر أسلمح لثناء من الفن لموسيقاه وقالبته ، فكيف يتركونه وينفون بفن لا يلائم الثناء ؟ . والحق أن الفن وجد أولاً ثم تحول إلى الفن الذي ، ثم نشأ بعد ذلك الشعر ، ويؤيد هذا الرأي إجماع كثير من المستشرقين على أن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها الفن إلى الشعر في الأدب العربي القديم .

ويؤيد أيضاً وجود الكتب الفهنية المتباوية من تقدم الأجيال في الأمم التي

أزلت لها ، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء ، ولعل هذه السكتب هي التي أدت إلى نشأة النثر التي في الصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمان طويل .

ويؤيده أيضاً إجماع الباحثين أو شبه إجماعهم على أن النثر أسبق من الشعر^(١) .

٣ - ويد ؟ فالنثر مرسل ومزدوج ومسجوع .

فالمسجوع كما في سورة الكوثر ، والمسجوع هو ما احدث فاسقاه أو فواصله في الحرف الأخير مثل : من عاش مات ، ومن مات مات .

والزدوج هو ما احدث فواصله في وزنها لا في الحرف الأخير منها - بما تسميه تقية ، مثل قوله تعالى : « وتبارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » ، ويسمى هذا الوزن عند علماء الديع ، فإن احدثت الفواصل وزناً وتقية هده من المسجوع في الراجح وعده ينقسم من للزدوج .

والرسل هو ما احدثت فواصله من الاتحاد في الوزن والقافية معا مثل : « لإيلاف قرين ، وإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليبيدوا رب هذا البيت ، الذي أعظمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

هذا ويذكر بعض المشتريين ومن تابعهم كلمة حسين وجود نثر في جاهل لأن عيشة العرب الأولى لم تكن توجد النثر التي لأنه لثة العفل ، على حين سميت بالشعر لأنه لثة الخيال والساظمة ، وهذا الرأي خطأً بديل ما يأتي :

(١) كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر في قبل الميلاد بكثير فلم لا يكون للعرب نثر في بعد الميلاد بخمسة قرون ؟

(ب) وجود السكتب يستدعي وجود نثر في .

(ج) بناءً على بعض من النثر الجاهل في مصادر الأدب العربي وأمهات كتبه كالأناني

(١) وانجم ١٧ تاريخ الأدب العربي لزيات وسواه .

والأمالي وسواها ، أما الكثير منه فقد شاع لعدم تدوينه بالكتابة التي لم تكن معروفة في الجاهلية إلا لقليل النادر من الناس^(١) .

•••

هذا والنثر الجاهل ينقسم إلى أمثال وحكم ووسايا ، وخطب ، ومناظرات ، ومفاخرات ، ومحاورات ، ونثر الكهبان .
وستنضم عن هذه الأنواع الأدبية لو لم يبدلون إن شاء الله تعالى^(٢) .

(١) هذا ويكرر طه حين كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر في الجاهلية ، لأن النثر الذي أتى لنا إنما جاء بآلة قريش التي لم يكن لهم بها علم ولأنه كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها لغوا متطورة كتبها للشاعرون ومن لا توافق لغة قريش في شيء فنقل ما يضاف إلى الجاهل من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة في الجاهلية منتحل . أما عرب الشمال فهم نفس ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتعددها فيما ينسب إلى نضر وهذا هو موقفه بالنسبة لنثر الجاهل أيضا .

(٢) راجع ٣٦٤ - ٣٧٥ الأدب الجاهل لغة حين في الكلام على النثر الجاهل .
ومن ١١٣ من كتاب الأسلوب لغايب في الكلام على أساليب النثر . وأبواب السام في النثر من كتاب اللغة الأدبي لغايب .

مميزات النثر الجاهلي

(١)

يمتاز النثر الجاهلي في مآنيه بما يأتي :

- ١ - الصدق والصدق واليسادة والبساطة وعدم المبالغة أو التبر .
- ٢ - عدم التمسق في المآني أو تبيدها أو التركيب والزج بينها ، لأنهم كانوا في بدآوة نامة في حياتهم وتفكيرهم وكل شئون مبيشهم .
- ٣ - مآنيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، ومنطقة مع الحرية التي التهم وألوهها ، وهي بدوية تكون حياتهم ، تنطق عن نظرة الدآوة وتفكيرها وإحساسها .
- ٤ - كثرة الحكم والأمثال في ترم .
- ٥ - تمسك الدآي وكثرة الاعتقال بينها .

(٢)

ويمتاز النثر الجاهلي في أفرانه بأنه كان يأتي في :

- ١ - الدعوة إلى الاعتدال والأخذ بالتأز وإشمال نار الحرب ، أو الدعوة إلى الصلح والسلام .
- ٢ - للفاخرة والذآورة والمآورة والسكآانة .
- ٣ - وصف مشاهد الحياة ومآظرها في الصحراء .
- ٤ - التوسية بليل خير أو إسبدا ، مروف أو سارك نهج محود أو بُد عن خصلة مذمومة .
- ٥ - الرقادة على الأبراء واللوك إلى غير ذلك من شئ أعراس النثر في العصر الجاهلي : كالتبشير بني جديد ، أو القبي عن الرذائل والآنام .

(٣)

أما إلفاظ النثر الجاهل فيبدو عليها السخافة والبداوة ، فأحياناً سهلة رفيعة ، وأحياناً وحشية وغريبة ، ولم يكونوا يتأقنون في اختيار اللفظ ذي النعمة للتشايخة أو الجرس المتآلف ، ويندر استعمالهم للألفاظ الأجنبيّة في تروم إلا قليلاً منهم ممن اتصلوا بالفرس وسولها من الأمم القديمة .

وأسلوب النثر الجاهل يمتاز بالخلو من المحسن والإيجاز ، وقلة الترادف ، وإيثار الكتابة القوية على المصريح ، ويقصر الجمل غالباً ، وخاصة في الحكم والأمثال وسجع السكمان ، كما يمتاز بعدم التسكف في الصياغة والأسلوب ، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المسلمات الدينية أو تمدحها ، وكلامهم يخلو منها إلا نادراً وعن غير عمد أو قصد ، وفي أسلوبهم الجزالة والقوة وشدة الأسر ، والوضوح ، والقرب إلى الذوق الأدبي الطيوع .

أمثلة لنثر المأثور في العصر الجاهلي

(١)

من النثر الذي في العصر الجاهلي هذه النظم التي رواها النبال عن ابن السكيت
عن أبيه قال^(١) :

كان قبل من أنيال حبر منع الولد دهرآ ، ثم ولدت له بنت ، فبني لها قصرآ مقيماً
بيدآ من الناس ، ووكّل بها نساء من بنات الأنجال يخدمنها ويؤدّبنها ، حتى بانث
مبالغ للنساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمه في عقلها وكلمها ، فلما مات أبوها مأسكها
أهل غلاتها^(٢) ، فاستظنت النسوة الثرائي ربيتها وأحسنت إليهن وكانت تتاورهن
ولا تظلم امرآ دونهن . فلان لها يوماً : يا بنت السكرام لو تزوجت لمر لك الك ،
فقلت : وما الزوج ؟ فقلت إحداهن : الزوج عز في الشدائد ، وفي الخطوب مساعده
إن غضبت عطف ، وإن مرحت لطف . قلت : نعم التي هذا . فقلت الثانية : الزوج
شعاري حين أمرد^(٣) ، ومسكئي حين أرفد ، وأنسى حين أرفد ، فقلت : إن هذا
من كمال طيب البين - إلى آخر هذه النظم الطويلة الجلية الساحرة .

(٢)

وهن أبي عبيدة قال^(٤) :

كان نيس بن رقاعة يند سنة إلى النهران اللخمي بالبراق وسنة إلى الحارث بن
أبي شمر النسائي ولشام ، فقال له يوماً وهو عنده : يا ابن رقاعة ، بانني أنك تتشغل
النهران على ، قال : وكيف أفضله عليك أبيت السن ؟ لو الله لعداك أحسن من وجهه ،
ولأمك أمرف من أبيه ، ولأبوك أمرف من قومه ، وكذاك أجسود من يمينه ،
وطرمانك أتبع من نداء ، ولتليقك أكثر من كثيره ، ولكوسيك أرفع من سريره .

(١) - ١:٨٠ الأناج - (٢) الخلاف : الكورة . (٣) أي أرفد . (٤) ١:٢٠٧ الأناج .

ولجدولك أهدر من بحوره ، وليومك أفضل من مشوره ، وإرتدك أورى من زنده ،
ولجدك أزم من جده ، وإبك لمن عسان أرباب اللوك ، وإنه لمن نلم الككبرى
الرك^(١) ، فكيف أفضله عليك ؟

(٣)

ومن الياس بن هشام عن أبيه قال^(٢) :

كان نس بن ساعدة يفسد على قيسر ويؤروه ، فقال له قيسر يوما : ما أفضل
الغل ؟ قال : معرفة الرء بنفسه ، قال : فما أفضل الم ؟ قال : وقوف الرء عند علمه ،
قال : فما أفضل الرواة ؟ قال : استيقان الرجل ماء وجهه ؟ قال : فما أفضل السال ؟ قال :
ما قضى به الخلق .

(٤)

ومن اللل كذلك ماقلته وقود العرب في تمزية سلامة ذي فائس بأنه^(٣) ومنها :
قال للنبأ : أيها اللك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتصلن لتأخذ ، وتجمع لتشتت ،
وتحلى لثر ، وتزوح الأحران في القلوب بمسا تتجأ به من استرداد الزهوب ، وقد
تناهت إليك أبناء من رزى فسيبر ، وأسب فافتر الخ .

(٥)

واجتمع^(٤) عامر بن الظرب الدوائى وحمة بن زانم القوسى^(٥) عند ملك من حير
فقال : تساءلا حتى أصبح ما تقولان ، فقال عامر لحمة : من أجدر الناس بالعناية ؟
قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر ، وإذا موطن سير ، وإذا قدم المهور ذكر ،
قال : من أكرم الناس بشرية ؟ قال : من إن قرب ملبح ، وإن بعد مرج ، وإن ظلم
سقم ، وإن شذويق صحح . قال : من أحكم الناس ؟ قال : من صحت فادكر ، ونظر
فاحتر ، ووعظ فادجير الخ .

(١) أى الخي . (٢) ٢:٣٧ الأمان . (٣) ٢:١٩٩ الأمان . (٤) ٢:٢٧٦ الأمان .
(٥) وكان ابنه عمرو أحد من تصاحم إليه العرب (١:٤٣ : ٢ الأمان) .

(٦)

وكان هزيمة بن علي الخنق يجبر لطيفة كسرى في كل عام (واللطيفة عبر تحمل
الطيب واليز) فورد على كسرى ، فسأله من يقبه ، فسمى له عدداً . فقال : أيهم أحب
إليك ؟ قال الصنير حتى يكبر ، والثائب حتى يرجع ، والرئيس حتى يدين ، فقال له :
ما غذاؤك في ذلك ؟ قال : الخبز ، فقال كسرى لجلسائه : هذا عقل الخبز ، يفضله
على عقول أهل البوادي الذين غذاؤهم اللبن والتمر^(١) .

(٧)

وذكروا أن هند بنت عتبة قالت لأبيها : لا تزوجني من أحد حتى تعرض عليّ
أمره وتبين لي خصاله ، فطلبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فدخل عليها أبوها يقول :
أناك سهيل وابن حرب ونهبا رضا لك يهتد القنود ومقنع
وما منهما إلا يواسي بفعله وما منهما إلا يقتر ويقنع
وما منهما إلا كريم مسرراً وما منهما إلا أغر سميج
مدونك قاتلاري فأت بصيرة ولا تخدعي إن المتسارع يجمع
قالت : يا أبت والله ما أسمع بهذا شيئاً ، ولكن فسر لي أمرها ، وبين لي خصالها ،
حتى أختار أشدها مولفة لي ، فبدأ يذكر سهيل ، فقال : في ثروة وسعة من البيت
إن تايسته تايك ، وإن ماتت منته خط إليك ، تحكين عليه في أهله وماله . وأما الآخر :
فوسع عليه ، منظور إليه في الحسب الحسب ، والرأي الأريب ، مدرة أرومته ،
وعز هشيرته ، شديد النيرة ، كبير الطيرة . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياح للحررة
فأعست أن تلين بعد إلتها ، وتضيق تحت جناحه ، إذا تايها بملها فأعسرت ،
وغلبها أهلها فأعست ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح دلالها ، فإن جاءت بولد أعفت
وإن أعجبت فمن خطأ ما أعجبت ، فالطرد ذكر هذا عن ، ولا تسمه على بعد . وأما
الآخر فيل الفتاة المريدة ، الحسرة البديفة ، وإن لأخلاق مثل هذا مولفة .
فزوجيه ؛ فزوجها من أبي سفيان^(٢) .

(١) ص ٩٤ بحار الطه القريب ١٩١٠ - (٢) ٣٢٨ بحار الطه ، ١٠٤ : ٢ الأمل .

أقسام النثر الجاهلي

الحكم والأمثال ، وعناجذ لها :

- ١ - من حكايا العرب أكثر من سبى التيس ، ومن حكمة :
رب لجة شيب ريتاً ، رضا جميع الناس غاية لا تدرك ، آفة الزأى الهوى ، من يزد
غياً يزدد حياً ، من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، لم يذهب من مالك ما وظيفك ،
ويل للشجى من الخيل ، مقتل الرجل بين فكيه ، قبل الزمان تحلاً الكفائي^(١) .
- ٢ - ومن حكايتهم : ذو الأسبع الدوائى ، وعامر بن الطرب وقس بن ساعدة ،
وحاجب بن زرارة ، وهادى بن جدمان ، وعبدالطلب بن هاشم ، وهند بنت الحس.
وسوام ، ولا داهى لك أمثلة لحسنتهم ، ومن أقدم حكايتهم لبان المشهور^(٢) .
ومن حكمة : رب أمك لم تله أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى .
وكان عمرو بن حمة الدوسى أحد من تتعاضد بهم إليه العرب^(٣) .
- ٣ - ومن حكمهم : الشاب قبل الشاب ، كلم اللسان أسكى من كلم السفان ،
أول الحرم للشورة ، إنجز حراً ما وعد ، أترك الشر يتركك ، رب ملوم لا ذب له ،
من مأنه يوفى الحذر .
- ٤ - ومن أمثالهم :
إن العوان لا تنم الخيرة^(٤) .

(١) راجع ص ٢٦٦ مراجع البيان - وراجع أمثال أكثر من سبى وزوجهم فى النقد
ص ٦٢ - ٢ .

(٢) يتنازعه العرب واليهود والعربون واليهود وراجع الحديث عنه فى الجزء الثانى من
العريضى ، وكتاب الأثر الحكيم فى سورة البان ، ص ٢٨ و ٢٩ : ٦ جبر الإسلام .

(٣) ١٤٣ : ٧ الأمانى .

(٤) العوان : الصنف الذى يفتت مبلغ النساء ، والخيرة : ليس الخار : يضرب بهام بالأمر
الغريب له .

- إن البلاد موكل بالنطق^(١) .
إن أخاك من أساك .
سبق السيف النذل^(٢) .
عينك عبرى والفؤاد في دد - والله : الأبو^(٣) .
عند جهينة الخير اليقين .
ما يوم حليلة بسر^(٤) .
أحشاً وسوء كفة - ويضرب لمن يجمع بين خصمين مكروهين .
نفس عمام سودت عماماً^(٥) .
الصيف ضيبت العين .
كالستجير من الرمضاء النار .
رجع يحن حين .
اليوم غر وعداً أمر^(٦) .
إلى غير ذلك^(٧) .

• - وقد يمثّل بالأمثال على لسان مآثر أو حيوان أو نبات أو جاد تسلية وسكامة أو خوفاً وحذراً من استبداد مستبد أو استطراداً وروعة أو وضماً للحكمة في موضع الأمر المشهور السليمة من كل شيء . ويثقل ذلك كناية ودسمة ومدأ كفة الخلقاء وسوامها .

- (١) ينسب لأي بكر فله حين أمر الرسول أن يرض نفسه على القبائل ويضرب لمن يتورط بشوكة لها يؤذي .
(٢) يضرب في المنطق بلام فاعله يند وتوهمه .
(٣) يضرب إن يظهر خلاف ما يظن .
(٤) حليلة بنت ملك ضان . يضرب للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل .
(٥) يضرب في سؤدد الزميل بنفسه . (٦) يضرب في عقب الأيام .
(٧) راجع ٢٢٤ وما بعدها بمراجعي البيان . وراجع كتاب الأمثال الفيداني .

ومن ذلك :

في بيته يؤتى الحكم^(١) .

كيف أباؤك وهذا أثر ناسك^(٢) .

إلى غير ذلك . . .

٦ - وفي النثر الجاهل ألوان من النقص تمثل في سير أيام الرب، وفي القصص الروية عن الفرس ، وفي أحاديث الهوى والشباب^(٣) .

ما هي الحكمة :

والحكمة لون بلخ موجز سائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويشتمل حكماً مسبقاً في أمر بخير أو نهى عن شر . وقد كثرت الحكم والحكمة في الجاهلية^(٤) وكان في كل قبيلة حكيم تنزع إليه في الشدائد والمشكلات والمنازعات والمصومات .

والحكم من البلاغة فكان كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة معناها وجلال هذتها .

وهي تسكب الكلام سحراً وحلاوة، وتجعله مقبولاً في القلوب، قريباً إلى القلب، مسلماً به من العقل والشعور والوجدان .
وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلاً .

(١) قالوا : إن الأرب العظمت ثمرة فانتسبها للثلب وأصلها بالفتح بضم الصاد إلى الثلب . فقلت الأرب : يا أبا الحسن ، قال : سمياً دعوت . قلت : أيتها الخصم إليك . قال : نادى سكتاً . قلت : فأخرج إليها . قال : في بيته يؤتى الحكم . قلت : أن وجدت ثمرة . قال : حلوة فسكتها : قلت فانتسبها للثلب . قال : لثبه بنى الخير . قلت : فقلده . قال : بخله أخذت . قلت : فقلبي . قال : سر الفسر . قلت : فاقض بيتنا . قال : قد أنبت . فدمعت أوله سكباً أمثالاً . (٢) يضرب ابن لاين بالهمد . وهو يقول عن لسان حية .

(٣) راجع ٢٢ - ٥٥ : ١ بحر الإسلام .

(٤) وكانت عند بيت الحكمة العرب (راجع حديثها مع أبيها في ص ٧٠ - ٧١ قبل الأمثلة).

ما هو المثل^(١) ؟

المثل مأخوذ من قولك : هذا مثل الشيء ومنه أي شبهه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً ، وفي القبرية كلمة مثل بمعنى الحكمة السائرة والحكمة القصيرة ذات التزي والأساطير .

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مقربة بمرده ، أو قل شبه فيه حال القول فيه ثانياً بحال القول فيه أولاً ، وهذا هو رأي البرد . وقال الرزوقي : هو جملة من القول تنقسم بالقول وتشتهر بالقدوال تعقل مما وردت منه إلى كل ما يصح تصده منها من غير تعبير بالعدا في لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه وإصابة الفرض للشود منه وسدق تشبيهه للحياة العامة ولأنكار الشعب على وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرأ وروعة وجالا وبلاغة ، وتقال الأمثال المرشدة للعدو من استبداد السديين وعظمايهم وهي وسيلة للتد والسخرية حقا .

والأمثال أسدق مني يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقائدها ، وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشموه أتم تصور ، وهي مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والفنية .

والأمثال بصعب عليك تميز الجاهل منها من الإسلامي ، لاختلافها ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن ما يشير إليه المثل من حدث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهل منها وتمييزه من الإسلامي .

والأمثال إما حثيية أو نرشية ، فالحثيية لها أصل وقائلها غالباً معروف ، والنرشية ما كانت من تخيل أدبي وضنها على لسان حيوان أو جاد أو ما شاكل ذلك .

(١) جمع لسكري والبدائي الأمثال العربية في كتابها : جوهرة الأشكال لسكري ، وهم الأمثال قديما ، ورائع ٧٤ - ٨٧ : ١ لجز الإسلام .

والأمثال إما شعر وإما نثر ، ومثالها من الشعر :

تحتج من شميم حرار نجد فا بعد النشبة من حرار^(١)
أت ترد الماء بماه أوفى لاذب لقد قلت لتقوم استقوا^(٢)
لا تطعن ذنب الأضي وترسلها إن كنت مهبما أتبع رأسها الدنيا^(٣)
كناطع سخرة يوما ليوهنها لم يضرها وأوهى قرنه الرعل^(٤)
وكذلك الحكيم : إما نثر أو شعر ، وقد سبق أمثلة لها ، وللأمثال من النثر -
أما الحكمة الشعرية فن مثالها :

إذا السر لم يهزن عليه لسانه فليس على منى سواء يهتزان
ولست بمعتيق إذا لا تفسه على شمت أي الرجال الهذب ؟
إذا الرم لم يدهس من اللؤم عرشه فسكل رداء يرتديه جيبيل
ومن لم يده عن عرشه إسلاجه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

الوسايا والنصائح ، ونماذج لها :

١ - ذو الأسبح الدواني حكيم شاعر وأحد السمرين في الجاهلية . قال لما
احضر يرمى إبه أسيدا :

يا بني إن أبك قد فنى وهو حي ، وعاش حتى ستم العيش ، وإن موصيك بما
إن حفظته بلقت في قومك ما يلفته ؛ ألن جانيك لتومك يهيبك ، وتواضع لم
يرضوك ، وابسط لم وجهك بظلموك ، ولا تستأثر عليهم بشى يسودوك ، وأكرم
سدارم ، كما تكرم كبارم ، يكرمك كبارم ، ويكبر على مودتك سدارم ، واصبح

(١) قصة بن عبد الله القديري . وضرب في التهم يرددائل . والمرار : بنت طيب الزائفة
وهو الدرجس البعري .

(٢) يضرب لمن لا يقبل الوعدة .

(٣) هو لأي أذينة القصب يرمى الأسود بن النضر على قتل بعض أسارى شان يضرب في
العرين على استئصال شاة النسر .

(٤) يضرب لمن يحاول ما لا يستطيع فيص غصه دون فائدة .

بمالك ، وامرز جارك ، وأعن من أمتان بك ، وأكرم شريك ، ومن وجهك
من مسأله أحد شيئاً . بذلك يتم سودك .

٢ - ونسح أوس بن طرفة ابنه مالكاً حين حضره الموت فقال^(١) : يا مالك! اللبنة
ولا الدنية ، والعتاب قبل العتاب ، والتجملد لا التقلد ، واعلم أن القبر خير من القفر ،
ومن كرم الكرم الدفاع عن الحرم ، ومن قل ذل ، وخير النى الفناعة ، وعمر
القفر الضراعة الخ .

٣ - وأوست أعرابية ولدها فثالت :

أى بنى إياك والتمية ، لئها تزوح المنبية ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتمرض
للميوب فتتخذ غرساً ، وخلق ألا يثبت الترض على كثره السهام ولما اعترضت السهام
غرساً إلا كانه حتى يهوى ما اشدد من قوته ، وإياك والجود يدينك والبخل يالك ،
وإذا هزرت فاهرز كرمياً بلن لهنك ، ولا تهز لئها فإن الصخرة لا يتنجر ماؤها .

٤ - وقرأ وسية زهير بن جناب السكلي لئيه ، والتي يقول منها :

يا بنى فد كبرت سنى ، وبانت حرساً^(٢) من دهري ، فأحككتنى التجارب
والأمور بحرية والختباراً ، فأخطوا عنى ما القول وعده ، وإياكم والمور عند الصائب ،
والتراكل عند التوايب ، فإن ذلك داعية للنم وشمانة للعدو ، وسوء ظن يارب الخ .

٥ - وأسى النمان بن تواب العبدي لئها له قال :

يا بنى إن الصام بلبو ، والجواد يكبو ، والأثر يفتو ، فإذا شهدت حرباً فرأيت نارها
تسمر ، ويطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضميفها ينصر ، وجبانها يحسر ، فأقل
السكت والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب نار .

٦ - وقرأ وسية المرأة عوف بن عمل الشيباني لئبتها أم ياس ، وكان عمرو بن

حجير جد امرئ القيس تزوجها ، ثم خرج بها من نادى قومها ، فأوستها أمها قلت :

(١) ١-٢ : الأمان . (٢) أى أبداً طويلاً .

أى بلية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت المشى الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تمر فيه ، وقرين لم تأكله ، فاحل على عشر خصال تسكن لك ذخرًا :
اصببه بالكفاة ، وعافره بحسن السمع والطاعة ، وتهدى موقع عينه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرف وقت طعامه ، واهدق عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهية ، وتندبى النوم مبنضة ، ثم اتق مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترسا ، والأكتئاب عنده إن كان فرسا ، فإن الخصلة الأولى من التفتير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما ، يكن أشدك لك إكراما ، واعلى أنك لاتصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضا على رضاك ، وهواه على هواك ، فبها أحببت أو كرهت . والله يجزيك .

٧ - وصية لأكرم بن سيق :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا السكتكم فإن مقتل الرجل بين فسكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا ، الصدق متجانة ، لا يبلغ التوق مما هو واقع ، فى طلب العالى يكون العنا ، الانتصاف فى النفس أبقى للقيام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظمتك ، وبل لمالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا قبل وإذا أدر حره الكيس والأحق ، البطر عند الإساءة حتى والحجز عند البلاء أمن ، لا تنظروا من السير فانه يهين الكثير ، لا تجيروا بها لاتسألون منه ، ولا تمنحكوا بما لا يتحسك منه ، حيلة من لاجيلة له الصبر ، إن تشى تر ما لم تره ، الشكافار كعاطب ليل ، من أكثر أسقطه ، لا يجملوا سررا إلى أمة .
إلى ما سوى ذلك من بليغ وصاياهم ، وفصيح نصائحهم الأثورة .

ماهى الوصايا ؟

والوصايا جمع وصية ، والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لملك من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه ، وكذلك التصيحة ، فبها متقاربات أو متصدان .

والوسية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقرب والأسدلاء ، والفرق بينهما أن الوسية تتكون من الرجل لنومه أو أبنائه ، ومن الأم لابنها ، والخطابة تتكون في الشاهد والمجامع والحروب والبارك ، وفي الفاشرة والمجاورة والفاخرة ، وفي الرفادة على ملك أو أمير ، وفي التواسم والاجتماعات العامة .
والوسايا كثيرة في النثر الجاهل ، وتختار بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ووقتها وما يشيع فيها من حكمة وسدق تعبير وفنادر فكرك وتنبؤ نظر .

الخطابة في الجاهلية وما تلاها لها :

١ - خطب هاني بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذي قار وهو يجرهم . قال :
يا مشرك بكرة مالك ممسور خير من ناج فرور ، إن الخنزير لا ينجس من التدر ، وإن العبر من أسباب الظفر ، اللبنة ولا الذنبة ، استنبال الوت خير من استنباره .
الظلم في نثر النحور أكرم منه في الأبحار والظهور ، يأكل بكر قاتلوا فما للغايا من يد^(١) .

٢ - خطبة الأمامون الحارثي في نادي قومه :

فقد الأمامون الحارثي في نادي قومه . فحظر إلى الساء والنجوم ، ثم فكر طويلاً ، ثم قال :

أرغوى أمتاكم ، وأسئوا إلى قلوبكم . يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، لمع^(٢) بالأهواء الأمر^(٣) ، ورا^(٤) على القلوب السكدر ، وطمطخ^(٥) الجهل النظر ، إن فينا نرى لمعتراً لن اعتبر ، أرض موشوعة ، وسماء مرفوعة ، ونفس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتزب ، وشاب مختصر^(٦) ، وبن^(٧) قد غير ، وراحلون لا يؤويون ، وموقنون لا يفرطون ، ومدار يرسل بقدر ، فيجبي البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على الذبر القدر ، الباري المصور^(٨) .

(١) ١٦٦ : الأمان . (٢) ارقم وعلا . (٣) النظر . (٤) غلب .
(٥) اظلم . (٦) أي مات حذراً متنبأ . (٧) الشيخ الكبير .
(٨) راجع ١٢٢٧٣ : الأمان ، والأمامون بالنون في الأمان ، وبارء (الأمامون) عند بعض الرواة .

٣ - خطباء العرب يزرون قبلاً من أنبال حير في أبنه :

نفاً لسلامة ذي فائس ابن كأكمل إبناء الفاول^(١) ، وكان به مسروراً يرشحه
لوضعه ، فركب يوم ذات فرساً سيباً ، فسكب به فواقه^(٢) ، فجرح عليه إبهه جزعاً
شديداً ، وامتنع عن الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه
ليزوه ، فخرج إلى الناس ، فقام خطيباً ثم يؤسونه^(٣) . فقام للبيب بن عوف الجعفي ،
فقال :

أيتها الملك : إن الدنيا تجود للنسب ، وتدمل لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحملي
نحر ، وتزوع الأجزاء في القلوب ، بما تنجأ به من استرداد الزهوب ، وكل مصيبة
تختأنتك^(٤) جائل^(٥) ، ما لم تدن الأجل ، تقطع الأمل ؛ وإن نادياً لم بك ، فاستبد^(٦)
بأفك وصفح عن أكثرك لمن أجل التمس عليك وقد تناهت إليك أبناء من رزى قصير ،
وأصيب فانتفر . فاستشتر الأيس مما فات إذ كان ارتجاعه مقتصماً ، ومرامه مستقصياً .
فلشي ما غربت الأسي^(٧) ، ونزع أوثر الأياب إلى حسن الزراء^(٨) .

٤ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي^(٩) في عكاظ :

قدم وفد إباد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيكم يعرف قس بن ساعدة
الإيادي قالوا : كذا نرهه ، قال : فما نمل ؟ قالوا : حلك ، قال : ما إن شاء يسوق عكاظ
في الشهر الحرام على جبل له أحر وهو يخطب الناس ويقول : « اسمعوا ، وعوا ،
من عاش مات ، ومن مات مات ، وكل ما هو آت آت ، إن في السباء ظهيرا ، وإن في
الأرض لظهرا ، سحائب تمور ، ونجوم تنور . في نك يدور ، ويشم قس قسبا إن لله
دينا هو أرضي من ديتكم هذا ، ثم قال : مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ،
أرضوا بالإفاسة فأقبلوا أم تركوا فاندلوا ؟ أيسكم يروي شعره ، فأنتأ بعضهم :

(١) من م دون اللوك الطلاء . (٢) كسره . (٣) بزوه .
(٤) أخطأك . (٥) منير . (٦) استبد به : أي بجهه نصيبه .
(٧) جمع أسوة : وهي القدوة . (٨) ٩٩ : ٢ الأمان .
(٩) تجمعا في البيان والتهيون ٣٥ ، ٢ : ١ ، وفي القند من ٣٨٥ - ٢ .

في القاهين الأولين من القرون لما بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحوها تفضي الأكارب والأساغر
لا يرجع النعمى ولا يسبق من البسائين غار
أيقنت أني لا عمالة حيث صار اليوم صار^(١)

٥ - ومن خطبة مرشد الظير^(٢) - وكان قبلا من أقبال اليمن - في سبيع بن
الحارث وميثم بن ميثم بن ميثم بن ذى رعين ، حين تلاوا الشرف وتخاصا ، وخيف أن
يتبع بين حريهما من فيتداني جذماهما^(٣) :
إن التخطي^(٤) ، وامتطاء الحجاج^(٥) ، واستحجاب^(٦) الحجاج ، سيقسكا على
شفا هرة ، في توردها يبرأ^(٧) الأسيبة^(٨) ، وانقطاع الرسيبة ، فتلايا امركا قبل
التسكات العهد ، وأنحلال القند ، ونشئت الأفة ، وتباين السهمة^(٩) ، وأثنا في فسخة
رائمة^(١٠) وقدم وأملد^(١١) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، من حمى
النصيح ، وخالف الرشيد ، وأسنى إلى القاطع ، ورأيت ما آت إليه عوالب سوء
سعيهم ، وكيف كان سيور^(١٢) أمورهم .

٦ - وخطب أبو طالب حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة ،
قال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وذرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ،
وبيتاً محجوراً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به
(١) ٢٦٦ و ٢٧٠ عتار القند الفريد ، ط ١٩٩٠ . (٢) راجع ٩٢ : ١ الأمان .
(٣) المذم الأمل . (٤) ركوب الرجل رأسه في العر غامة .
(٥) ركب الرجل حياجه إذا نج أي ركب رأسه .
(٦) استئصال من المغيبة ومن ما يجعل الرجل فيه مناعه . وهذا مثل يريد أنه احترم
بالحجاج لو جعله في وعائه . (٧) ملاه . (٨) الأسيبة والأمل واحد .
(٩) الغراية . (١٠) نامة . (١١) نامة . (١٢) السيور : الأمر الذي يرجع إليه .

نقى من فريش إلا رجح عليه برا ، وفضلا ، وكرما ، وعقلا ، ومجداً ، ونبلًا ، وإن كان في السال هل ، فإنما السال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببت من السدان فلي^٧ .

٧ - خطبة هاشم بن عبد مناف بحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :
رووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول :
« يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسعها أنساباً ، وأمرها أرحاماً » .

« يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شتاء نجرا من كل بلد ، فرب هذه البلية : لو كان لي مال يحمل ذلك الكهنة يمشون ، إلا وإن خرج من طيب مال وحلاله ، ما لم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فإرضه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لسكرامة زوار بيت الله ومموتهم إلا طيباً ، ولم يؤخذ ظلماً ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم ينتصب » .

٨ - خطبة هاشم بن عبد مناف في فريش وخرزاعة :

تفاقت قريش وخرزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ، فطلبهم بما أذعن له الفريشان بالطاعة . فقال في خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كلاب ، وأرسل مكة ، وسكان الحرم ، لنسأ ذروة الحساب ، وسعدن الجود ، والشكل في كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عتوق عشيرة ، وقطع رحم .
يا بني قصي ، أنتم كنصن شجرة ، أيها كسر أوحش صاحبه ، والسيف

لا يمان إلا بتمده ، وراس الشيرة يصديه سهمه ، ومن أمحة اللجاج أخرجته إلى البني .
أيها الناس ، ألمم برف ، والصبر ظفر ، واللروف كثر ، والجلود سؤدد ،
والجليل سله ، والأيام دول ، والفهر غير ، والر - منسوب إلى فطه ومأخوذ بتمه ،
قامطلوا اللروف تسكبوا الحد ، ودعو اللشول تجانبيكم السهيا ، وأكرموا
الجليل بمر ناديتكم ، وعلوا اللطيط برغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يرفق
بكم ، وعلبيكم بمسكارم الأخلاق فإنها رفة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تمنع
الشرف ، وتهم الحد ، وإن نهية الجهل أهون من جرته ، وراس الشيرة يحمل
أثقالها ، ومقام اللطيم عظة لمن انتفع به .

قالت قريش : ردتنا بك إلا نشفة ، وهي كذبتة .

٩ - وراجع خطبة البرجس أمام سالم الطائي في وقادته عليه دماء حملها^(١) .

١٠ - وراجع ما قبل من خطاب في :

(أ) وفود العرب على كسرى^(٢) .

(ب) ووفود أبي سفيان على كسرى^(٣) .

(ج) ▶ فريش على سيف بن ذي يزن^(٤) .

(د) ▶ العرب على النعمان^(٥) .

سأعي الخطابة^(٦) ؟

الخطابة فن من فنون الشعر ، وهي فن غامضة الجمهور الذي يعتمد على الإمتاع
والاستمالة . أو هي كلام بليغ يأتي في جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم في
ديارهم وآخرتهم .

(١) ص ٢١ ذيل الأسفل - (٢) ١٦٦ : القند الفريد ص ١٩٢٨ .

(٣) ١٧٤ : ١ : الرجح . (٤) ١٧٠ : ١ : الرجح . (٥) ٢٠٦ : ١ : الرجح .

(٦) راجع : الخطابة لأبي زهرة - ميرة الخطابة لصفوت - ٢٣٠ و ٩٩٦ و ١ : ١٩٦ و ٢١
و ٢٦٦ : ٢ و ٣ و ٦ و ١٠ و ١٦ ل ١٦٦ و ٢٤٢ : ٣ البيان والبيان ، والقند الفريد - مواسم
الأدب - بلاغ - النساء لابن طيغور - بلوغ الأرب .

والخطابة قديمة نشأت مع الإنسان وتروى للأمم القديمة خطب كثيرة كقدهاء
المصريين واليونان والرومان .

والخطابة ضرورية للأمة في سلمها وحربها، وهي أداة الدعوة إلى الرأي والمعتدلة
في شتى نواحي الحياة والجميع ، وهي وسيلة للجدل والمصلحين ، والمهذبين والرشدن ،
ومعاد الفتاة والزعماء ، وأداة الأحزاب السياسية ، والجنابيات الأدبية والاجتماعية ،
وعلى الأعماد في كثير من شئون الحياة، في السياسة وفي التربية والتعليم ، والوعظ
والإرشاد ، وفي محافل الأئس ، وما تم الخزن .

والخطابة تقوى عندما تكون الأمة ممتعة بتوسط من الحرية ، شاعرة بما هي
فيه ، ماعية إلى آمال واسعة في الحياة، وحينما تتصارع المصومات، وتختلف الأنسكار
والبادي والنهاب .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفي العصر الحديث نشأت الخطابة
الفتنانية والبرلانية .

الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي :

ويروي العرب في جاهليهم خطب كثيرة ، ونوع قديم خطباء مشهورون وكانت
الخطابة لسان الأشراف والزؤساء والجاهل من القبائل ؛ يفضونها على الشعر الذي
غض من قدره تنكسب الشعراء به^(١) ، ويصبرون بها عما يبئس في صدورهم من أنسكار
وأراء ، ويصرفون بها ملكة البلاغة الفاسلة في أمحاق نفوسهم وطولوا عليهم ،
ويصورون بها جميع ما يعرف بتفولم في شئون السياسة والاجتماع .

وكانت الخطابة عندهم منتشرة دائمة، لها مكانها في النفوس، وسحرها في الألباب،
وأزرها في الشدائد والشكولات ، وكان لسلك قبيلة شاعر . وإلحقة فإن الخطابة في
العصر الجاهلي كان لها حظ من القوة والتهمة والأزدهار .

(١) رابع ١٢٠ ج ١ و ٢٠٩ ج ٣ من البيان والبيان .

ويرجع ذلك إلى إبدال الشعر بالكسب به ، وإلى أن الخطابة كانت مهنة النادة والحكباء، وإلى أهميتها لاستعمالها في الدفاع عن القبيلة .

دواحي الخطابة في العصر الجاهلي :

وكانت دواحيها كثيرة متشعبة عديم ، فأذواقهم الأدبية وتأسل ملكات البلاغة في لغزهم وتلكمهم زمام الفصاحة . ثم كثرة الحروب والمخالفات بينهم ، ثم عرفهم قبائل وأعيان مع أميتهم التالية عليهم والتي الجأتهم إلى الاستعانة باللسان دون الكتابة . ثم ضعف شأن الشعر ومكانته في نفوس أشرافهم بتكسب الثمراء به . ثم صفة مجال الخطابة بينهم ؛ وكثرة أسبابها لديهم . كل ذلك كان داعياً لتدريج الخطابة بينهم ، وانتشارها بينهم .

أعراض الخطابة في العصر الجاهلي :

وأعراض الخطابة كثيرة في العصر الجاهلي ، من ذلك :

- ١ - التحريض على القتال أو الدعوة للسلام والوثام . وهذا كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة حروبهم ، وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات .
- ٢ - التبشير . بين جديد ، وحمارية الفوضى والردائل والوثنية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي . كما ترى في خطبة الأمام المبارك في نادي قومه^(١) . وخطبة أكرم بن صبيح التميمي في قومه^(٢) ، بعد أن بعث الرسول وبث أكرم ابنه حينئذ ليأتيه بخبره ، وكما في خطبة قس في سوق عكاظ .
- ٣ - التزوية في عظيم من عظيمهم أو رئيس من رؤسائهم .

(١) ٢٧٣ : الأمام .

(٢) ٢٤٧ : أتمام المسكرى ، وهم الأمام شيدان الجزء الثاني . ومنها . إن ابن هانئ هذا الرجل متعاقب ، وأدان بخبره وكتابه ، بأسر فيه بالعرف وبني من للسكره وأخذ فيه يخاصن الأفعال ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ويبلغ الأوثان وترك الخلق بالبرهان ، وقد عرف ذوو الرأي مشكراً أن الفضل فيها يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهي عنه ، لأن الله يدعو إليه عند ، لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسداً . الجيوني وأبوهما أرى .

٤ - البرقعة على اللوك والرؤساء للهيئة أو الاستجداد أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة ، أو الفرية أو سواها . والمطلب الأثورة فيها الكثير من ذلك .

٥ - الدعوة إلى الصلح ونقض التصورات وجمع الكلمة كما في خطبة مرتد الخير .

٦ - المطلب في المائل حين الإملوك^(١) أو الزلافة أو ما شاكل ذلك .

٧ - الفخرة والذخرة والباهة بز المشيرة وعرف الحمد والباهة وجلال الأسل .

٨ - القوسية بتدل جيل أو أدب جيد .

وهكذا تعددت أغراض الخطابة وتشعبت مناهجها .

أسلوب الخطابة :

وأما أساليبها فقد كانت مركبة من جل فرية شبيهة الرابط بتل عليها الحكمة والسجع ، ونها جلالة الجزالة والتمساحة .

الأثور من خطب الجاهليين :

والأثور من خطب الجاهليين قليل ، أقل من الشعر الروى منهم ذلك أن الخطابة يصعب حفظها لعلوها وعدم تنبئها بوزن أو قافية ، وعدم تدوينها إلا في القرن الثاني الهجري ؛ مما أدى إلى شياخ كثير منها لعلول العهد بها .

الخطابة والخطيب :

وكانوا يزعمون أنفسهم الوروف في الخطبة إلا في خطب إملاكم وكثيرا ما كانوا يؤثرون أن يخطبوا وهم والقرون على نثر من الأرض . أو على منى مرتفع ؛ كظهور الراسنة وسواها ؛ وذلك لظهور الخطيب ولشدة تأثيره .

كما كانوا يقبضون بأيديهم على عصا أو رمح أو سيف أو قوس . ويصعب الخطيب عمله .

(١) الإملوك : التزوج .

والخطيب يلزم وإخلة الجئش-بجهازة الصوت^(١) وبلاعة القول وقوة الحجية .
قليل الحركة ، قليل الإشارة ، ينطق بالصدق ، ويشكلم بالحق . في مظهر نبيل وذي
جليل ، وهو غالباً رئيس قومه أو من أمرائهم .
هذا ويهون له حسين من الخطابة الجاهلية : لتفدان الحضارة والتنازع السياسي
والدين ؟ وهذا غير صحيح لكثرة الخسومات والمرقهم بالكفاية ووجود بعض ألوان
من الحضارة . وكثرة كلام الرواة عن الخطابة الجاهلية .

(١) ويبدوون بالناس بن عبد اللطيف في جهازة صوته (٩٥ ج ١ البيان والبيان)
كالأشادوا بجهازة الصوت ٩٤ ج ١ للرجح ، ويقولون خطيب أشدال أي يلج ، وهو من الصدق
يلج قال وهو سعة في الصدق .

المحاورات وصور لها

١ - معاخرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان عند بعض مقال حير^(١) .
قال لك للحارث : يا حارث ألا تخبرني بالسبب الذي أخرجكم من قومكم حتى
لحقتم بالقرين بن سنان ؟

قال الحارث : خرج هيبان منا برعيان غنيا لها ، فنشاولا^(٢) بسيفيهما فأصاب
ساحبهما عقب ساحبنا فأت ، فسألونا أخذ دية ساحبنا : دية المحبين^(٣) ، وهي نصف
دية الصريح^(٤) ، فأبى قومي إلا دية الصريح وأبوا إلا دية المحبين ، فتقدم الأمر بين
المحبين فظاهروا علينا حسداً ، فأجمع ذوو الحجا منا أن نلحق بأمتع يعان من الأزد ،
فلقدتنا بالقرين بن سنان ، فوالله ما نت في أمهاتنا ، فأبانا عنهم ولقد أثارنا^(٥) ساحبنا
وهم راقعون .

فوثب طريف من مجلسه ، فجلس بإزاء الحارث فقال : والله ، ما سمعت قولاً أبعد
من صواب ، ولا أقرب من خطأ ، من قول هذا . والله أيها الك ما قلنا بهجيتهم
بذنا^(٦) ، ولا نقوا به درجا ، ولقد أخرجهم الخوف عن أسلهم ، وأجلام عن معلمهم .
فقال الحارث : أتسمع يا طريف إني والله ما إخالك كما غرّب لسانك ولا شئتها
مرة تزوانك ، حتى أسطر بك سطوة تكف طامحك ، وتردد جاملحك .

فقال طريف : مهلاً يا حارث ، لا تعرض لقروب^(٧) سنان ، وغرب سباني .
فقال الحارث : إياي تعاطب بمثل هذا القول . فقال طريف : أما والأستام
المحجوبة ، والأصاب النصوية ، ألن لم تنف عند قنرك ، لأدعن حزنك سهلاً ،
وسفلك وحلاً .

(١) ٢٢ ج ١ الأمل . (٢) تداريا . (٣) حوائلي أبوه عري وأمه غير عربية .
(٤) المالس . (٥) أثارنا : أخذنا بأرءه . (٦) الخروب . (٧) القروب : الخفة .

قال الخازن : أما والله لو رمت ذلك لرتحت بالحضيض^(١) وانصمت بالجربض ،
وشاقت عليك الرجاب ، وتقطعت بك الأسباب .

قال طريف : دون ما نابتك به نفسك مقارمة أبطال ، وحياض أهوال .
قال اللك : إيهما عتكنا .

٢ — وراجع حديث النسوة اللواتي أمرن على بنت اللك بالترج ، ووسدن
لها محاسن الزوج^(٢) وقد سبق ذكره ، وراجع حديث أوس بن سارة ونسيخته لابنه
مالك^(٣) ، وحديث يعض مفاول حير مع بنتيه وما داريته بينهما من الجوار ، حين
كبرت سنه ، وهو حديث طريف مجمع^(٤) ، وما وقع بين عمرو بن رافة الهمداني
وحريم الرادي من الإغارة وما قال عمرو في ذلك^(٥) ، واجتماع عامر بن الظرب وحمة
ابن زافع عند ملك من ملوك حير ، وتجاوزها أمامه^(٦) ، وحديث ابنة الحسن مع أبيها^(٧) ،
وما وقع لحاتم مع زوجته ماوية^(٨) .

٣ — وكان نس بند على فيصر ويزوره فقال له قيس يوماً :

ما أفضل النمل ؟

قال : معرفة الرء بنفسه .

قال : فأفضل النمل ؟

قال : وغرف الرء عند عقه .

قال : فأفضل الزومة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه .

قال : فأفضل السال ؟

قال : ما تقضى به الحقوق .

(١) هو القرار إذا النمل بالليل . (٢) ٨٠ : ١ الأمان .

(٣) ١٠٢ : ١ الأمان . (٤) ١٠٣ : ١ الأمان . (٥) ١٢٦ : ٢ الأمان .

(٦) ٢٧٦ : ٢ الأمان . (٧) ١٠٢ : ١ القيل . (٨) ١٠٢ : ١ القيل .

٤ - ومن أمثلة الفاخرة ما وقع من بعض سادات العرب أمام كسرى وقد قال لهم : ليحكلم كل رجل منكم بما أثر قومه ، وليصدق .

فأخذ حذيفة بن بدر ، والأشعث بن قيس ، وبيطاطم بن قيس ، وحاجب بن زرارة النخعي ، وقيس بن عامر ، يهدد كل منهم ما أثر قومه ومفاخر أحسابه .

٥ - منارة خالد والفتاح الثميين :

نار خالد الفتاح ، إلى ربيعة بن حذار الأسدي فقال : هاتيا مكارمكما .

فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدوري حين وضعت السباك ذبولها ، وطمعت يوم شواخط^(١) فارسا جثت تغذيه بقرسه .

فقال : يا فتاح ما عندك ؟

فأخرج قوس حاجب ، وقال - هذه قوس عمي وهنأها عن العرب ، وهاتان نملأ جدي قسم فيها أردين مربابا ، وهذه زربية^(٢) زرارة لم ير ناره خائف إلا أمن ، ولم يجسك بطن^(٣) مسطاطه أسير إلا فك .

فنادى ربيعة بن حذار أن السباحة والله^(٤) والرياح والشرف الأسبق للفتاح ، ألا إلى تقرت من كان أبوه ممبداً وهمه حاجبا ، وجده زرارة^(٥) .

٦ - ومن أمثلة المفارقات منارة عامر بن الطفيل وعاتمة بن علاثة العامريين ، وهي أشهر المفارقات في الجاهلية .

فقال لأم^(٦) أسن أبو براء عامر بن مالك . تنازع في الرياضة عامر بن^(٧) الطفيل ،

(١) من أيام العرب وكان النبي محارب على بني عامر .

(٢) السباط .

(٣) جبل طويل يهد به السراويل .

(٤) يوم لموة وهي : الطفلة .

(٥) هو الفتاح بن مبيد بن زرارة النخعي .

(٦) راجع هذه القصة الأدبية في كتاب الأناض من ١٠٥٠٠ هـ ، مهذب الأناض من ٦٨ - ٢٣ .

(٧) نهاية الأرب من ٢٧٢ ج ٣ ، بلوغ الأرب من ٢٨٦ ج ١ .

(٨) من بني عامر بن صعصعة : غرس قومه ، وأمه ذاك العرب وشعرتهم ولد وثناً ينجو ، كرتاً حجاباً وقد على رسول الله يزيد القدر به ولم يسل ، فأتى في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ .

وعائنة^(١) بن علاثة بن عوف بن الأحوص . فقال عائنة : كانت لجدى الأحوص ، وإنا سارت لعمك بسببه ، وقد قد عمك منها ، وأنا أسترجبها ، أنا أول بها منك ، فعسى^(٢) الشر بينهما ، وسارا إلى النائرة ، فقال عائنة : إن شئت نأفرك ، فقال عامر : قد شئت ، والله إني لأكرم منك حسياً ، وأثبت منك نسبياً ، وأطول منك نسبياً^(٣) . فقال عائنة : والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً . فقال عامر : والله لأنا أكرم منك لفتاح^(٤) ، وخير منك في الصباح ، وأطمع منك في السنة الشباح^(٥) . فقال عائنة : إنا خير منك أثراً ، وأحدك منك بصراً ، وأكرم منك قرأً ، وأعرف منك ذكراً .

فقال عامر : ليس لبي الأحوص فضل على بني مالك في العدد ، ويعسرى ناقص ، ويعسرك صحيح ، ولكني أنافرك ، إني أحمى منك سمسة^(٦) ، وأطول منك قفة ، وأحسن منك لة^(٧) ، وأجند منك جمة^(٨) ، وأسرع منك رجة ، وأهد منك حمة . فقال عائنة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجسيل فقنيفة^(٩) ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ، ولكني أنافرك بأبني وأهامي . فقال عامر : آباؤك إمامي ، ولم أكن لأنافرك بهم ، ولكني أنافرك ، أنا خير منك عقياً ، وأطمع منك جدياً . فقال عائنة : قد علمت أن لك عقياً ، وقد أطمعت طيباً ، ولكني أنافرك ، إني خير منك ، وأولى بالخيرات منك . ففرجت أم عامر - وكانت تسمع كلامهما - فقالت : يا عامر نأفرك أينما أولى بالخيرات .

(١) عائنة بن علاثة : كان في المبالغة من أشراف قومه ، أسلم ، وارتد في أيام أبي بكر فأنصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام وتوفي نحو سنة ٢٠ هـ .
(٢) فعسى : استعجاز . (٣) يزيد طول القامة . (٤) الفتاح : الإبل .
(٥) الشباح : الفصط . (٦) السمة : القرابة . (٧) القفة : الثمر المفلج شحمة الأذن . (٨) الجمة : جند شعر الرأس . (٩) فقنيفة : نحيف .

قال عامر : والله إنى لأركب منك فى الحلة ، وأقبل منك للسكاة^(١) ، وخير منك للمولى وللوالاة .

فقال له علقمة : والله إنى لير ، وإنك لداجر ، وإنى لولود ، وإنك عامر^(٢) ، وإنى لصف ، وإنك لمامر ، وإنى لوق ، وإنك لقادر ، فميم تناخرنى يا عامر ؟ فقال عامر : والله إنى لأزل منك للقرعة^(٣) ، وأحمر منك للبيكرة^(٤) ، وأطمم منك للهيبة^(٥) ، وأطمن منك للنترة . فقال علقمة : والله إنك لسكابل البصر ، لسكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر . وكانوا بدأ مع بنى الأحمص على بنى مالك بن جعفر : لئن تطيق عامراً ولسكن قل له : أبا نورك بجزيرة وأقربنا إلى الطيرات . فقال له علقمة هذا القول ، فقال عامر : غير وثيس^(٦) ، وثيس وعزء نم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يسطاها الحكيم ، أبنا ندر عليه ساحبه أخرجهما ؟ فقلوا ذلك ، ووشوا بها رهناً من أبائهم على يدى رجل يقال له خزيمه بن عمرو ، فسمى الضمين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك ، وجملا متافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ثم قال بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنتا كركيى البير الأدم^(٧) . قال : فأبنا البين ؟ قال : كلاكابين ، وأبى أن يلقى بينهما . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ؟ فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش ، فأبنا عيينة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهما شيئاً ؟ فأبنا غيلان بن سلمة الثقفى ، فردها إلى حرمة بن

(١) السكاة : جمع كس ، وهو التجاج . (٢) رجل عامر : لم يولد له ولد .

(٣) القرعة : الملاء من الأرس . (٤) البيكرة : التينة من الإبل .

(٥) الهيبة : القطة المجدمة من الغم .

(٦) البير : الحمار ، وغلب فى الرمش ، وهو أقوى من البيس ، أى مثل أولئك الكلبير والبيس ، أو على الأقل كالبيس والنتر إذ البيس أقوى على التلاح من النتر .

(٧) الأدم العظم : وراه الغم حتى لم يبين له جيم .

الأشهر الرى ، فأبى أن يقول شيئاً . ثم تداعبا إلى هرم بن قطيبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من نبعه ، ومائة يسطها للحاكم ، ومائة تفر إذا حكم ؛ فأبى هرم بن قطيبة أن يحكم بينهما عائلة الشر ، وأبياً أن يرحلا . فقال هرم : لدمرى لأحكم بينكما ، ثم لأتصلن ، فأعطيتى موتناً أطلقن إليه أن ترشبا بما أقول ، وتسلنا لا قضيت بينكما ، وأمرها بالانصراف ووعدها يوماً ، فأنصرت حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام اليوم عنده أياماً .

فخلا هرم بعلقمة ، وقال له : أترجو أن يترك رجل من العرب على عامر فارس مقبراً ؟ أئدى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء لسفان ومع عامر أذكر في الرب من الأحوص ، ومعه ملاحب الأستة .

فقال له علقمة : أنتدك الله والرحم أن لا تفر على عامر ، اجز ناسيتى ، واحكمم فى مالى ، وإن كنت لا بد أن تمل نسو بينى وبينه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيي ؛ فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً . ثم خلا بعامر فقال له : أهل علقمة تنصرو ؟ أنت تناوتهم ؛ أهل ابن عوف بن الأحوص ؛ أهل بن عامر ، وأبنتهم تنية ، وأحفهم وأسودم ، وأنت اعور عافر مششوم ؛ أما كان لك رأى يزعمك عن هذا ؛ أكنت تظن أن أحداً من العرب يترك عليه ؟ فقال عامر : تشدتك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة فوالله إن فعلت لا أفلح بعدها أبداً ، هذه ناسيتى فاجزها ، واحكمم فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا نسو بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيي ؛ فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه يفره عليه .

ثم إن هرماً أرسل إلى بنيه وبني أبيه : إلى قائل غداً بين حذبن الرجلين مقالة ؛ فإذا فعلت فليطرد بيسكم عشر جزائر^(١) ، فليبصرها عن علقمة . ويطرد بيسكم عشر جزائر يبصرها عن عامر ، وترفوا بين الناس لا تكون لهم جماعة . فلما اجتمعا وحضر الناس للنساء قام هرم ، وقال : أبني جعفر قد نما كفا عندي وأنا كركني البير الأدم ، تتمان على الأرض ماء ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .

(١) جزائر : جم جزور .

ومحمد بنو هرم ويتر أخيه إلى تلك الجزر فتعروها حيث أمرهم هرم ، وترفوا
الناس ، ولم يمتل هرم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يمتل - وما أبتا عم -
فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين عمراً .

فارتحلوا من هرم لا أيام نحو عكاظ ، فلبثهم الأعمش متحدرأ من اليمن - وكان
لا إرادتها قال للفتمة : اعد لي حبلا ، فقال : أعدد لك من بني عامر^(١) قال : لا ينشئ عني -
قال : فن قيس ! قال : لا قال : فإنا أنا بذاك ، فأق عامر بن العقييل فأجده من أهل
السياء والأرض ؛ فقال له : كيف تهيرون من أهل السياء ؟ قال : إن مات وديعه - فقال
الأعمش لسامر : أظهر أسنكا حكمتاني ، فمدل ؛ فقام الأعمش ، فرغ عتيرته^(٢) في الناس
فقال :

حكمتوه ففضى بينكم أبلج مثل القدر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ولا يبالي خسر الخامر
عاقم لا ، لمت إلى عامر السعافض الأوتار والوار
وللابس انليل يجيل إنا نار هياج الكبة^(٣) التار
إت تسد الحوص لم تدم عامر ساد بن عامر
ساد وأق رحله سادة وكابرا سادوك عن كابر

وشد القوم في أمراض الإبل المائة لتعروها ، وقلوا : نمر عامر وذعبت بها
الفرغاء ، وجهد عاقبة أن يردعا لم يقدر على ذلك ؛ فليل يهدد الأعمش فقال :

أتاني وعيد الحوص من آل عامر فبا عبد عمرو لو نهب الألواسا
فما ذنبا إن جاش بحر ابن عمكم وبمرك ساج^(٤) لا يوارى القطمسا^(٥)
كلا أبويكم كان فرحاً دعامة ولكمهم زادوا وأصبحت غانصا

(١) عتيرته : سوتة . (٢) الكبة : الفتة في الفحل والفتة في الحرب .
(٣) ساج : سجن . (٤) القمحوس : دوية أو دودة سوداء تكون في العنبران .
(٥) لا يوارى القطمسا : لا يوارى القطمسا^(٥)

تبيون في الشئ ملاء بطونكم وجزأتكم غرتي^(١) بيتن خالصا^(٢)
براهن من جوع خلال عانة نجوم النشاء البامات التواصا^(٣)
رى بك في أخرايم تركك التدى ونضل أفراننا عليك مراصا^(٤)
فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجار الكلاب الرواصا^(٥)
فبسي علفمة لا ياته هذا الشعر وكان يكلاه زيادة عليه في المار^(٦).

هذا والهاورة : هي التناور والتزايغ في السلام والحديث . وهي من ضرورات المجتمع والحياة .

والعرب كثير و الهاورة الأكثره خصوماتهم ومفاخرتهم وتنازعهم على الشرف وسواه .

وتشمل الهاورات : الفائرة والفاخرة ، وسواها من الهاورة العامة .

(أ) فالفاخرة : المفاخرة في الفاخرة ، وأصلها من فوهم : أبدأ أمر عرا : فهي التعاكم إلى الأشراف من كلام العرب ، ليعصاوا بينهما ، ويتصوا بالشرف لأحدهما .
(ب) والفاخرة : مصدر فخر ، وهي تناخر القوم بعضهم على بعض ، وكانوا يفاخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والزم والقرية والكثرة والعدد .
(ج) والهاورة العامة في شئون الحياة مما لا يتصل بمفاخرة أو منافرة وهي كثيرة ، كثيرة مطالب الحياة وشئوننا ودواعي اتصال الإنسان بسواه من المجتمع .

(١) غرت : جاع . (٢) الخالص : جمع فحمة ، حارة البطن أي من شدة الجوع .
(٣) النشاء : إحدى التعريفين ، قال في القاموس : من أبادتهم : إن التمرى الصور تطلت الحرة تسبب جوراً وبكت الأخرى على أترها حتى تحمست ويقال لها القنوس أيضاً .
(٤) راص غريته : راصده ، قال في القاموس : والراص لم يسع براصدها .
(٥) الكلاب : موضع ، والرواص من الجارية : التي تسكب الدواب ، والمغفور الناقة .
(٦) راجع حديث هرم بن عبد الله مع عمر بن الخطاب حول هذه المفاخرة في البيان والتبيين (١ : ١٦٨) .

سجع الكهان وصورته

١ - حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام :

كان ثلاثة بطون من قضاة متجاورين بين الشحر وحضرموت وهم : بنوناهب ، وبنو داهن ، وبنو رثام . وكان بنو ناهب وبنو داهن متظاهرين على بسني رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً وأشجعهم لئام ، وكان لهم مجوز تسمى خويلة ، كان يدخل عليها أريسون وجلالكهم لها محرم : بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عفاً ، وكان لها أمة من مولدات الرب تسمى زبراء ، وكانت زبراء كاهنة .

فقال زبراء لخويلة : انطلق بنا إلى قومك أنذركم ، فأقيت خويلة تنوكاً على زبراء ، فناموا إجلالاً لها .

فقال : يا نحر الأكباد ، وشجا الحساد ، هذه زبراء ، تحركم عن آيابه ، قبل انحصار الظلواء ، بالؤيد^(١) الشماء ، فاصموا ما تقول ، فلما : وما تقولين يا زبراء ؟

قلت :

واللوح الخائف ، واللبل الناسق ، والصباح الشارق ، والنجم العادق ، إن شجر الوادي ليأدو^(٢) خيلاً ، ويحرق آياباً عملاً^(٣) ، وإن سخر الطود لينذر شكلاً ، لا يجدون منه ملاً^(٤) .

وانصرفت ضيم ، فانصرف منهم أريسون رجلاً ، وبق ثلاثون - فرقدوا في مشرجهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناهب فتطوهم أجمين . وأقيت خويلة عند الصباح ، فوقف على معاصهم ، ثم عدت إلى خناصرهم فقتلتها ، وانقضت منها ثلاثة وأقيتها في عفا^(٥) .

(١) لداعية والأمر العظيم . (٢) أي يذبل .
(٣) حرق آيابه : حك بعضها بعضاً - والتعلل : الموجة .
(٤) أي منين . (٥) رابع ١٢٦ - ١ الأسال .

٧ - وراجع حديث مصاديق مذكور وخروجه في طلب القود ، وما أخيره به الجوارى الأربع الطوارق بالحفا^(١) .

وحديث الزواد الذين أرسلتهم مدحج ووسنهم الأرض لقومهم بعد رجوعهم^(٢) .
واقرا حديث سواد بن قارب وكهاته^(٣) ، وحديث ابنة انس مع أبيها^(٤) .
ووفود عبد السبع - رسول كسرى - على سطيح الكاهن^(٥) .

وكانت هدد بنت عتبة زوجا للفاكهة بن النيرة الخزوي، وكانت داره ناديا لقومه ، فأتتهما الفاكهة برجل واستأجنتها بأبيها ، فخرج بها والدها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من أومها ، وأقبل معهم الفاكهة في رجال من قومه . فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكسارا وتنبيرا ، فقال لها : يا بنية لا تكفبي من أمرك شيئا ، فإن كان ما بك لربة ترجع ولا بأس عليك ، ففالت هدد : لا والله يا أبت ، ما ذاك لربة ولا فاحشة ، ولكنكم تدمرون على بشر يفتلن ويصيب ، وأخشى أن يسمى بسمة ، تنق على وسمة عار آخر الدهر ، قال : سأبوء لك ، ثم خيا خيتا ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن ، فأخبرهم بحديثهم ، ثم أقبل على هدد فقال : انفضي غير رسعاه ولا زانية . وستلدين ملكا اسمه معاوية .

ما هي الكهانة ؟

والكهانة قد سبق الحديث عنها وهي تصرف النبي من الأمور المستقبلية والألانبية . وكان في العرب كهان يتنبأون بالحوادث ، ولعرب اعتقاد كبير فيهم ، فهم ملاذ الرضي ، وطبأنتية الحائر ، والحكم في الغصومة .

ومن أشهر هؤلاء الكهان : شق وسطيح اللهشي^(٦) . وطريقة الخير امرأة عمرو ابن عامر الجبورية وكانت باليمن وهي التي تنبأت بمراب سد مأرب ، ومنهم فاطمة الغصمية وكانت بمكة ، ولها قصة مع والله الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسلم عبدالله

(١) ١١٢٢ ج ١ - الأمان . (٢) ١٨٠ ج ١ - الأمان .
(٣) ٢٨٩ ج ١ - الأمان . (٤) ذيل ١٠٧ - الأمان . (٥) ١٧٨ ج ١ - القندط ١١٢٨
(٦) ١٨٢ بتامرين في زمن كسرى أو شروان ووليا ما .

ابن عبد المطلب قبل أن يتزوج بأمة بنت وهب ، ومنهم زبراء ، وسواد بن قلب وغير هؤلاء كثيرون .

ويتحدث الرواة بأعجاب كثيرة لأولئك السكبان وبجائهم في الإخبار بالنبي ومعرفة الحوادث .

وكانت السكبان منتشرة في الجاهلية قبل البعثة ، وتدور غالباً حول التبشير بنبي يبعث ، وتفسير الرؤى ، ومعرفة ما خفي عنهم من الحوادث .

وهي نوع من الدراسة والإلهام وسدق الحس وسدء الروح والقدرة على التحليق في جوامع مجردة عن حدود المادة ، وكثيراً ما تصدق النبوءات في مثل هذه الأحوال .

ويقول الجاحظ في البيان والبيان :

(أ) كان كيان العرب يتحاکم بإيم أكثر أهل الجاهلية ، وكانوا يدعون السكبان وأن مع كل واحد منهم رثاً من الجن ، مثل حازي جبينة ، وشق ، وسلطيم ، وعزي سفة ، واشباههم ؛ وكانوا يتكلمون ويتكلمون بالأسجاع . وكان شمرة بن شمرة وهم بن قطبة والأخضر بن حابس وتليل بن عبد الرزى يتكلمون ويتفرون بأسجاع وكذا ربيعة بن حذار^(١) .

(ب) ومن أهل الدعاء والتسكراء ومن أهل السن واللقن ، والكلام الصحيح ، والأمثال السائرة . والخارج الجبينة : وهند بنت الحس ، وهي الزرقاء ، «خمة بنت حابس» ، وها داهيتا نساء العرب كما يقول أبو عمرو بن العلاء^(٢) ويذكر حواراً لأبنة الحس مع أبيها^(٣) .

(ج) ويذكر أسماء السكبان والحكام والطبباء والعلماء من فطحان^(٤) ومنهم - كما يقول - في الجاهلية . عبيد بن مرة ، وشق بن الصعب ، وديع بن ربيعة السطحي القتيبي . والأشهر الحارثي ، والقيان الحارثي الشريفيان السكاهان^(٥) .

(١) ١٦٠ - ١ البيان والبيان - (٢) ٢٠٠ - ١ الرجح .

(٣) ٢١٢ - ١ الرجح . (٤) ٢٣٠ - ١ الرجح . (٥) ٢٣١ - ١ الرجح .

الفصل الثالث الشعر في العصر الجاهل

تعريف الشعر:

يعنى الأديب على أن الكلام لايسى أدياً ، ولايت إلى الفن ينسب ، إلا حين يجمع له روعة التأثير ، وبراعة السكره ، ودقة النى ، وجمال العبارة ، ولطف الأسلوب وإمراة .

فإذا بلغ هذه الناية ، واستوفى تلك الليات ، فلا بد أن يأخذ أحد هذين اللونين :

١ - هذا اللون من الكلام الذى يجرى على الألسنة ، لا يتبد ساحبه بوزن ولا يلتزم فيه قافية ، ولا يتوقف إلا على سلامة السكره ، وصحة النطق ، واستقامة أركان الكلام . وهذا النوع هو الذى يسمى بالنثر .

٢ - ذلك النوع الذى يلتزمون به حدوداً خاصة ، وصحياً معيناً ، ينشره دائماً إمرأق الخيال ، وحلاوة اللفظ وأناقته ، وجمال المعنى وبهيجته ، مع خضوعه دائماً لقبود الوزن وحدود القافية . وهذا هو الذى يطلقون عليه الشعر . لأنهم كما يقولون شعروا به وفتلوا له^(١) .

قالشعر إذن هو الكلام الجيد البليغ الذى يعتمد على الوزن والقافية . ولأنه يبدأسمى أنواع الكلام ، وأجل ألوان البيان ، لما يحتويه من بهاء يأخذ بالألياب ، وجمال يشوى الأندسة ، فقد يطلق بعض الأديب على كل كلام ينحو هذا النحر ، ويلبس تلك السمة ، لفظ الشعر كما قال حسان لايتعجبين وصف زيبوراً اسمه بقوله: «كأنه مائف فى ردى حيرة» شعر ورب السكرية . وهو لاشك يقصد من وراء ذلك أن هذا الكلام كاد يلحق بالشعر فى براعة خياله وروعة تصويده . ولعله لهذا كان

(١) ٧٧ ندر النثر ، ٩٦ ج ١ المدة .

العرب يقولون في القرآن إنه شعر ، إذ اجتمع له اسمى وأروع ما في مجال البيان وخلاصة الأسلوب وصمو التصوير ومن تأثير على النفوس وسلطان على الأحاسيس ونفاذ إلى أغوار القلوب .

ولقد رأينا من أدباءنا الحديثين حين يزعمهم بيان أو يطرحهم أدب منثور ، من يطلق على الكلام الجليل ، الذي لا يتصل بالوزن ، ولا يتقيد بالثانية لفظ شعر منثور . وكل ذلك من باب الإلحاق والتجوز .

على أن من أدباء العرب من لا يشترط في الشعر الوزن والثانية وقد يفتيه بعض أدباء العرب من قيد الثانية ، ويرون أن ذلك أدى إلى طول التصيد وحسن التصرف واحتشاد الألفاظ ، التي تساعد الشاعر وتمده بالجزل من القول دون أن ينفقه كلال أو يصيبه إعياء .

على أننا ونحن يإزاء الكلام الفني الذي يتميز بسمعة خاصة في بلاغته ، ويستلقت الأذهان بحسنه ورواجه ، لا بد أن نغرق بين النثر والشعر ، ولا يكون ذلك إلا بالوزن .

ولقد رأينا ذلك عفاؤنا المتقدمون ، حين تناولوه بالبحث ، فقال قدامة ابن جعفر في تعريفه : إنه قول موزون متقيد على معنى .

وقال ابن خلدون^(١) : هو الكلام للوزن اللقي ، أي ما اجتمع فيه قيد الوزن والثانية معاً . ولعل ابن خلدون لاحظ ما في هذا التعريف من قصور ، يتزل بالشعر إلى درجة النظم ، الذي لا يحرص على معنى ولا يستهدف فكراً ، فإذ ثابته^(٢) إلى تعريفه بقوله : الشعر هو الكلام البليغ اللبي على الاستدارة والأوصاف ، للفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء فيها في غرضه ومقصده مما فيه وينفقه ، الجاري على أساليب العرب المنصوصة به .

(١) للقدمه ص ٦٦٦ . (٢) للرجع ص ٥٧٣ .

ويقول ابن رشيق في تعريفه^(١) : الشعر يقوم بعد الية من أربعة أشياء ، وهي اللفظ والوزن والبنى والقافية لهذا هو حد الشعر .
ومن ذلك كله ترى أن جبهة الأدياء على أن الكلام لا يتميز عن النثر ، ويطلق عليه لفظ الشعر ، إلا حين يجتمع له البنى والوزن والقافية .

عناصر الشعر :

لا يستطيع الكلام أن يسمى شعراً ، ولا يصحليخ بعسنة الشعرية ، حتى تنبأ له أركان الشعر ، ويتجمع فيه عناصره وكذا وضعت هذه العناصر كل أشد تأثيراً على النفس ، وتنادى إلى القلب ، وإثارة للمخيلة . وهذه العناصر هي :

١ - البنى :

قالني الشعرى سواء كان حافية أم خيالا لا يدان يتأنيق في صوغه الفسك ، ويطرز حواشيه الخيصال ، وأن تحشد له الألوان التي تزيد بهجته وتميخ قبوله .
وهناك فرق بين البنى التي تؤديه قطعة من النثر والبنى التي يحمله بيت من الشعر .
إذ اعتماد الأول على القتل بمخاطبه ، والمخبة يسوقها ، والنطق يحتمى به ، واهتمام الثاني على الخيال يوظفه ويذكره ، والشعور يثيره ، والناطقة يلهجها ، والمرء حين يصني إلى معنى تجود به فرجة شاعر موهوب ، تناد له مشاعره ، وتجتجج جوارحه ، وقد تهيج عبرته ، وتجمع شجونه ، وتشتد لوعته . وهذا ابن الرومي يرى ولله بقوله :

بكاؤكا يشق وإن كان لا يجدى	بجودا فقد أودى نظيركا عندي
ألا قاتل الله النساءيا ورميها	من القوم حبات اللوب على عمد
توخى حمام اللوت أوسط صبيبي	نلقه كيف اختار واسطة السند
على حين تحت الحسير من لحاته	وآمنت من إمدائه آية الرشد

(١) الممدس، ٩٩ - ١٠١ .

فيغير المحزون الشديد ويثبت الأمل للشد ، ويقل في تهيبج الشجون وإسالة
العبرات ما لا يفسله كتاب .

وهذا أير تمام يرى محمد بن حميد الطوسي بقوله :

كذا فابجل الخطب وليدح الأمر فليس لعين لم يعض ماؤها عسفر
توتيت الآمال بسسد محمد وامسبح في شتل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من نسل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخ

يبدو العيون أن تسخر بالدمع ، ويمرض القلوب على أن تستحضر السوعة
والحسرة والأين ، ومن هنا ندرك أن معاني الشاعر تنتمه دائما على إثارة العاطفة ،
وتهيبج للشاعر . وقد يصطغ لذلك طرقة مختلفة من تشبيه واستمارة وعجاز وحقيقة ،
فتسكون الصورة التي أدها وأبدع في تسميتها وتأتق في سوغها أدهى إلى الإعجاب
وأجلب لتأثر . حيث يميل الخيال الشعري عمله في تجليتها وتلوينها .

٢ - اللفظ :

ألفاظ اللغة هي واحدة لا تختلف في ترتيبها ، ولا تتباين في نطقها ، مهما كانت
الذي التي تؤدها ، والإنسان الذي ينطق بها ، ولكن الاختلاف العظيم والفرق
الجلية تأتي من جهة استعمالها وتماثلها ، فإذا أوتي الأديب حظاً وافراً من حسن القوق ،
ودعة الاختيار ، وقوة اللاحظة ؛ استطاع أن يلقى الألفاظ الشعرية التي تحس الحس ،
وتهزه هزاً ، وتدخل القلوب دخول الجيب الأليف للناس به . دون أن تسكده فسكراً
أو تنقل على صمغ .

وألفاظ الشاعر تتأني دائما مع معانيه ، وتتلام مع إسنكده ، وكلما كان اللحن
عما يرفعه له الفؤاد ، وتهتز به الجوانح ، استدعى لفظاً موسيقياً نابضاً بالجمال والإعراق .
قالن الجيد ، والخيال العليل ، يحتاج إلى لفظ موزون ، وأسلوب مشرق .
وعبارات تفيض رقة وعذوبة وسلاسة ، وقوة وجزالة ، وكل من معنى نادر أفسده
لفظ مرذول ، وأسلوب شفيف مفكك .

إما الأسلوب الدارج النوى، والصورة البارعة للشدة، التي تعيش بالجمال والبهاء،
بأنها تستولى على فكر الإنسان وإحساسه، وتختلك منه مواطن الإعجاب .

ومن يقرأ وصف النابذة للجيش لا يسهه إلا أن يطير فرحاً وطرباً من روعة
ما يسمع . . يقول النابذة :

إذا ما نزلوا بالجيش خلق فوقهم عصائب طير تهدي بمصائب^(١)
بصانتهم حتى يترن منسارم من الضاربات بالمساء للوارب^(٢)
زاهن خلف النوم خزراً هيونها جلوب الشيوخ في ثياب الرائب^(٣)
جواج قد أين أث قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب^(٤)
لمن عليهم مادة قد عرستها إذا عرض الخيل فوق الكواكب^(٥)
على عارقات للطنان عسوايس بين كلام بسين دام وجالب^(٦)
إذا استنزلوا عنهن للطن إرغوا إلى اللوت إرقال الجمال للعاصب^(٧)
فهم يتساقون النية بينهم بأبليسهم بيض رفاق المضارب^(٨)
ولا عيب فيهم غدير أن سيوفهم بين فساول من فرار الكناكب^(٩)

يقول البرجاني^(١٠) : وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم
عناقه في تحسين الشعر، فتصحح شعر جرير وذي الرمة في التنداء ، والبحترى في
التأخرين . وتلعب نسيب مقيس العرب ، ومفتزلي أهل الحجاز : كعمر وكثير وجبل
وأحمرابهم ، ولدهم بين هو أجود منهم شمرأ ، وأصبح لفظاً وسبكاً، ثم انظر وأحكم

(١) العصائب : الجماعات . (٢) الضاربات : اللصوص . والوارب : للسرقات .
(٣) خزراً : تنظر بإفتر هيونها . ورياب الرائب : من رباب مائة إلى السواد .
(٤) جواج : مائة لوقوع . (٥) الملقب : رباح مشوبة له الخيل وهي بلدة ،
والكواكب في اللسخ أمام القريوس .
(٦) القامي : الذي يسيل دماً ، والجالب : الذي يرا ، أو عله الجلبة وهي القفصة .
(٧) أرغوا : أسرعوا . (٨) المضارب : جمع مضرب وهو حد السيف .
(٩) الفول : النوم . والفرار : الهجاة . (١٠) الرسالة ص ٣٠ .

وأصنف ، ودعي من توثك: هل زاد على كذا . وهل قال إلا ما قاله فلان ، فإن روعة
اللفظ تسبق بك إلى الحكم - وإنما تنفي إلى التي عند التفتيش والكشف ، وملاك
الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ، ورفض التمثل ، والاسترسال للقطع ،
ويجب السمل مائه والتمف به .

٣ - الوزن والقافية :

وأم العناصر التي تورد الشعر بطايبه الخالص ، ولغنى عايشه سمة مميّزة هو
الوزن . . فإن لحسن الإيقاع ، وجمال التقسيم ، وروعة التنميط ، من الخفة على السمع ،
والبوق بالقلب . والتأثير في النفس ما ليس لتكلام السرود . الذي لا يسده الوزن ،
ولا يؤلف بيته النظام .

ولقد رأينا في أدينا العربي أن ما وصل إلينا من تراث الشعر ، فراع الناس وجههم ،
وأثار كل من إيجابهم ، إنما جاء في هذا السمت . وذلك الطراز المروف للوزن ، فإننا
نأفق بعد ذلك أديب ، أو اجتهد فنان ، في خلق صورة تتلحم أشواؤها وتشم أفكارها ،
في ألفاظ مرسة ، فلا يصح أن تقول إنها شعر ، إذ أنها تنقص الوزن الذي كان يزيد
من جمالها ، ويضاهف من رونقها وجمالها ، لو أنه كان موجودا .

ولولا الوزن لسا نهباً لهذا التراث العربي أن يصل إلينا على تماكب الأجيال ،
وتتابع الفهور ، والقوم إذ ذاك لا تسلمهم حصاره بكتابة ، ولا يوانهم علم بتدوين .
ولا يبقى ما للثانية كذلك من سحر وجاذبية ، ومن جمال ووقع لدى السمع ،
ومن دلالة على براعة الشاعر ، وإعلان عن مقدرته .

فإنما القافية يصنع في تجميل القصيدة ، وحسن استوائها ، ولطف وقعها ،
ما يذهب به التمدد ، على أن هذا الاتحاد من ناحية أخرى قد سجل جميل الشعر العربي
قصيراً بالنسبة إلى غيره من إشارات الأمم ، التي امتازت بالطول ، لأن اضطراب الشاعر
إلى التزام سمت خاص ، والتفتيد بثانية واحدة ، وخضوعه لطبيعه البدوية التي لا تميل
إلى الاستقصاء ، ولا تجميع إلى القفة والنسق يسيل تسكيق باللمحة ، وتسكن إلى
المخاطرة . كل ذلك كان سبباً في قصر الشعر العربي عن غيره .

وقد دعا جماعة من المحدثين كما سبق إلى طرح التافية من الشعر العربي الحديث ، لأنها في زعمهم وإن تعددت في القصيدة الواحدة ، يجعل كل قسم من أقسامها على قافية - قيد للشاعر ، وعبء عليه ، إذ لا تدع الشاعر حراً في تصوير ما يريد ، وهي السبب الأكبر في رأيهم لتأخر الشعر العربي عن الشعر الغربي ويسمون مثل ذلك « الشعر المرسل » .

ويدعو آخرون إلى تعدد التوافي ، ويقولون إنه إذا اتسمت التوافي لشئ اللافي والقاسد ، وانفجرت جمال القول ، بزغت الواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء القصة والوصف والتشيل . ومثل ذلك يقبل إذا كان تعدد التافية يأخذ شكل الربيات أو الخفصات أو الرجز مثلاً . أما دون ذلك ، فهو قبيح .

ويدعو بعض الماسرين إلى التجديد في أوزان الشعر وبحوره القديمة للورثة عن تحليل لتحرر من الأوزان القديمة المحدودة ، وليكون الشعر أندر على تصوير ألوان الحضارة والترف والعمارة ، وليلامم التجديد المستمر في البناء وألغائه . وهذا التجديد لا بد أن يكون له قيود وحدود وإلا كان مبنياً مثل عتبات أصحاب « الشعر الحر » الذين يبتغون القصيدة على نظام النسبية ولا يتيدون بالنظام الشطري للبيت . ولا شك أن في هذه الدعوات إسهاماً في الخصومة للشعر العربي القديم ومناهجه للورثة . . وإن كنا نسد تعدد التوافي في القصيدة بحسب إعرافها وموضوعاتها أخف وأيسر مما سواه .

ومما لا ريب فيه أن الشعر العربي بصورته للورثة فيه جمال فني شاعر ، وله روعة وقوة تأثير ، والتزام الوزن والقافية فيه يكسبه ريناً موسيقياً ساحراً ، ويدل على قدرة الشاعر وأكثال تنانته الأدبية .

نشأة الشعر :

ليس هناك من شك في أن الإنسان قد اعتدى إلى الشعر بطرته . وانساق إلى هذا الفن الرفيع بعليته ، التي شافها ما في الكون من حسن القاسق ، وجيل

الانسجام ، وحلو الأناام ، دعت طبيعته اللطافة أن يفتن بما يتلجج في صدره ، ويشدو بحسا ترخر به نفسه ، من ألوان الإحساسات ، وفنون الاتصالات ، تتفق بالثناء لسانه ، وتعجز به بيانه ، وانطلقت عقيرته .

ثم أسنى إلى ما يحيط به من تناوح الرياح ، واسطفاق المياه ، وخرير الأنهار ، وخفيف الأشجار ، وتمايل الليل والنهار . . وأوحى إليه هذه الظاهر الرائعة التي تهف بها موسيقى الكون ، أن يشدو بأناهما الحالة ونضائها اللطافة .

أحس بممان حركة قلبه ، وأثارت نفسه ، وجش بها صدره ، ثم استعاضت على لسانه في سورة منقومة موفقة ، وكلام منسجم ، واللباط متناسقة ، ثم أخذت هذه الأناام ، أو تلك الكليات التي يفتن بها حين تهيج ذكركى ، أو تثيره لوعة ، أو يمتعه داع ، أخذت تتطور وتكتبر حتى استقرت في أوضاع خاصة ، هي التي تعرف عندنا الآن بأوزان الشعر .

نشأة الشعر تتكاد تكون ترواما لنشأة البناء ، إذ كان الحاضر لهذا هو الذي إلى ذلك . وإذا كان الجمال الثابت منها له تأثير رائع على الألفة والأصماع ، وهي التراز والطلاع ، ثم أخذ كل فن منها يعمل دالياً في رسالته ، ويتطور في أداء مهمته ، ويحاول أن يأخذ أوضاعاً خاصة به فتطورت أوزان الشعر ، وتعددت وأخذت سمتها المروف الآن ؛ تطورت الحان البناء ، وأصبح فناً قائماً بنفسه لا يحتاج إلى الشعر ، ولا يتوقف على أوزانه ، وسار كذلك الشعر يستطيع أن يصور خواجه ، ويرسم أحاسيسه ، دون أن يقصد إلى البناء ، أو يفكر فيه .

وسواء قلنا : إن نشأة الشعر والوزن الشعرى جاء بحكم حركة العمل الجماعية أو نتيجة لحركة الهداء في السير أو الرقص الجماعى ، فإن ذلك كله يؤدي إلى نتيجة واحدة .

قال ابن رشيق في المقدمة^(١) : « كان الكلام كله منظوراً ، فاحتاجت العرب إلى

(١) ص ١٠٠ ج ١ .

التناء بمكلام أخلاقيها ، وطيب أعرافها ، وذكر ألبها الصالحة ، وأوطانها الفازحة ،
وفوسانها الأنياد ، وصحائفها الأجواد ، تهنئ نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبنامها على
حسن الشيم . فتوهوا إماريس ، فصارها موزين للسلام . فلما تم لهم وزنه سموا
شعراً ، لأنهم شعروا به ، أي فطروا له .

أولية الشعر العربي :

ليس من السهل على الباحث أن يهتدي إلى تاريخ صحيح لوك هذا الفن الجليل
عند العرب . نعم أمة شاعرة تهتد بالشعر طباتهم ؟ ونشدو به ملسكاتهم . يقولونه
إذا حلوا أو ارتحلوا في ظنهم وإلتئيم ، وخوفهم وطمأنيتهم ، وحرهم وسلمهم .
وهم يقولون إن أولية هذا الشعر ترجع إلى ما قبل الإسلام يقرب ونصف على
الأكثر . وابن سلام الجعفي يقول^(١) : ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات
يقولها الرجل في حاجته ؛ وإنما قصدت القصائد ؛ وطول الشعر ، على عهد عبد المطلب
أو هاشم بن مناف . وقال الأسيدي : إن الهليل أول من يروي له كلمة تبلغ ثلاثين
بيتاً من الشعر .

ولا يمكن ليبحث أن يلمح إلى أن هذا التراث الحافل ، وذلك الشعر الهذب
انطاد ، يرجع إلى قرن ونصف قبل البعثة . فويل من المتقول أن يولد فن كامل المثل ، تام
النضج ، مستوي الخلق ، لا يستوي عليه شئف ، ولا يستبد به هزال . ولقد قضى
العرب أزماناً سحيقة بهذه الجزيرة ، وبادت منهم طوائف . وقامت دول إثر دول ؛
فلا يعقل أن تبيت الطوائف كلبية غافية ، حتى زمن هاشم أو عبد المطلب . ثم تنتج
دفعة واحدة عن شاعرية بارعة ، وخيال رائع ، ونظم فاخر ، يملك على وجه الزمن .
إن الذي يتنبه العقل ويظن إلى تميمير الباحث ، أن آثار تلك المهود وأشعارها
في تلك الحقب . قد انطوت عليها حجب الزمان وأسدت عليها أستار السديان ، فلم
يصل إلينا منها ولم يهتد فيها على أثر أو خير . وإذا كان الشعر بعد ذلك قد دخل عليه

(١) ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام .

الزيف ، وشاع فيه الوضع ، وأثيرت حوله الشكوك والريب . فلا جرم يكون للدارس مندوحة حين يتأمل تلك الأبحاث ، التي لم يساعدها تدوين ، ولم تتمكن منها رواية صحيحة .

إذا جاء بعد ذلك إنسان ، وقال هذا شعر منسوب إلى عاد ونجد ، أو إلى طسم وجديس ، إلى آخر تلك الأسماء التي وعاما التاريخ مجردة عن آثارها ؛ وحفظها ماملة خالية من اصالتها ، فلنا له كما قال الله جل شأنه : «وأنه أهلك عاداً الأولى ونجد فأتى» .

ولقد أزعج بعض الشعراء الأهل من الأشعار ما يدل على أنهم تأثروا بأشعار إسلامهم ، وإن لم تولدنا هذه الأشعار . هذا امرؤ القيس يقول :

عسوا على الظلل المليل لئلا يبيكي الميار كما يبي ابن خذام
فن هو ابن خذام هذا ، وما هي تلك التصانيد التي سورت دمه ، وحملت آفته ؟
وهذا زهير يقول :

ما أرانا تقول إلا مساراً أو معاداً من تسولنا مكروراً
فأين هذه الأشعار التي استعاروها ، وتلك الأخبلة والأشكار التي كروها
ورددوها ؟

وهذا عنترة يصيح لآلئ :

• هل غادر الشعراء من متردم ؟ •

نخلص من ذلك كله إلى أن الشعر قد تدهنت حواشيه في زمن لا نعرفه ، ولا يمكن أن نهتدي إليه ، لأن العرب لم تساعدهم كتابة ، ولم يسلفهم تدوين . وكل ما أمكن الوصول إليه تلك الأشعار التي أشرت عن أصحابها قبل الإسلام بقرن أو أكثر قليلاً .

ولقد كثر الشعراء في الجاهلية ، حتى كان لسكل قبيلة شاعر ، يدافع عن أصحابها ، ويذيع مفاخرها ، ويطلق بلسانها ، وإذا نبح الشاعر في قبيلة أسرع القبائل إليها بالتهينة .

أنواع الشعر

يرى المدونون من أدباء الأفرنج أن الشعر ينقسم إلى أنواع ثلاثة: الشعر القصصي والشعر التمثيلي - والشعر التناثي .

١ - الشعر القصصي :

فأما الشعر القصصي . فهو الذي يشهد في مادته على ذكر وقائع وتصور حوادث في ثوب قصة تساق مقدماتها ونحكي مناظرها وينطق أشخاصها .

فالشاعر القصصي قد يطوف بحياته ماثم من الحوادث تنقله به نفسه وتجوابه به مشاعره ويهتز إحساسه ، فيمدد إلى تصور هذا الحادث كما تتل لديه في قصة يتسج خيوطها ويرسم ألوانها ويطرز حواشيها .

وقد يتدع قصة ويخترع حادثة لترويخ نكرة أو تشيع رأى . فيختار لها الأشخاص الذين يتحدث بلسانهم وينطق بما في قلوبهم .

والقصة دائماً تمتد على براعة الخيال ووفرة الحيك وحسن التلامية بين المناظر ، والاحتيال في إنطالي الأشخاص بما يحتاجه جوارهم ، ويردد في سدوم من الأسكرار .

وقد تصور القصة الأجداد الحربية وتسجل الفايح القومية ، وتنتهي بما سر على الأمة من بطولة وشجاعة . وتذكر أعمال الأبطال ومناسباتهم في الحروب فتسمى حينئذ ملحمة ؛ ولا يد أن تدور وقائنها حول بطل مناصر ينتهم الأوهال ويخوض الفاسرات

ويأتي بأعمال خارقة عن مأثور الناس وعاداتهم ثم لا بد كذلك أن يكون من قوة الصوغ ونفاسة الأسلوب وجمال الأداء ما يلفت إليها النفوس ويجذب نحوها الأسماع .

ومن هذا النوع إلياذة هوميروس وهي ملحمة في بضعة عشر ألف بيت متسلسلة الحوادث في موشع واحد هو حرب طروادة مع اليونان .

والألياذة وهي ملحمة لاتينية . تعلمها فرجيل أكبر شعراء الرومان ، مقلداً بها إلياذة هوميروس .

واللهياريته الهندية وهي ملحمة هندية نظماً « نياسة » أحد كهان الهنود وتبلغ مائتي ألف بيت في وصف الحروب بين الشعوب الهندية .

والشاهنامه وهي ملحمة فارسية نظماً أبو التاسم الحسن بن إسحاق الرمدوسي للثورق عام ٤١١ هـ في تاريخ الأكرسة وأخبارهم ووصف الحرب بين إيران وطوران .

٢ - الشعر التمثيلي :

وهو نوع من الشعر يعتمد كذلك على القصة ، وحوادثها ، ولكن لا يبد له من مناظر يقوم بها أبطال وأشخاص يمثل كل منهم دوره ويؤدي مهمته ويميز أمام العيون بالوقائع كما تحدثت على صفحة الحياة ناهضة تاملية ، وحاد الشعر التمثيلي الحوار والمجازية بين أشخاص مختلفين ، ولا بد أن تصحبه مناظر يراها النظارة .

وإن اسمه ليحمل ما يرى إليه من مدلول فهو تمثيل لما وقع كأنه يحدث ابتداء وقت التمثيل . دون ذكر لفظ قال أو أجاب أو نحوهما .

والشعر العربي القديم وإن كان قد خلا من هذا اللون فقد حفل العصر الحديث بדרך قوية نادرة مثل كليبوارته ومجنون ليل وقبير لأثير الشعراء أحمد شوقي بك .

٣ - الشعر النثائي :

وهو الذي يصف به الشاعر ما يحس من خواطر وما يجيش في نفسه من خواجج ، يحب وينضج ويربح ويمجن ويرضى وينضب فيفيض قلبه بما يجد وينطق لسانه بما يشعر . ويسكب آلامه المرحة وهمومه القلبية وعواطفه الشبوية في أسلوب مؤثر ، يوظف نطق الشاعر ومحرث كامن الإحساس .

ولعل الذين قسموا الشعر إلى قصصي وتمثيلي وغنائي ، لحظوا أبرز معنى ينطب على كل قسم . فالقصصي يظهر فيه القصص وانها غالباً وإن كان مما يمكن أن يقضى به ، والتمثيلي يبرز فيه التمثيل واستعراض الحركات . والنثائي ينطب عليه الصلاحية لثناء لأنه أدب ذاتي يصف الإحساس ويصور الوجدان وإن لم يكن في بعض سورده ومظاهره مما يصلح للثناء . وقد توجد فيه القصة ولكنها ليست من فسوة الظهور

وأكثال القوميات بحيث يمكن أن يسمى بها فهو إذا كان قد حل قصة أو حكم حدثاً أو صور منظرًا من مناظر الحياة فذلك مما وقع له عنوا لأن سوق الكلام وتصوير ألوان النفس قد اقتضاه واستدعاه .

الشعر البرق من أي نوع من هذه الأنواع:

نقرأ الشعر البرق من لدن عصر الجاهلية ، ونستعرض قصائده، وندرس روايته وأوايده ، نطالعنا من ظواهره السمة الثنائية . فهو في كل أطواره تسجيل غلجيات الأتس وتوازعها ، وتصوير لما يحسه الشاعر من نعيم وشفاء وراحة وعناء ، وخير وشر ؛ وما يمر أمامه من صور الحياة وأحداث الوجود؛ وما يكابده من هول الصحراء، وعصف الريح ، ولع البروق ، وعواء الذئاب ، وخداق السراب .

فهو شعر وجداني تبته الاعتمالات النفسية ، وترجيه الأحاديث القاتية . ومن هنا يبرح الشاعر البرق أشد البراعة في كل ما يقع عليه حسه ، أو يتصل به وجدانه أو يراه بعينه ، فأنق أيما انقنان في وصف البراة ، وتحدث في كل مناسبة من هيامه بها ، وحبها لها ، وأجاد في وصف الإبل عماد رحلتهم ، ووق وصف الليل لأنها حفهم يوم الطمان والزال . كما أبدع في وصف الدارك الحربية ، وخلد بطوقة الأبطال في قصائد حية ياقية .

وإن القارى "لطالع قول طرفة يدمو إلى الفذة ، ويؤثر القهر ، ويعلم أن اللوت يستوى عنده السرف والبخيل ، فيرى سريحة رجل أخذت عليه الشهوة أظفار عشمه إذ يقول :

نداماي بيض كاللجوم وقينة تروح إلينا يسجين برد ومجسد^(١)
إذا نحن قلنا أحصينا انسبرت لنا على رسالها مطروفسية لم تشده^(٢)

(١) النداء : جم ندم . والقينة : الألة اللبية ، تروح أي تأتيها عتية . والجسد : الثوب للمبوغ الجناه وهو الإهتران أو الثوب الذي على الجسد وهو الثمار .

(٢) على رسالها : حبة في رفق وأودة مطروفة البين أي ساكنة الطرف ، أي لم يبالغ في مياها .

إنما رجعت في سوتها خلت سوتها تجاوب أظنار على ربيع ردي^(١)
وما زال تشراب الخسود ولدت ويبي وإتساق طريق ومغدي^(٢)
إلى أن تحاسنى الشيرة كلها وأوردت إبراد البير البسد^(٣)
ألا أيها الزاجري أحضر الوغي وأن إمدد المذات هل أنت غلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع ميني فدعي أبادرها بما ملكت بسدي
أرى قبر نحام يجيل بماله كدير غوي في البطالة مفسد^(٤)
أرى الوت يتنام الكرام ويصطق عطيلة مال الفاسح المتشد^(٥)

ولعل السر في أن الشعر العربي قد خلا من اللونين القصصى والتخيلى : أن كلا منهما يحتاج إلى الكتابة والتدوين واستقرار الحياة ، حتى يتسنى للشاعر أن يجيل فكره ، ويسجل ذهنه ويتروى في ترتيب الأحداث ، واستنطاق الأشخاص ، وتحليل الطباع ، ودراسة النفوس والإلام العميق بزعمات القلوب ، وخليجات الأشدة وانجاء الترائر ، وذلك من إبد الأشياء عن طبيعة العربي ، الذى لم تؤهله حياته البسيطة لبحث أو درس ، ولم تدعه إلى إعمال ذهن ، وكذا فكر ، واكتشاف مقدمات ، وترتيب نتائج ، ولم تمكنه طبيعته من تحايل أو تمسق إننا كان يعتمد على المسحة الخاطفة ، والمخاطرة التى يتجسس بها الإحساس لأول وهلة . . ومن هنا كان يدل دائماً بالقول الموجز ، والعبارة المختصرة ، قال ابن الأثير ، فى كتابه اللؤلؤ السائر : « إن وجدت النعم بفضائل الرب فى الإسباب ، مع الاحتفاظ بالجوذة ؛ فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى ناية الفصاحة والبلاغة فى لغة النعم ؛ كما نزل البردوسى فى نظم الكتاب

(١) أظنار جمع ظنر وهو ثلاثة الرضع ، وأريج الفصيل الذى ولد فى ربيع - وردى أى هالك .
(٢) العريف : اللؤلؤ الذى يكسبه الإنسان بنفسه . والتليد ولؤلؤ الذى يرثه من آياته .
(٣) البسد : الأجرى اللؤلؤ بالقران البسد عن الإبل .
(٤) التمام : النصح الذى يسدل حين تعاقب إليه حابة ، والتوى : الذى ينام هواله .
(٥) يتنام : يفسد . والمتيلة : الكفرة على النفس من مال وغيره . الفاسح : المجبل .

للحروف يشبهانها ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن اليوم ؛ وقد أجمع فصحاءهم على أنه ليس في لغتهم ألمصح منه . . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على النسخة ، وتشتب دونها وأغراضها ، « وعلى أن العجم والنسبة لهم كقطرة من بحر » .

لقد نشأ شعر البري من طبيعة تنسه وبما يتصل به من راح مشاوحة ، وسماء سائلة ، وسمراء جدياء منقورة ، جاء لونا واحداً ، نثلت فيه خواطر أناس تشابهت حياتهم . وتناوبت معاشهم ، وانطوت عليهم طبيعة واحدة، تضن بالرزق ، وتفيض بألوان الحب والتراحم والتعاطف ، أو تدمر إلى التزل والتتال .

من أجل ذلك توحدت غالباً مشاعرهم ، وتجاوبت عواطفهم ، وتماثلت آمالهم وأمانيتهم ، وكادت أن تتماثل أحييتهم وأفانيتهم ومسانيتهم ، تسببت ذلك في وقوعهم على الأطلال ، ويكأنهم المنيار والآثار ، وذكرهم من أطعوا ثم تحمقوا ، واستنقروا ثم ارتحلوا ، حتى كادت بعض تمايزهم أن تتشابه إلى حد بعيد ، وحتى رأينا امرأ القيس يقول :

وقفاً بها حمي على معيهم يقولون : لانهك أسي ونجمل
وبين طرفة فيقول :

وقفاً بها حمي على معيهم يقولون : لانهك أسي ونجمل
وقلت صبح عندهم أن يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا مسأراً أو ماداً من لفظنا مكروراً
وأن يقول عنترة :

• هل نادر الشعراء من متردم ؟ •

على أن العرب لم يفتنهم أن يتخيلوا في شعرهم ما يصح أن يكون بين النبيين من وصل وسد ، وتناوب وتباعد ، وأسباب الإنعراء ، وعوامل الإثارة ، فاخترعوا لذلك أكاسيس وحكايات يفيض بها شعرهم ، وانطوت عليها بعض قصائدهم ، والتي يقرأ

شعر امرئ القيس ، أو يستعرض ديوان عمر بن أبي ربيعة ، يلوح فيه من ذلك الواناً طريفة جلية .

وكم كذلك لم ينب عنهم أن يسجلوا وقائعهم في الحروب ، ويخلدوا مواقفهم في القتال ، فنطقت بذلك أشعارهم ونضجت قصائدهم ، وإن اختلف نهجهم ، وابتعدت طريقتهم طرائق شعراء القصص واللاحم .

ولقد تحدث أمثال عنزة ومرو بن كنون والحارث بن حازم والهلhel في أشعارهم عن الحروب ، وما يمثل فيها من شجاعة وبطولة ، وأسكن هؤلاء وأولئك لا يصح أن يسلكوا ضمن شعراء اللاحم والقصص ، لأنهم كانوا يصفون وجدانهم وإحسانهم ، وقد جاءهم ذلك عفواً دون أن يتصدوا إلى وضع قصة أو يمددوا إلى تصوير ملحمة . ولعل السر في اعتبار هذا اللون من الشعر بالنثاق أن منشأه في الأصل الرقبة في التنقيح يتطاح في الصدر من حم ، أو يطوف بالنفس من رغائب .. ثم كان للرب من حذاء الإبل ليستغنيا العطب ، ويأخذ منها التيم ، تتهيز وتنشيط ، حلز أي حلز على النباء ، ومن هنا كانوا يطلقون على إلقاء الشعر إنشاداً ، وكان كثير من الشعراء القدماء يفتنون بشعرهم ، ولقد قيل إن هوميروس صاحب الإلياذة لم يكن يلقى أشعاره إلقاءً ، بل كان يتنقح بها بحفظه من قصص الأبطال .. . ولقد قيل إن كلمة « شعر » العربية مأخوذة من كلمة شير العبرية بمعنى الترتيلة أو التسيبحة^(١) . . . وفي أخميم المسجع من هديل الحامة ، والرجز من يقشاع مشي الناقة ، وقولهم : أشد فلان قصيدته ؛ ما يدل على أن الشعر مصدره النباء .

والخلاصة إن لون الشعر البرقي عامة والجاهلي خاصة من ألوان الشعر الثلاثة غنائى ، أما النعصي والتثليل فلا أثر لها فيه ، والسبب في ذلك هو :

١ - أن مزاولة هذين اللونين من الشعر تنفضى الزوية والفسكرة ، والرب أهل بديةة وأرنجال .

(١) ١٦ - ١ بحر الإسلام .

- ٢ - وأنها يتطلبان الإلزام بعبائع الناس ، وقد شغل العرب بأنفسهم عن دراسة القفرس والتفرخ لتحويل طبائع الناس.
- ٣ - وأنها ينتفزان إلى التفصيل والتطويل ؛ والعرب أشد الناس اختصاراً لفقول ، وإقليم استقفاً في البحث .
- ٤ - وأنها محتاجان إلى كثرة الأساطير ، ولم تتوفر هذه الكثرة للعرب .
- ٥ - على أن قيود الوزن والقافية في الشعر العربي لا تساعد على الإحاطة وإنشاء اللامح الطويلة .
- ٦ - وعلى أن الشعر القصصي والنثيلي محتاجان إلى تدوين وكتابة لأنهما لوان من ألوان التدوين والحضارة ، والسري في الجاهلية لم يكن يعرف هذه الوسائل ، وكان بيد العصر الجاهلي محتذاً للقصص في مناهجهم الأدبية والوان شعرهم الندية .
- على أن الشعر العربي لا يميزه أن ليس فيه هذان اللونان ، فقد جال بولته التفاني في كل ميدان ، وضرب بهم في كل فرض ؛ ومحدث عن خلق الروايف ودقيق للشاعر ، ووصف الحرب وأبطالها .
- ولو أن العرب اعتدوا إلى هذين اللونين لأجادوا نهما نامة الإجابة .
- وفي العصور الحديثة نجد شوليا وغيره من الشعراء المحدثين ينظفون التثبيبات المختلفة التي منها عترة وكليوباترة ومجنون ليلي وغيرها .

الشمر، المداحون

كان الشمر العربي يبيع دائماً من طبع الشاعر ، ويتهجر من إحصائه ، لا تتحكم فيه سنة ، ولا تستبد به كلفة ، ولا يمد صاحبه إلى تنقيح أو تجويد ، ليسكتب رداً كبيراً ، أو يصل إلى عطف عظيم ، إذ هو رجل مدود في أشراف الناس ، يضمونه في موضع الرئاسة والتمظيم ، وهو لا يقول الشمر إلا استجابة لإحصائه ، وابتداءً لمطرفة يشتمل بها خاطره .

قال ابن رشيق^(١) : كانت العرب لا تتكسب بالشمر ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع ، فكاهة أو مكافأة من يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر ، إعطاهما لها ، كما قال امرؤ القيس بمدح بني تميم وهبط اللئ :

أمر حشا امرئ القيس بن حجر بن تميم بمصاييح الظلام
لأن اللئ أحسن إليه ، وأجود حين عليه الشعر من ماء السياه لطفه بن أبيه الذين تقفوا
بدير مرونا ، فقتل لبي تميم مصاييح الظلام من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس .

فما شعر الكبراء والقادة بأن مظاهر سيادتهم ، ودلائل عظمتهم ، تستدعي أن يكون هناك شاعر يمدحهم ، ويرفع من ألقابهم ، ويذبح مفاخرهم ، ويلبسهم من شمره حلالاً فضفاضة من الإجلال والرهابة ، أخذوا يقربون الشمر ، ويتدفقون عليهم المنقلا السنية ، والحيات الجزئية .

وبدا الشمراء ينساقون في هذا السبيل ، دون ما تخرج ، أو حياظ على ما اكتسبوا من عظيم الثروة ، ورفيع الدرجة ؛ ولقد نشأ النابغة الذبياني فدح اللوك ، وقيل العلة على الشمر ، تسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيماً حتى كان أكله وعمره في صحاف الذهب والفضة ، مما صار إليه من عطاء اللوك .

وتكسب زهير بن أبي سلمى بشمره حين قبل عطايا هرم بن سنان ، حتى حلف لا يمدحه زهير ولا يمدح عليه إلا أعطاه ، وخجل زهير من كثرة ما أخذ ومن طول ما أهدى عليه ، فكان يمر بالقوم ويقول هموا صباحاً غير هرم وخيركم استقلت .

(١) ص ٦٤ ج ١ السنة .

ولقد سأل عمر بن الخطاب ابنة زهير : ما فعلت حلال هرم التي كما ما أبوك ؟
فقلت إبلاها الدهر . قال : ولكن ما كساه أبوك هرماً لم يبه الدهر .

وجاء الأعمى فأسنن الشعر ، وانتقل جلاله ، وجهه وسيلة إلى كسب قوته
وانتجاع رزقه ، وقصد به ملوك العرب والسجم .

والخ الحظيئة في التكسب بالشعر . حتى لم يترك أحداً لأرجس منه تقع إلا مدحه
طمعاً في نواله ؛ أو هبها بأساً من عطائه .

ولئن كان الشعراء يمدحون للترك . ويذوقون إلى الرؤساء استقذاراً لنا عندهم
من منح . فإن الحظيئة على جلاله شعره وعظم منزلته فيه لم تأت من أن يقصد العامة
ويستفرد أطراف الناس وتعارفهم .

هنا يأخذ الشعر شيئاً جديداً ويسم يطالع لم يكن له من قبل ؛ ذلك أن الشاعر الذي
كان يطلق عنده الخاطر ، ويستوحى ما يمر به من صور وما يؤثر في نفسه من أحداث
ومناظر أخذ يشهد همه ويصقل ذهنه ، ويراجع فكره ، ويهذب بيانه ، ويجود فيما
يمضي به شاعريته من ألوان القول ليكتسب رضا المدوح ويصل إلى ما يريد من نفسه
حتى قيل إن زهيراً كانت له قصائد تسمى الجوليات لأنه يشتمها ثم يراجعها فحيرتها
في حول كامل حتى ترضى بها نفسه ويسكن إليها خاطره ، وبذلك قيل هؤلاء الجلودين:
عبيد الشعر .

وكا تأثر جوهر الشعر حين جهه الشعراء سلباً إلى الأعراض اللادية وذويصة
إلى النافع الشخصية، كذلك تعاضت منازل الشعراء ونقض هذا التكسب من أقدارهم
فانصرف عنه كثير من رؤسائهم وأتوا من قومه . وإن ظنوا برهبون سلطانه
ويترقون من سوطه ويضمونه للوضع اللائق به .

قال صاحب الممددة : « كان الشاعر في مبتدأ الأمر ، أرفع منزلة من المطيب
لحاجتهم إلى الشعر في تخليد الآثر ، وشدة المارضة ، وحاجة المشيرة ، وتبهم عدد
شاعر غيرهم التبايل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه من قبيلته . فلما
تكسبوا به ، وجبلوه طمعة وتناولوا به الأعراض ، سارت الخطابة قوته » (١) .

(١) الممددة ج ١ ص ٦٦ .

رواية الشعر ورواته

روايته :

كان العرب بعديهم أثبت الناس حفاً وأقراهم حافظة ، ولم تكن الكتابة مما يمتدون عليها في نظامهم الاجتماعي ، ومن ثم لم يدونوا شعرهم في الجاهلية في ديوان أو سفر ، وإنما كان محفوظاً في الصدور نبيه حافظهم وفقرهم وأدواتهم وملسكاتهم الأدبية الشعرية .

وقد تنجب مما قرأ من رواة العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ولكن لا يجب ، فلكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت نبيهم على تحليد الشعر العربي حتى لا يضيع .

وقد كان الأسمي - وهو من مشاهير الرواة في العصر النبوي - يقول : ما بقنت الخلق حتى رويت اثني عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ، ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذي دون سلع لتتبعه ما يطل
خلف الأحر ، تحلها ابن أخت تأبط مرراً ، وكذا كان يمل حد يحقق الشعر القديم ويقول : ما من شاعر إلا قد حفظ في شعره أحياناً طراوت عنه إلا أعتى بكر نأى لم أزد في شعره غير بيت^(١) . ويقول الفضل : ساطع على الشعر من حد ما أمدده ، ورغم هذه الرواية والمحافظة القوية فقد شاع الكثير من الشعر العربي الجاهل وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أنه ولو جاءكم وافرأ لجاؤكم علم وشعر كثير^(٢) .

وأسبب الشعر العربي مع الضياع بالانقراض والاختلاف عليه من بعض الرواة ، لأسباب كثيرة ، منها التعصبية أو الرغبة في تعادي الإخراج أو سوى ذلك .

(١) راجع ٤٠٧ : ٣ الفد . (٢) ٢٩٤ : ٢ الزهر .

ولكن الفناء اهتموا بتدوين الصحيح من النحول ونهبوا على الكثير من المختلف ،
واللوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما سح من الشعر الجاهل والآثار الأدبية الأخرى .

رواته :

كان لسلك شاعر راوية يحفظ شعره وينشده ، وأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه
في التريخ ، فكان عمرو القيس : راوية أبي ذؤاد الإيادي . وزهير : راوية أوس
ابن حجر ، والأعشى : راوية السيب بن علس ، كما كان الحطيئة راوية زهير . .
واشتهر من قريش أربعة بأنهم من رواة الأشعار وعلماء الأنساب وهم : مجرمة
ابن نوفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويتب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب .
ثم تعدد رواة الشعر من بعد وكان من أبرزهم :

١ - أبو عمرو بن العلاء البصرى م سنة ١٥٤ وله روايات ولم يترك مؤلفات^(١) .
٢ - حماد الراوية (٧٥ - ١٥٦ هـ) كوفي ، وليس له مؤلفات^(٢) . ويقول فيه
ابن سلام : وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أسانيدنا حماد الراوية وكان
غير موثوق به ، ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب .
٣ - الخليل بن أحمد (بصرى) - (١٠٠ - ١٧٤ هـ) وهو اختراع علم
المروض .

٤ - خلف الأحمر (بصرى) توفي سنة ١٨٠ هـ وليس له مؤلفات ، ونقل عن
السيوطي أنه ألف كتاب الجبال وما فيها من شعر ، وله ديوان خاص . وقيل إنه
صاحب لامية العرب^(٣) النسوية للشافعي .

٥ - يونس بن حبيب البصرى التوفى سنة ١٨٢ هـ .

٦ - الفضل بن يحيى التوفى ١٨٩ هـ (كوفي) وهو أقدم من جمع المختار من شعر
العرب في كتاب (النمايات) وأول من نشر الشعر بيتاً بيتاً ، ويقال إنه أول من
جمع أشعار الجاهليين .

(١) فهرست ٤٢ . (٢) فهرست ١٣٤ . (٣) الصانع ٤ .

٧ - أبو عبيدة (بصرى) للتوفى ٢٠٩ هـ وله مؤلفات في اللغة وجزء القرآن ،
والفرائض^(١).

٨ - الأحمسي البصرى - الفسوفى ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات في اللغة ، وكتاب
الأصميات ، طبع أوروبا ، وكتاب في السكروم والنخيل .

٩ - محمد بن سلام الجصى - الفسوفى ٢٣١ هـ وله طبقات الشعراء وغريب
القرآن^(٢).

١٠ - القضر بن شيبان التوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١١ - مؤرج السدوسي التوفى سنة ١٩٥ هـ .

١٢ - ابن السكلي هشام بن محمد التوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١٣ - الميهم بن عدى (كوفى) - وله مؤلفات . وتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

١٤ - أبو زيد الأنصاري للقرنى ٢١٦ هـ ثمة ، وله مؤلفات .

١٥ - أبو عبيد بن التاسم التوفى سنة ٢٢٣ .

١٦ - ابن الأعرابي التوفى سنة ٢٣١ هـ كوفى ثمة وله مؤلفات .

الرواة بين التوثيق والتجريح :

إذا كان من الملاحظ في العصر الجاهلى أن الرواة الموسومين بهذا الاسم كانوا
عادة من الشعراء ، فإنه قد لوحظ في العصر الإسلامى ظهور طائفة من الرواة لم يكونوا
ممن يحسبون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لمرض قلبه ، وإنما يروونه لمرض نشره
في الناس .

فإذا امتد بنا السير إلى نهاية العصر الإسلامى ومطلع العصر العباسى وجدنا
طبقة من الرواة المترين الذين أخذوا رواية الشعر الجاهلى عملاً أساسياً لهم ، وهؤلاء
الرواة لم يكونوا يفتنون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً
من الأخبار من الجاهلية وأيامها .

(١) الهرست .

ومع حرص كثير من الرواة على هذا الشرح الجاهل والمخاطب عليه لأنه سجل حياتهم ومظهر أجدادهم ومناخهم . . مع هذا الحرص ندف سقط منه الكثير في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمن الطويل . . وفي ذلك يقول ابن سلام : « لما كثرت الإسلام وجاءت الفتح والفتوح العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشرح فلم يؤثروا إلى ديون مدون ولا كتاب مكتوب ، وأقرأ ذلك وفسد هلك من القرب من هلك بالوت والقتل ، فحفظوا أقل من ذلك وذبح عليهم منه كثير »^(١) .

ولا شك أن حضي في العصر العباسي حتى عهد هؤلاء الرواة قد كثرنا بمدارسين متقابلين : هما مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، وعرف الأوفون بشدهم في الرواية دون الآخرين ، ومن هنا تفضحت الروايات ودخلها موضوع ومحتج كثير . ولعل من القريب ما ذكر من أن الكوفة عرفت في الحديث النبوي بلوضع والاتصال ، حتى إن مالك بن أنس كان يسميها (دار الضرب) يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تضرب الدرهم والدنانير وتصنع ، وفي ذلك يقول أبو الطيب النوب : « والشعر الكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره معصوم ومنسوب إلى من لم يلقه ، وذلك بين في دواوينهم »^(٢) .

ولقد ندد البصريون بالكوفيون ، وباطم الكوفيون عس التعديد . فكان كل منهما يشكك في الآخر ، فبينما يتفخر البصريون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيون في هذا الميدان شيئاً وأن الأمر بالكس ، يدعي الكوفيون أن الأصمعي وأبا عبيدة (وهما من أبرز البصريين الرواة) لا يحسدان قليلاً ولا كثيراً^(٣) .

ومع هذه الاهتمامات والادوات القيادة بين البصريين والكوفيون فإن الواضح

(١) ابن سلام ص ٢٢ وراجع الشعر الجاهل ص . شوق ضيف ص ١٤٠ - ١٤٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

(٢) مراتب التعريف ص ٧٤ وراجع الشعر الجاهل وشوق ضيف ص ١٤٩ .

(٣) راجع مصادر الشعر الجاهل ص . ناصر الدين الأسد ١٢٩ - ١٣٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .

أن رواية البصرة في جعلها أوتق من رواية الكوفة ، وليس معنى ذلك إن رواية الكوفة في الجملة كانوا متبين بخلاف رواية البصرة بين الطرفين فيما متهمون ، وموتهم أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى . وربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس روايتها - وهو أبو عمرو بن العلاء - كان أميناً ، بينما أتت رأس رواية الكوفة - حساداً - بكترة الوضع ، فهو لا يوتق به فيما يرويه^(١) .

ولم يترك علماء الرواية البدان غالباً من جهودهم ، فقد ظفروا بميزون بين الأصل الناقص والتمثيل ، وهذا هو (الفصل الضمني) يدل بدوره في مجال الرواية ، ويرى ابن الأعرابي الكوفي عن التمثيل أنه قال : « قد سلبت على الشعر من حماد الرواية ما أتتده فلا يصلح أبداً ، فقبل له : وكيف ذلك ؟ أيعطى في روايته أم يلحن ؟ فقال : ليه كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنك رجل عالم بلسان العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعاتبهم ، فلا يزال يتول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتشغل أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم نافع وأمين ذلك ؟ »^(٢) .

وإذا كان الفصل قد تصدى لأمثال حماد الرواية الكوفي ، فإن الأسمى قد تصدى كذلك لأمثال خلف الأحمر البصري وسدد إليه سهام الاتهام ، وأنه « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً وعلى غيرهم عبتاً بهم فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة »^(٣) . وبهذا يبرز دور الطاء مع الرواة بين التوثيق والتجريح . . .

(١) راجع النصار الجاهل من ١٠٤٢ .

(٢) الأغانى ٨٦٦ ومجم الأدباء ١٠ - ٢٦٥ ، النصار الجاهل من ١٠٤٢ .

(٣) مراتب الثعوبين من ٤٧ .

تدوين الشعر الجاهلي :

ثبت أن العرب لم يدونوا شعرهم في الجاهلية وإنما كانوا ينشدونه إنشاداً « اعتياداً منهم على سرعة البديهة وقوة الذاكرة ، وفي ذلك يقول الجاحظ : « وكل من في العرب ما ناعا هو بديهة والتجوال وكأنه إلقاء فما هو إلا أن ينصرف (العري) وهم إلى جملة الذهب ، وإلى المود التي إليه يتصد . نتأنيه للماني أرسالا (اتواجياً) ، وتتال عليه الألفاظ انقبالا ، ثم لا يقبده على نفسه »^(١) .

وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام، حتى عصرت الأمصار وراجمت العرب الأشتار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، وتبييد بعض الأخبار التاريخية ، وقد يكون في تدوين الحديث ما يرشد عن تدوين الشعر فلقد كان كثير من الصحابة والتابعين يسكرون فكرة التدوين ، ومن هنا يمكن القول بأن التدوين لم يكن عاماً إلا على رأس المائة ، وأن اهتمام القبائل بشعرها الجاهلي وشعرائها الذين يمدون مقاطع عمرها ونقرها لنا يسجلون من مناقبها وأمجادها ومطالب خصومها ، كل ذلك كان من أمم الدواهي لتدوين هذا الشعر وإنه لم يدون إلا في حقبة متأخرة من عصر بني أمية^(٢) ثم يبلغ ذروته في عصر بني العباس .

أمم المجموعات التي دون فيها الشعر الجاهلي :

كانت الدونات الشعرية الأولى قد وصلت إلى علماء الطبقة الأولى من الرواة ، فاعتدوها مصدراً من مصادر تدوينهم ثم تناولت هذه الدونات مستغيات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل .

ومن أول هذه المجموعات التي تمد من أمم مصادر الشعر الجاهلي : اللغات ، ويقال إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها : حماد الراوية، وقد هي الشراح

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٨ - العصر الجاهلي ص ١٠٨ .

(٢) راجع العصر الجاهلي ١٠٦ .

بهذه المجموعة ففرحوها مراراً، وطبع من مبروحيهم شرح الأوزني الفوق سنة ٤٨٦هـ ثم شرح التبريزي الفوق سنة ٥٠٢هـ . وغيرها من الشرايح وكان حاد الزاوية فقد اختار لهذا الديوان سبع قصائد من عيون الشعر وسماها بالدموط أو الملفات دلالة على غنايتها وبقاؤها جوهرها ، وهذه القصائد هي مغلطات امرئ القيس وزهير وطرفة وليد ومهرو بن كلثوم ، وهذه هي القصائد التي تقع على أيها من اللغات ، والسادسة والسابعة : قصيدتا عذرة والحارث بن حازم ، وقد وضع المفضل مكانهما قصيدة الثانية التي مغلطها :

عوجوا غيورا نتم دمة الدار ماذا نجون من نوى وأحجار
وقصيدة الأعتى التي أولها :

ما بسكاه السكير بالأخلال وسؤال وما ترد سؤال

وشراء هذه المغلطات ثم أشعر شعراء الجاهلية ما عدا الحارث بن حازم وبطل بن السيب في ضم قصيدته إلى هذه المجموعة عصبية حاد لقبيلته بكر بن وائل ، وكانت هذه القبيلة في عدا دائم مع قبيلة تلب ، وقد ظهرت قصيدة مهرو بن كلثوم فمهرة واسعة تجيدها قبيلة تلب ، ولانتشار هذه القصيدة بين الناس وفي المحفصات والأندية لم يسع حاداً أن يبدل عن اختيارها ، ومن هنا وجد نفسه منظرًا لاختيار قصيدة أخرى إلى جانبها تشيد بمجده سادته وهم قبيلة بكر بن وائل ، وهكذا اختار قصيدة سليل هذه القبيلة وشاعرها وهو الحارث بن حازم الليل الشهيرة فيما عدا ذلك^(١).

وهناك من يميل هذه المختارات تسماً ، بإضافة القصيدتين اللتين اختارهما للمفضل إلى السبع التي اختارها حاد، وهناك من يميلها عشراً بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص التي أولها :

أقتر من أهله ملحوب قالعليات قالعنسوب

(١) تاريخ الأدب العربي . كرون بروكان ج ١ ص ٦٨ ، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام للدكتور عبد الحميد السلتوت ص ٢٠٦ .

والجموعة الثانية من هذه التفضيات هي التفضيات ، نسبة إلى جامعها : الضمير الضمي . ولدى الكوفة الثالثة ، وهي موزعة على سبع وستين شاعراً منهم سبع وأربعون جاهلياً وعلى رأسهم : الرشيد الأكبر والأسنن ، وعائقة بن حبيدة ، والشنفرى ، وتأبط سرناً ، والحارث بن حازم ، وبشر بن أبي حازم وغيرهم .

والجموعة الثالثة : الأسميات ، نسبة إلى الأسمى راويها ، وقد نشرها (الوارد) عن نسخة سقيمة في برلين سنة ١٩٠٣ م وأعاد نشرها عبد السلام هارون وأحمد شاذلي عن نسخة للشمس نقلها عن أصل قديم ، وهي نثرية طيبة جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنين وتسعين ، موزعة على واحد وسبعين شاعراً ، منهم نحو أربعين جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس .

وهذه المجموعة كسابقتها (التفضيات) في اللغة بها وعلو درجتها ، غير أنها لم تحظ بتعلق الشعراء بها كالتفضيات ، لأنها كانت أقل اشتمالاً على العرب ، ولأن الأسمى عمد فيها إلى اختصار الرواية^(١) .

والجموعة الرابعة : جملة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرظي ، ولا يوجد اسمه بين الرواة المشهورين ، وهذه الجملة تضم تسماً وأربعين قصيدة طويلة ، موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم منها سبع قصائد . والقسم الأول منها خاص بالملفات .

وإذا زكنا هذه المقارنات إلى الدواوين الفردية ، وجدنا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والخابنة وزهير وطرفة وهنترية وعائقة ، وقد نشرها (الوارد) إلا أنه لم يكف برواية الأسمى التي احتفظ بها في شرح (الشنفرى) بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منقولات .

ومن الكتب الجيدة التي تشتدل على شعر جاهل كثير . . شرح النفاض لأبي حبيدة ، فقد أشهد فيه كثيراً من الشعر الذي قيل في أيام العرب ، وهذا حصوه من كتبها في أيام العرب مثل ابن الأثير في كملته ، وابن عبد ربه في هدهد .

(١) الشعر الجاهل د . شوقي خليف ص ١٧٦ ، الأدب العربي د . عبد الحميد الدواوين ص ٢٠٢

ومن الكتب الجيدة كذلك: طبقات الشعراء لابن سلام، وكتاب الشعر والشعراء لابن تقيّة .
وهناك كتب ألفت في البصرة مثل: البيان والتبيين لجاحظ ، والسكامل لغيره والأدب لأبي علي الفراء والأخير فيه انتحال كثير .
ومن الفهرات التي تفيد في الترجمة : كتاب الأوتان والمختلف للآمدي ، ومعجم الشعراء للفرزاني ، وكذا كتابه الوشح في تأخذ العلماء على الشعراء .
وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة ، والمصنعين للمسكوي، والوساطة بين النبي وخصومه للجرجاني، والعمدة لابن رشيقي ، والأدب لأبي الفرج الأصبهاني للتوفيق سنة ٣٥٦ هـ ويبدأ من أم هذه الترجمة .
ومن الكتب الأخرى التي احتفظت ببعض ما فقدت من الروايات القديمة خزائن الأدب لبندادي التوفيق سنة ١٠٩٣ هـ وهو شرح على شواهد الرشي شارح كتاب الكافية لابن الحاجب وثمة تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة ، ومثل هذا الاتجاه في شرح البيهقي على شواهد النبي لابن هشام^(١) .

(١) تراجم في هذا البحث : مصادر الشعر الجاهلي د . ناصر الدين الأسد ص ٥٢٣ وما بعدها ، المصدر الجاهلي د . هوق فيف ص ١٨٢ ، تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكمان ج ١ ص ٦٧ - ٨٦ .

نظرية الانتحال في الشعر الجاهل

- ١ -

كتاب في الشعر الجاهل المذكور له :

في عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م كان الدكتور طه حسين - رحمه الله - عضواً في هيئة التدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية - جامعة فؤاد الأول - ثم جامعة القاهرة نياً بعد - وكان يقوم بتدريس مادة « تاريخ الأدب العربي » .
وفي العام نفسه أصدر كتابه المشهور « في الشعر الجاهل » ، الذي طبع في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة في ١٨٣ صفحة .

وأثار الكتاب شجة أدبية وسياسية كبيرة كان لها أثرها السخيم في الحياة الأدبية والفكرية ؛ ومن غير شك كان الكتاب أساساً للدراسات الأدبية الحديثة . بل إننا نعدّه بدء مرحلة جديدة في دراسة الأدب العربي . واند عزز الكتاب النهج الحديث الاستشراق في دراسة الأدب ونقده ، وفتح الباب على مصراعيه لتأثير كبير في مجال الدراسات الأدبية بالنهج الجديدة ؛ وقد صدر في نقد الكتاب كتب كثيرة ، كان في مقدمتها :

- ١ - النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهل للأستاذ محمد أحمد النمرلوي .
- ٢ - الشباب الزامد للأستاذ محمد لطفي جمعة - صدر عام ١٩٢٦ .
- ٣ - نقض كتاب « في الشعر الجاهل » للشيخ محمد الحضر حميد شيخ الأزهر نياً بعد - وقد صدر عام ١٣٤٥هـ عن المطبعة السلفية في القاهرة .
- ٤ - محاضرات في بيان الأخطاء التي اشتمل عليها كتاب « في الشعر الجاهل » للشيخ محمد الحضرى - نشرت في مجلة القضاء الشرعي .
- ٥ - نقد كتاب « الشعر الجاهل » ل محمد فريد وجدي - طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر - في أكتوبر ١٩٢٦ .

٦ - نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد هرفة .

٧ - الشعر الجاهلي والارد عليه محمد حسين .

٨ - مع زعيم الأدب العربي في القرن العشرين ، للشيخ عبد التعال العميدي .

٩ - نظرية الاتصال في الشعر الجاهلي - للدكتور عبد الحميد السليوت .

وعرض النظرية الدكتور طه حسين في اتصال الشعر الجاهلي كثيرون من دارسي

الأدب الجاهلي - وفي مقدمتهم الدكتورة: محمد عبدالنعم بنفاجي في كتابه «الحياة الأدبية

في العصر الجاهلي»^(١) ، ناصر الدين الأسد في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» ،

وشوق شيف في كتابه «تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي» - كما عرض لها

كتاب كثيرون نشرها بمجموعهم في مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية .

ولاشك أن هذه الوجوه الضخمة من الكتب التي صدرت في دراسة للكتاب

والصليق عليه ونقده ، كانت اعترافاً بأهمية الكتاب وأثره ومدى ما أثاره من قضايا

أدبية تاريخية .

وقد سورد كتاب «في الشعر الجاهلي» وطبع من جديد بعنوان «الأدب

الجاهلي» بعد حذف فقرات منه كانت هي السبب الجوهري في مصادره : وهذه

الفقرات كانت عن قصة إبراهيم وإسماعيل ، حيث ذهب الدكتور طه إلى أنها «قصة

مشككة ومصنوعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية

ورأى أن ورودها في الكتب الدينية لا يكفي لإثبات صحتها التاريخية»^(٢) . وكانت

هذه الفقرات بمثابة التحدي ، بل كانت بموازنة جريئة في ميدان البحث العلمي

أيضاً . . . وقد سبق أن جهر بعض المستشرقين بهذا الرأي من قبل ، وذلك من مثل

«التس زويمر» الذي ترجم إلى العربية كتاب «مقالة في الإسلام» لمؤلفه جرجيس

مسال الأنسكاري ، وألحق به فيلادروف في (في ص ١٠ - ٢٥) القول بأن قصة

(١) ص ٣٨٩ - ٤٠٤ الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ١٩٤٨ .

(٢) ص ٢٥ - ٢٩ في الشعر الجاهلي .

إسماعيل وسكناه مكة دسيسة لثفها قديما اليهود العرب ، ثزلنا إليهم ، وثزلناهم بهم إلى دنع الروم عن بيت القدس أو إلى تأسيس مملكة لهم في بلاد العرب . ولما ظهر الرسول محمد رأى السلحة في إقرارها تأثرها^(١) . . هكذا قال زوير وهو مبشر معروف في الأوساط التبشيرية .

إن كتاب الأدب الجاهل يمثل كل آراء ونظريات الدكتور له في الشعر الجاهلي ، ويعتبر على نظرية الاتصال التي ذهب إليها ؛ وعرضها بتفصيل ، مبتدأ أدتها ونتائجها التطبيقية ، حيث أفاض الدكتور في شرح ذلك كله إفاضة واسعة .

شرح الدكتور له لنظريته في الاتصال :

يرى الدكتور له حين أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في هي . إنما هي متعلقة بعد ظهور الإسلام ، فهي تمثل حياة السلفين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ؛ وما بق من الأدب الجاهل الصحيح قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على هي . . والمصر الجاهل القريب من الإسلام إنما يمثل القرآن ، وتنته الأساطير^(٢) ؛ وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر للحول في تفسير القرآن ، بل يجب العكس^(٣) . . والشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة نامضة جافة بعيدة عن الدين ، والقرآن يمثل لنا حياة دليية وعقلية قوية ، مما كان عليه المستشرقون من العرب ؛ ويمثل لنا القرآن الكريم أيضاً اتصال العرب بنبرم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية ، من حيث يمثل الشعر الجاهل من ذلك كله^(٤) . والأدب الجاهل أيضاً لا يمثل اللغة الجاهلية لا اختلاف اللغة الجهرية عن اللغة المدنية جد الاختلاف ، والأثور من شعر الشعراء الفصحاء مروي باللغة

(١) النص من كتاب مع زعيم الأدب العربي ص ٢٥ - ٤٨ .

(٢) ٦٤ و ٦٥ و ٢٠ الأدب الجاهل . - (٣) ٦٦ الرجع عنه .

(٤) ٢٠ - ٤١ الأدب الجاهل .

الدنانية ، مع أنهم لم يكونوا يشكمون بها، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام، كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتقال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء الصحابيين^(١) . كما أن اختلاف اللهجات الدنانية أمر ثابت لا شك فيه ، ولا نجد أثرًا لهذا الاختلاف في الشعر الجاهلي للأثور ، مما يدل على انتقال هذا الشعر ؛ وأنه قد حل حلالاً على هذه القبائل بعد الإسلام^(٢) .

ثم يجعل الدكتور طه حسين في كتابه أسباب انتقال الشعر الجاهلي ، فيذكر البوارج النبلية والسياسية ، وأثر القصاص والشعبية والرواة في هذا الانتقال^(٣) . ثم يستعرض الشعراء ، مؤكداً ما ذهب إليهم أن أكثر ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين منحول ، وانما الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لبين لغة تختلف لغة قريش ، ويقول: إن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولاً ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانياً ، فالشعر الذي يضاف إلى « جرم » وسواهم من الذين هاجروا إجماعاً منقول ، وليس لبين في الجاهلية شعراء . أما ربيعة وهي من عدنان ، وتساكن في الشمال ، ف شعرها دون شعر القرينيين ، وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فناً ، فالشعر أصل في مضر دون اليمن أو ربيعة ، فنظرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان في مضر ، ثم انتقل إلى الغرب القبائل العربية إليها ، وهم ربيعة ، ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ، ثم إلى النوازل وليس كما يقول علماء العربية من أن الشعر كان في اليمن ، ثم انتقل إلى ربيعة ، ثم إلى قيس من مضر، ثم إلى تميم ، وشعراء المدينة ليسوا بيمين ، بل هم مشريون^(٤) .

إن جلة آراء الدكتور طه حسين ترسكز على أساس واحد ، هو انتقال الشعر الجاهلي ، وتأكد هذا الانتقال بأدلة كثيرة ، أهمها :

- (١) ٨١ - ٩٥ للرجيم نفسه . (٢) ٩٦ وما بعدها المرجع نفسه .
- (٣) ١٢٢ - ١٨٦ الأدب الجاهلي .
- (٤) راجع ١٩٢ - ٢٠٨ الأدب الجاهلي للدكتور طه .

١ - أن هذا الشعر النسوب إلى الجاهليين لا يمثل الحياة الجاهلية .

٢ - وأنه لا يمثل اللغة نفسها .

٣ - كما أنه لا يمثل الهجيات العربية .

هذه هي نظرية الدكتور طه في انتحال الشعر الجاهلي كاملة ؛ وهي نظرية كان لها دورها الشديد ، وكان لها كذلك طابع الثورة العقلية ، التي استند أسسها الدكتور من دراسته في فرنسا ، وعلى أيدي الكثير من المستشرقين ، وقد اعتمدت على ما تستند عليه مثل هذه الثورة من أدلة خطافية كثيرة لا تستند إلى أساس على صحيح .

- ٣ -

نظرية الانتحال قبل الدكتور طه :

وبلا ريب فإن لهذه النظرية مقدمات ملوية كانت هي مصادر الدكتور طه فيما ذهب إليه حولها :

١ - فالنمط الشبي (١٨٩ هـ) كما يروي أبو الفرج في كتاب الأغانى يذكر عن جاد أنه « رجل عالم بلبات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومناجيبهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فضلت أشعار القدماء ، ولا يميز الصحيح منها إلا عند عالم ناهد ، وأين ذلك؟ »^(١) ويروي أبو الفرج أن جادا (١٥٥ هـ) اعترف في مجلس الخليفة المهدي العباسي بأنه زاد في شعر زهير ، وأن خلفا الأهر (١٨١ هـ) وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجودا في الجاهلية وكذبوا على الشعراء^(٢) .

(١) الأغانى لأبي الفرج ١٢٢/٥ - طبعة السامى .

(٢) الترجع السابق أيضا - وقد سبق إلى ذكر ذلك محمد لعل جنة في « الضباب المرشد » ص ٢٥ و ٢٦ - ويذكر ذلك د . السلون في كتابه « نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي » أيضا ص ٢١ و ١٩٣ و ١٩٤ ويذكر رواية أن جادا جلس في مجلس الخليفة المهدي ، لأن هذا الخليفة لم يجلس على عرش الخلافة إلا عام ١٥٨ هـ ، بينما توفي جاد عام ١٥٥ هـ في رواية ابن خلكان ، أو عام ١٥٦ هـ في رواية ابن التيم في « التهرست » وقد ذكر ذلك تنالا عن القصر حين في كتابه « عصر كتاب في الشعر الجاهلي » ص ٢٧١ .

٢ - ويد محمد بن سلام المجلسي العمري (١٢٣١ هـ) من فداي الذين عرضوا الشعر الجاهل واتصاله في كتابه «طبقات الشعراء» ، فقال^(١) : «وقد نشر السموغ مفصل موضوع كثير ، لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا أدب يستناد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يفرح ، ولا مدح رائع ، ولا هاء مقلد ، ولا نثر معجب ، ولا نسيب مستطرف . وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يرضوه على اللهاة» . ويذكر ابن سلام أن ما حمل على طرفة وعبيد بن الأبرص من الشعر كثير^(٢) . ويرجع سبب الاعتقال إلى : نغمة اللهاة أو جهلهم بوضع الشعر واتصاله ، أو اختلاط الأمر على بعض الرواة ، أو محاولة بعض القبائل إلى التزييد من الشعر الذي قيل فيما تروم ، أو كذب الرواة وتلقينهم رغبة في الجوائز؛ على أن أبا عبيدة (١٠٨ هـ) ، والفضل (١٨٩ هـ) ، والأصمعي (٢١٦ هـ) كانوا من ذوي العناية والتدقيق والضبط ، وكان حماد (١٥٥ هـ) من موالى بكر ، ولم يعمه ذلك من رواية معلقة عمرو بن كلثوم في مناقب قبيلة تلب ، وكان نعل بن تلب ويكرا كانا في الجاهلية من أشد الأعداء لبعضها البعض .

ثبت محمد بن سلام إذاً الاعتقال ، ويرجه إلى أسباب معقولة ، ولا يسرف في أمره هكذا الاعتقال ، فيجمله في مواضع خاصة لا يتبادها ، ومناسبات معينة لا يتجاوزها .

٣ - وابن هشام (٢١٨ هـ) صاحب السيرة يذكر الكثير من النحول على حسان وغيره من شعراء الرسول والسيرة .

٤ - وكذلك يذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغانى» الكثير من النحول على الشعراء القدماء والحديثين .

(١) ص ٦ من مقدمة كتاب «طبقات الشعراء» وصحيف الأستاذ عمود شاكر .
(٢) ص ٢٢ الرجح نفسه .

- ٥ - وعرض مصطفي صادق الزاوي في كتابه « تاريخ آداب العرب » للطبوع عام ١٩١١ للاتصال في الشعر الجاهل وأسبابه عرضاً تفصيلياً^(١).
- ٦ - وكذلك عرض الدكتور أحمد شيف في كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » لأسول نظرية الاتصال في الشعر الجاهل وأسبابه ، مستدلاً بكلام ابن سلام ، وسائر في شوته^(٢).
- ٧ - وعن آثار البحث فيها من المستشرقين : « نولدكه » ، « ورييه بشيه » مدير كلية الآداب بجامعة الجزائر سابقاً ، في رسالة له عنوانها « الشعر العربي الجاهل » طبع باريس عام ١٨٨٠ ؛ وكذلك « نيكسون » في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية »^(٣).
- ٨ - وذهب « مرجليوث » إلى أن الشعر الجاهل منحول كله بعد الإسلام، وأضيف إلى أسماء جاهلية^(٤) ، ويقول : إن في لغة القرآن مشابه كثيرة من لغة الشعر الجاهل^(٥) . كما يرى أن الشعر الجاهل في منطته مصنوع ، وضع على مثال القرآن^(٦) . وقد أكد ذلك في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩١٦^(٧) . وقد تصدى لرد عليه السير « تشارلس جيمس ليال » في مقدمة ترجمة « الفضائيات للإمام الفضل القمي - ١٨٩ هـ » المطبوعة عام ١٩١٨ ثم عاد مرجليوث وكتب في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٢٥ مقالاً ذكر فيه أدلته على اتصال الشعر الجاهل^(٨) .

(١) ٣٦٥ - ٣٨٥ تاريخ كتاب العرب لرافض .

(٢) ٥٠ - ٦٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لشيف - ط ١٩٢١ بالقاهرة .

(٣) ص ١١٣ و ١٢٨ و ١٣١ - ١٣٥ طيبة عام ١٩١٤ .

(٤) مادة محمد من دائرة معارف الأديان والفتاوى .

(٥) كتاب محمد و ظهور الإسلام لمرجليوث ، الطبوع عام ١٩٠٥ .

(٦) رابع ص ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهل .

(٧) ص ٣٩٧ - رابع ص ١٧ من كتاب نفس كتاب في الشعر الجاهل الشيخ المفسر حين .

(٨) ص ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهل ، ١٢ نفس كتاب « في الشعر الجاهل » لفضتر حين .

٧٥ نظرية الاتصال في الشعر الجاهل للملوث .

هذه هي جملة الآراء التي غابت عن احتمال الشعر الجاهل قبل أن يصدر الدكتور
طه حسين كتابه « في الشعر الجاهل » ، ويتبنى هذه النظرية ويتصلها ، ويتوسع
في ذكر أدلتها في كتابه «الأدب الجاهل» .

أم أدلة الدكتور طه على نظريته:

أولاً : لا يمثل الشعر الجاهل حياة الجاهلين الدينية ، ولا العقابية ، ولا يصور
لنا ما كان بينهم وبين غيرهم من الأمم المتحاربة لهم من سولات سياسية ولا يصور لنا
حياة العرب الاقتصادية^(١) .

وقد يكون رأى نولفة المستشرق المروف متالفاً كل المتفصلة لرأى الدكتور
طه ، حيث ذهب إلى أن السبع الطوال أو السقات غالبية بالتأكيد من التزييف
أو التزوير فلا يشك في صحتها .

ويؤكد ريبان^(٢) صحة الشعر الجاهل وثبوت صدقه بلا قيد ولا حصر ، فإن السقات
و ديوان الحامسة وكتاب الأتاني وديوان الهذليين قد قبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة
في صناعتها وبنائها لبيت محمد ، أي أن العلماء أقروا صحتها شكلاً وموضوعاً ، وأقروا
أحداؤها إتياناً من العهد التقدم على الإسلام ، أما نيا يتناق بالماني فلا يجوز الشك
فيها لأن هذه الأشار تمثل لنا الحياة الجاهلية ، كما تمثلها مرآة كاملة ، وهذه القصائد
تتعلق بشخصيات وحوادث حقيقية . ولا يوجد ما يبيح لنا أن نعرض - كما افترض
شولتزر - أن السهين قد أبدوا الأدب الجاهل بسبب عدائهم للوثنية ، فإن انتراسنا
كهذا يتناق مع النتيجة الثانية ، التي تدل على أن الكتابة لم يشع استعمالها عند العرب
إلا قبل عهد بقرن واحد تقريباً ، ويجب علينا أن نمنح درجة أعلى من التصديق والصحة

(١) ٧٠ - ٨١ الأدب الجاهل لطله حسين .

(٢) ٣٥٤ و ٣٥٥ تاريخ الفلث السابعة لربان نلان نلا من ٣٠٢ من كتاب « الصحاب
الرامد » .

للقطوعات الشعرية المنيرة للنبجة في كتب التاريخ والشعر الجاهل ، فإن هذا هو في الحق أقدم أنواع الشعر العربي . . ثم يقول ديبان أيضا : وفي الحق نتقد أن الرب لم ينفروا في الشعر الجاهل شيئا عن قصده ، وأن الاختلافات التي وجدت هي من النوع الذي لا يمكن اتناؤه في حالة تداول النصوص بين أنواع الحافظين لها ، دون موضة التقييد بالكتابة^(١).

وقال نيكسون في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص ١٣١ : كان^(٢) الشعر الجاهل عمودا بالقرآن الشعري ، وتساؤل عن سر إمكان ذلك واجب عن هذا التساؤل في قوة وتأكد أصحة هذا الشعر .

والحياة الجاهلية في كل صورها وأثرها لا يمكن أن نجد وثيقة كبيرة تدل عليها إلا الشعر الجاهل .

يقول « نين » في مقدمة كتابه « تاريخ فنون الأدب عند الإنجليز » : إن آداب صورة كلمة صحيحة من الأشخاص والزمن الذي يمشون فيه^(٣) . ويقول نيكسون أستاذ آداب اللغة العربية في جامعة أكسفورد سابقا ومؤلف كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » - ص ١١ - من مقدمة الكتاب الطبع عام ١٩٩٤ : (إن الشعر الجاهل مرآة الحقيقة العربية) ، ويقول أيضا في ص ٢٦ : (إن مزاج العصر الجاهل مرسومة صورها بأمانة ووضوح في الأثافي والأناشيد التي نظمها الشعراء الجاهليون) - ويقول كذلك في صفحة ٢٧ : (إن الأدب الجاهل المنظوم منه والنثر يكتمل من تصور حياة تلك الأيام - الجاهلية - تصويرا أقرب ما يكون من الدقة في مظاهره الكبرى) .

ويقول ثور بيك Thorbecke المسافرقي الأثافي في كتابه « عشرة أحد شعراء الجاهلية »^(٤) : « لا نملك مصادر موثوقة منها لتدوين تاريخ تلك التارات البدوية

(١) ٣٦٢ الترجع السابق - (٢) هذا النص منقول عن كتاب الصحاب الراسد ص ٣٠٤

(٣) ص ٣٩ الصحاب الراسد - محمد لعل جمة .

(٤) راجع ص ١٤ من الكتاب .

سرى التصانيد والتطورات المعنوية عن شمر الجاهلية . وقال أيضاً في كتابه ص ٧٩ :
« يمكن تعريف الشمر الجاهل بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأتباعها .
ويقول نوفل في المستشرق المولدي في كتابه الشمر العربي القديم - الجاهل -
ص ١٧٧^(١) : إن عادات العرب الجاهلين وأحوالهم مطومة لنا بدقة من أشعارهم ، وفي
الشمر الجاهل ما يقف الناري من أوصاف الحياة والمخاضات في البادية .

إن الشمر الجاهل قد ابتاع وثيقة خطيرة تصور حياة الجاهلين والزمان ميسمتهم ،
وتصنف البيئة الجاهلية بما فيها من حيوان ونبات وأرض وجبال وأشجار ووديان
وقرى وسما دليلاً ؛ وتنبئ تمييزاً واضحاً عن الأمطار والرياح والجم ، وهي سجل
لتاريخ الجاهلين وأيامهم وأخبارهم . يقول محمد لعلي جمة في كتابه « الشباب
الرامد »^(٢) : « يدل الشمر الجاهل على عرس ناخديه وحياتهم ، بل إنه أسدق
مثال لحياة العرب أنفسهم » .

الشمر العربي الذي يمثل الحياة الأدبية عند الجاهلين كثير وميثوث في مختلف
المصادر القديمة . ويرى جورج زيدان أن منظومات العرب الجاهلين في الفصحى
الدينية قد ساعدت في أثناء الأجيال لدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالجماعة والفرح ،
فما جاء الإسلام أغصن الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يحرم ما قبله .

وفي الشمر الجاهل دلالات واضحة كثيرة على اتصال العرب بنسبهم من
الأمم ، وعلى الوان الحياة الاقتصادية التي كانت تظلمهم ، ولكن هذا الشمر مفروق في
مختلف المصادر ، وليس مجموعاً في كتاب واحد .

تالياً : ما ذكره الدكتور طه من نفي وجود شمر بنيين ، ومن حكمه لا ذهب
إليه الباحثون القدماء حول نظرية تنقل الشعر في القبائل . . وهو إنما يعتمد في ذلك
على أدلة هي تصورات لا ترتفع إلى درجة الحقيقة .

(١) طبع عام ١٨٦٤ في طابور - فلامن ص ٤٠ من كتاب الشباب الرامد لمحمد
علي جمة . (٢) ٤١ (٢) الشباب الرامد .

ثالثاً : الشمر الجاهل واللثة :

يستعمل الدكتور مله على استعمال الشمر الجاهل بأنه لا يتصل اللثة العربية .
فالدكتور يرفض الشمر النسوب إلى شعراء من اليمن لأن اليمن لثة تحالف لثة فريش ،
ويشك في هجرة اليمنيين إلى الشمال ، وليس من المنقول عنده أن يكون كل الشعراء قد
هاجروا من اليمن ، ويقول : إنه ليس لليمن في الجاهلية شعراء ، وكل ما يضاف إلى
« جرم » وسوام منحول . إن الأثور من شعر الشعراء النبطيين مروى باللثة
المدنانية المصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتغنوها لثة أدبية لهم قبل
الإسلام ، مما يدل - في رأي الدكتور - على استعمال هذا الشعر على النبطيين .

ولا نسلم مع وجود فوارق بين الجبزية والمدنانية أنهما لثتان متشبهتان ، بل
لا يزيد الخلاف بينهما على أنه اختلاف لهجات ، والواريق الكبيرة التي يسمها بعض
العلماء بين الجبزية والمدنانية يمكن جعلها على أنها صورة لحياة قديمة جدا قبل حمل
عوامل التهذيب النوى في الجزيرة العربية . ولو سلطنا بهذه الفوارق الكبيرة بين
اللتين النبطانية والمدنانية ، فإنه لا يترتب على ذلك وجوب تمييز النبطانية في
شعر الشعراء النبطيين الروى شعرهم ، لأن النبطيين فريشان : سبثيون ، وحيريون ،
قالبسيون^(١) نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل الغرم ، كما تؤكد
ذلك جميع الوثائق التاريخية ، ومصادر كتب اللغة والأدب ؛ ومنهم اللخميون
للناذرة ملوك الحيرة ، والنساسة ملوك الشام ، والأوس والخزرج سكان المدينة ،
وسوام . أما « حير »^(٢) فهي التي كانت بأرضها في عقار وسنداء وما جاورها ،
وهي التي قال فيها أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) : ما لسان « حير » وألمى اليمن
بلسانها ، ولا عريتهم بهريقا .

لقد قربت عوامل التهذيب النوى المتعددة بين لثات الجنوب والشمال ، وجعلت
هجرة السبثيين إلى الشمال اللثة المدنانية لثة لهم ، وسكان الجنوب على أية حال إنما

(١) دولة البجيلة باسمها بأرب (٩٥٠ - ١١٥ ق م) .
(٢) دولة الجبزية (١١٥ ق م - ٢٢٥ م) واسمها ظفار .

يرجع أكثرهم إلى هرات شمالية ، فقد ثبت لباحثين من أمثال مول ، وجلاز أن
السيديين^(١) أسلمهم من مخالفة العراق بدو الآراميين الذين كانوا في أهل جزيرة العرب
قبل الإسلام وقبل ظهور حورابن بجملة فرون ، والدولة الجيرية حكمت ستة فرون
ونصف قرن (١١٥ ق م - ٥٢٥ م) وعدد ملوكها ثلاثون ملكاً ، وقد فتح
الأحباش أمين في عهد الملك الجيري ذي نواس (٥١٥ - ٥٢٥ م) وقد قام الأمير
الجيري سيف بن ذي يزن بتحرير أمين بمساعدة الفرس .

أما دولة سبأ نعي التي كانت قبل الدولة الجيرية وقد عاشت ثروتاً طويلاً قبل
اليلاد حتى أواخر القرن الثاني قبل اليلاد أيضاً ، وقد اثبتت حضارة هذه الدولة
وسياستها بعمل علميين كبيرين :

الأول - انتقال التجارة إلى الطريق البحري وانتطاع مرورها بيباً .

والثاني - « سيل الرم » الذي حطم « سد مأرب » فأغرق البلاد ، وهاجر
أهلها منها ، وتفرقوا في أرجاء الجزيرة العربية .

وقد كانت هناك عوامل عديدة قربت على أمة حال لثة السبئيين والجريين من
لثة المدنانيين ، واستمرت هذه العوامل تعمل عملها إلى ما قبل ظهور الإسلام ؟
وإلا فكيف كان ينهم ولاء رسول الله على أمين لثة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم لثة وفد اليمن الذي قدم الدعوة عام الوفود ليسلم بين يدي الرسول
صلوات الله عليه ؟

إن النحطانية والمدنانية في الأصل لثة واحدة ، والخلاف بينهما لا يرتفع عن
مستوى كونه خلافاً في الهجات .

وإنكار شعر شاعر مثل امرئ القيس - بحجة أنه يمني وأن لثته تنتمي لثة
المدنانية التي روي بها شعره - لا يخل لنا منطقاً تاريخياً برد على مانرف من الأصول
المدنانية لبائل اليمن ، ومن هجرة قبيلة كعدة إلى الشمال ونشأة امرئ القيس في
مواطن بني أسد المدنانيين ، وليس من المغول أن يكون ملكاً على الشماليين ويتكلم
(١) الدولة السبئية قبل هجرة البشة واماستها القرن (١٢٠٠ - ٦٥٠ ق م) .

بلغة غير لغتهم وهو بين أظهرهم . ويدول « سيدو » في كتابه للشهور « خلاصة تاريخ العرب » : كان بين الإسماعيلية - المدنانية - والتصحافية تخاص الممارسة التي تؤدي إلى اختلاف الكلمة ، ثم مالوا إلى الوحدة السياسية ؛ ورأوا الأضمار وسيلة لانتشار لغتهم ، وسيلا إلى وصول ما تزم وأعمالهم إلى أقدامم فأحبوها وكنموا عليها ، لكن كلام شعراء نجد والحجاز لم يفهمه شعراء اليمن ، بل لم تفق قبائل بك واحد على لغة واحدة .

رأيا : الشعر الجاهلي والمهجيات :

يؤكد الدكتور طه نظريته في اتصال الشعر الجاهلي بأن اختلاف اللهجات أمر ثابت لا شك فيه ، ونحن لا نجد آثرا لهذا الاختلاف في الشعر الجاهلي الأثور ، مما يدل على اتصال هذا الشعر ، وأنه قد حل حلا على هذه القبائل بعد الإسلام^(١) ، ويرى أن شعر الشعراء الذين ينسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التي كانوا يتكلمون بها .

ونحن نرد على ذلك بأن اختلاف اللهجة لا يؤثر على وزن الشعر وقافيته ، لأن اللهجة هي طريق أداء الكلام إلى السامع ويمثل ذلك في التفتيح والترقيق والإمالة وعدمها ، والجهر والهمس ، مما لا يؤثر في ذات الحرف ولا يستلزم المدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها ، والمجلة الواحدة تستطيع النطق بها عنقلقة الهبة مع بناء حروفها وكتابتها في كل سورة من سور النطق ، كما في تلاوة القرآن الكريم بالقرائن المتعددة . على أن التباين التناكر من اللهجات قد أزالته عوامل التهذيب التي المدينة في جزيرة العرب ، وسيادة لغة قريش ولهجتها قبل الإسلام ؛ وكان لسكاسة قريش ولتقلها بين القبائل والأمر ، ولشهورها مواسم الحج وأسواق العرب وكثيرا من حروبهم ؛ كان لسكاسة ذلك أثره في صفاء لهجة قريش ، وعدوية لغتها ، وتغيرها من لهجات ربيعة وغيرها ، مما جعل لهجتها أسود قبل الإسلام جميع لهجات القبائل ، وصارت القبائل المختلفة وشراؤها بما كوتها في بلاستها ونساحتها وسمو لهجتها ، (١) ص ٩٦ وما بعدها من كتاب الأدب الجاهلي .

وكانت سلات الصاعرة والمجاورة والاختلاط بين القبائل تنطلي على كل خلاف لتوى ،
وتنفض على كل فرقة لتوية بينها .

إن اختلاف لهجات القبائل العربية أمر محلم به ، ولكن هذه الاختلاف لا أثر له
إطلاقاً على الشعر ولا يخرج القبائل عن وسعها بأنها ذات لسان واحد ولنة واحدة .

- ٥ -

وبعد : فإن نظرية الدكتور طه حسين في انتحال الشعر الجاهل تمدُّ من أوجب
النظريات الأدبية الجديدة ومن أشدها تانرا ، ومن أقواها إثارة ، وأكثرها حواراً
وجدلاً .

وقد أحدثت أثرها في تطور الدراسات الأدبية والنقدية ، وفي التمهيد للمناهج
الجديدة ، في دراسة الأدب ونقده ، وفي قيام حركة حوار رائدة خصبة لم تشهد الحركة
الأدبية الحديثة والممارسة مثيلاً لها من قبل ولا من بعد .

ومهما قيل في نقد هذه النظرية وفي التعليق عليها فإنها بلا ريب تمدُّ حدثاً أدبياً
في تاريخنا الأدبي المعاصر ، وتمدُّ ظاهرة أدبية جديدة بالتسجيل والتفهم ، وتمتد علامة
على طريق البحث الأدبي والتجديد فيه .

وقد كان الدكتور طه محبباً في أسأله وتفكيره وجهه بين الآراء المتباينة ليؤلف منها
وحدة متكاملة . وكان في إثارة ، وفي جدله وحواره ، وفي نقده وتعليقه ، شيئاً تحريفاً .
وكان له من مسلكاته ومواقفه وثقافته ، ومن ذكائه وألنيته ، ومن ذوقه الأدبي
الريبع ، ما جعله يصد إلى القمة ، ويسمو إلى القروة ، ويمس على أعلى مكان في مسرح
الأدب ، حتى لقب بمسيد الأدب العربي ، وكان هو في النثر الأدبي والدراسة الأدبية
كشوق بين الشعراء ؛ كل منهما احتل منزلة المادة ، هذا في النثر ، فصار محبده ،
وذاك في الشعر نصار أميره .

وعلى الجملة فإن طه حسين ونظريته في انتحال الشعر الجاهل سيظلان موضع الإثارة
والاهتمام على مرور الأيام ، وتوالي العصور .

أسباب الالتحال في رأي الدكتور طه حسين

١ - العامل السياسي :

فالمسياسة قد خلقت خصومة حادة بين الأنصار وبين أهل مكة الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم وحاربوه وأخرجوه حتى اضطر إلى الهجرة منها إلى المدينة ، وهذه الخصومة هي التي أدت إلى التشنج والاختلاق بل هي التي دفعت إليه دفعا .

ويسوق الدكتور طه دليلا على ذلك قصيدة حسان بن ثابت في مدح الزبير ابن العوام وأسفه على شياخ إنصاف الأنصار وموالاة النبي فيهم ، فقد حدثت الزيادة أن الزبير بن العوام مر بنتر من للسفين فإذا فيهم حسان يشدحم ، وهم غير حائلين بما يقول ، فلامهم على ذلك ، وذكرهم موقع شمره من النبي صلى الله عليه وسلم ، وآثر ذلك في نفس حسان فقال بمدحه :

أقم على عهد النبي وحديه	حزابه والقول بالتمل يسدل
أقم على منهاجه وطريقه	يولك ولي الحق والحق أحسدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي	يسول إذا ما كان يوم محجل

إلى آخر ما قاله في مدحه . .

وقد روى هذه القصة نثر من آل الزبير ومن أحفاد عبد الله بن الزبير ، أئستفيد أن تكون عصية الزبيريين قد مدت هذه الأبيات وطولتها وتجاوزت بها ما كان قد أراد حسان الاعتراف بالجليل إلى ما كانت تريد العصية الزبيرية من تعجيل الزبير على منافسيه ، أو على منافس ابنه عبد الله^(١) .

كذلك يسوق الدكتور طه قصيدة النعمان بن بشير التي أشدها وهو متعصب بين يدي معاوية ، حين قال الأخطال في هجاء الأنصار :

ذهبت قريش بالسكرام والهدى واليوم تحت عمامم الأنصار

(١) في الأوب الجامل .

فدخل الثمان على معاوية وأشدّه التعصبة :

معاوي إلا تطلعا الحق تترف لى الأزد مشدود عليها العاهم
أبشمتنا عبد الأرازم ضلة فاذا الذى تجدى عليك الأرازم
فا لى نأر دوت قطع اسانه بدونك من ترشيه صك القرام
إلى أن يقول :

وإلى لأعفى عن أمور كثيرة سترقى بها يوما إليك السلام
أسانع فيها عبد شمس وإبنى لئلك الذى فى النفس من أكام
فا أنت والأمر الذى لست أهله ولكنك ولى الحق والأمر هاهم
إليك بصير الأمر بسند شتاته فمن لك بالأمر الذى هو لازم
يوم فرغ الله القدى فاعتدى بهم ومنهم له هساد إمام وخاتم

تظاهر جداً أن هذه الآيات الثلاثة الأخيرة على أقل تقدير قد حملت على الثمان ابن بشر حملاً ، ثم يخفى من ذلك إلى أن العصبة قد دعت كل قبيلة إلى أن تعود إلى جاهليتها لتأثر بتدعيمها وتنتشر مفاخره ، وتردد من أمجاده ، وكانت فى حاجة إلى الشعر تدعمه وفوداً لهذه العصبة المضطربة ، فاستكثر من الشعر ، وقالت منه القصائد الطوال ونحتها شراؤها الندماء^(١) .

٢ - العامل الدينى :

وكان لعامل الدين أثره القوي كذلك فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين - فيما يراه الدكتور طه حسين - إذ كان القصص ينجأون إليه لتفسير ما يجدونه مكتوباً فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام تقده وتحليله حين جد فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى نبح وجر موضوع متصل ، ومنه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب الفصص .

(١) فى الأدب الجاهل ١٢٠ - ١٢٢ وراجع : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام
قد كتور البلوت ص ٢٠٨ .

ومن ذلك أيضاً شعر الشواهد التي اخترعه الرواة حين عهد البارسون إلى دراسة القرآن لتروك وإثبات صحة الفاطمة ودلائلها على ممانته فقد حرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات من القرآن بشيء من شعر العرب بحيث أن هذه الكلمة عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها.

٣ - النص : فقد وجد الفن القصصي وازدهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي الزاخرة . أزهر أيام بني أمية وسدراً من أيام بني العباس ، حتى إذا كثرت التدوين وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس أن يلموا بالقرآن دون أن يتكفوا الانتقال إلى مجالس القصص ضف أمر هذا الفن وأخذ يفتد سفته الأدبية الزاخرة شيئاً فشيئاً ، حتى ابتدأ وانصرف عنه الناس^(١) .

كان قصص الملوك يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار فيكون لهم تقديم العرب والنجم وما يتصل بالبركات ، ويحسون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السير والغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا حيث يترجمهم البر والصدق إن بقوا ، وكان الناس كلهم يهولوا القصص مشغولين بما يقرون إليهم من حديث ، وما أسرع ما نطق الخفاء والأمرأة لتبنة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاستطعموها وسيطروا عليها واستقلوها استقلالاً شديداً ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر .

وكان هذا النص الذي سيطر على الحياة في العصر الأموي في أمس الحاجة إلى شعر يزيه من حين إلى حين ، ومن هنا عمد القصص إلى وضع الشعر لقرآن به قصصهم من ناحية وإسبغها الفراء والسامون من ناحية أخرى ، ومن ذلك أخبار المعريين الذين مدت لهم الحياة إلى أمد ٥٤ ألف الناس .

٤ - الشمسية : تم يتحدث الدكتور طه عن الخصومة بين العرب والوالي في

(١) في الأدب الجاهل رابع من ص ١٢٨ - ١٢٩ ، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ج ١ - الحلوت ص ٢٠٩ - ٢١١ .

الإسلام فيقول^(١) : « أما نحن فنعتقد إن هؤلاء الشوبية قد نحلوا أخباراً وأشعاراً وأثاقوها إلى الجاهليين والإسلاميين ولم ينف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظرهم إلى النحل والإسراف فيه » ويقول أيضاً : « كانت الشوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للسرب ونقص منهم وكان خصوم الشوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود من العرب ووقع لأقدارهم » .

• - الرواة : والرواة في رأي الدكتور طه حسين « بين اثنين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأزون بما كان يتأثر به الوالي من تلك الأسباب العامة وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأزون بأشياء أخرى هي التي أريد أن أقتع عندها ونفقات قصيرة ، ولعل أم هذه التأثيرات التي هيئت بالأدب العربي وجلت حظه من المنزل عطياً : مجون الرواة وإسرافهم في النهو والبيت ، وانصرافهم عن أسول الدين وفرواعه الأخلاق إلى ما يأيد الدين وتفسكه الأخلاق » .

هذه هي الأسباب التي رأها الدكتور طه حسين داعية للوضع والاتصال في الشعر الجاهل .

فتون الشعر

عرفنا أن الشعر الرقيق كان ميثمه الاستجابة لأحاسيس النفوس من حب وبنفس،
والغصير عن رغباتها من إضاءة للكلام ونشر الحماد، وتصوير عاطفة أمها قد حبيب
وموت عزيز أو اقتراب خلل وق.

ومن هنا تنوعت أغراضه وتشتت فنونه وتناول النزول والدخ والفخر والمجاء
والزنا والوصف والحاسة والاعتذار، ولكل مذهب وفن لفته التي تناسبه، وأسلوبه
الذي هو السبق به، فالنزل يحتاج إلى رقة اللفظ وعذوبته، والفخر يستدعي الجلبة
وقوة الأسلوب وضخامة اللفظ وهكذا، ومن ثم قد يجيد الشاعر في فن منها ويتصر
في الآخر.

قال ابن توبة^(١): «الشعراء بالقطع يختلفون فبهم من يسهل عليه الدخ ويتدفق
عليه المجاء، ومنهم من تسهل عليه الرأى ويتدفق عليه النزول، وقيل لسيحاج:
إنك لأحسن المجاء فقال: إن لنا أحلاماً نمتها من أن نعلم، وأحساباً نمتنا من
أن نعلم. وهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيهاً وأجودهم تشبيهاً وأوسلمهم لرمي وهاجرة
وفلاة وماء وفردا وجبة، فإذا صار إلى الدخ والمجاء خاله الطبع. وذلك الذي أخره
عن الفحول فقالوا في شعره: أبنار نزلان وتقط عروس. وكان الفرزدق زير^(٢) نساء
وساحب نزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب، وكان جرير عزهارة^(٣) من النساء
عفيفاً وكان مع ذلك أحسن تشبيهاً، وكان الفرزدق يقول: «ما أخرجني مع عنفة
إلى صلاية شمري وأخرجني إلى رقة شعره لما ترون».

وقال ابن رشيق في السدة^(٤): «قال بعض العلماء: بني الشعر على أربعة وهي
الدخ والمجاء والتسبيح والزنا».

(١) ص ٢٦ الشعر والشعراء . (٢) بكسر من زيرتين . (٣) مبيتاً .
(٤) ص ١٠٠ من ١٠٠ .

ولقوا: قواعد الشعر أربعة: الرغبة والزهوة والطرب والتضيب، فمع الرغبة يكون المدح والتشكو، ومع الزهوة يكون الاعتزاز والاستصاف، ومع الطرب يكون الشوق ودقة السيب. ومع التضيب يكون المهجاء والترويع والتاب والوجع. وإن الناظر نيا بين أيدينا من آثار العرب وأشعارهم يجد إن فنون الشعر كلها ظاهرة لاسمة متصنفة بأروع وأدلى بيان.

الجلسة:

١ - مصدر حس بمعنى اشتد وقوى. والجماسة في الشعر التنشيط بالمعاني التي تنبئ عن القوة، وتدل على الشجاعة والاستهانة بالمسب من الأمور والسير من المخاطر، وغوض غمار الحروب، وذم الجبن والنور والفرار. ولقد أكثر شعراء العرب من تناول هذه المعاني والإلحاح على حسنها الفرض، لأن الشجاعة والإقدام وركوب الأهوال من النسلات الطبيعية الركيزة في إتمام تقوسهم، حتى لقد رأينا من يجمع جماسة العرب فقط فيؤلف فيها الأسفار، ويجمع المجلدات الضخام.

٢ - ومن أمثلة الجماسة قول عمرو بن كلثوم يلتفت بأيام قومه وغارتهم المشهورة:

ألم عهد فلا تسجل علينا وأظننا نثيرك القينا^(١)
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حراً قد روي^(٢)
وأيام لنا نخر طوال عمدنا لك فيما أن ندبنا^(٣)
وسيد مشر قد توجه بناج لك بمحمي المجرينا^(٤)
زكنا الليل ما كفة عليه مقلدة أعتبنا سفونا^(٥)

(١) أظننا: أيدينا. (٢) روين من دماء أعدائنا.

(٣) أي ونثيرك بأيام حرب لنا. (٤) المهيون: اللاتيون.

(٥) أي قتله وتركنا لأعدائنا سلبه فليت نخوننا والله عليه سائلة والسائق العام أو الذي يرضى إحدى فوائده لنا.

وقد هرت كلاب الحى مسا وشذبا فتادة من يلبنا^(١)
مى نفل إلى نسوم رخانا يكونوا فى القاء لها طعيا
يكون تالما شرق نجد ولجوتها فتاعة اجيبنا^(٢)

٣ - وقال الحسين بن الحمام اليرى وهو شاعر جاهل مقل :

تأخرت أسدى الحياة فم أجيد لنفى حياة مثل أن أتعدا
نلسنا على الأخطاب تدى كاورنا ولكن على أقدامنا تنظر الدما
تفلق هاما من رجال أعسزة علينا ، وم كاترا أمق وأظنا
ولسا رأيت لود ليس بنلسى محمدت إلى الأسى الذى كان أمزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة ولا مرتق من خشية اللوتسلفا

للبح :

١ - اللبح هو اللثام على إنسان يذكر أفضاله وتعداد خلاله الكريمة وخصاله
الظلمة . ولم يكن ذلك فى أول الجاهلية مظهر خاص يجى من ورائه اللرم منها أو
يستمر رعية ، أو يجتلب به أخلاف الرزق ، وإنما كان فى يده أمره إحساسا بفضيلة ،
وشعورا بيب ، يدفع الإنسان إلى أن يمدح ويثنى على من قدم له المعروف أو أسدى
إليه اليد ، كما قال امرؤ القيس يمدح رعهط للملى :

أرحشا امرؤ القيس بن حجر بو تيم مصاييح الظلام
فما عرف الشراء طريق العظايا والهبات أكثروا من اللبح ، وبالتوا فى الرزق .
واقطعوا لرؤساء والأمراء واللوك يثيرون نهم كمن التزور ، ويوتفون حاجج
الكبرياء والظمة بما يشيدون عليهم من صفات ويسنون من ثروت .

(١) هرت : نبت خرقا ، والتفقيب لقع أفسان النجرة أودوكيا . والتفاعة التوكة أى
أذعنا شوكة من يلبا ويغرب منا من الأعداء .
(٢) لقال : جلة أو خرقة تجعل تحت الرس يسط عليها الطعير . والنبوة القينة من
الحب نلق فى الرس هى الأرسى حريم تدور فى شرق نجد وتلقم فتاعة أمين وهو فيه عطفية .

ومن هؤلاء ، النابتة وزهير والأمتى والمطينة ، وقد مدح الأخبزان للوك والسوفة .

وقد قاروا إن أمدح بيت قاله العرب قول النابتة :

لم تر أن الله أعطاك سودة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك تحس واللوك كركاب إذا طلعت لم يبد منها كركب
وكان الجاهليون يمدحون بكرم الخلال ، كالتشجاعة ، والفكرم ، والفة ، والجمعة ،
والياس ، والمدد ، ونحو ذلك من التباين التي كانت من دأبهم ، والتي كانوا
يتأخرون بها .

ولقد شاع المدح وكثر بسد نيل الشراء ، وأخذ أداة للارتزاق ، ومهنة
للتكسب .

واللاحظ في المدح الجاهلي بوجه عام الصدق ، وعدم اللبالة في وصف المدوح
أو التلويح بالتلذذ له . كما حدث بعد ذلك في المصور التالية .

٢ - وقال النابتة بمدح عمرو بن الحارث التتالي :

لم شية لم يظها الله عسيرم من الجود والأحلام غير هوازب^(١)
عسلتهم ذات الإله ودينهم فوم فارجوت بغير الواف^(٢)
رفاق العسال طيب حيزاتهم يجيون بالبحسان يوم الساب^(٣)
تحميم بيض الولائد بينهم وأكسية الأضرخ فوق الشاجب^(٤)

(١) الأحلام : العنول . وهوازب : بيعة .

(٢) عسلتهم أي سكنهم . ذات الإله أي بيت للقدس .

(٣) رفاق التال أي أنهم ملوك لا يرضون ضالم فإنما يخلص من ربه الذي ، وطيب حيزاتهم
كناية عن العفة . وحيزة الإزار مع شدا على الوسط من الجسم . ويوم الساب من أمجاد
النصارى . (٤) الولائد : الإماء . الأضرخ : الخز الأمر . والشاجب : جمع شجب ، مود
يتضر عليه الثوب .

يسوتون أجساداً قديماً ترميها
ولا يحسبون أنظر لا سر يمسده
بخالصة الأردن خضر الناكب^(١)
ولا يحسبون الشر خربة لآزب^(٢)
٣ - ومن الدأخ قول زهير :

سعى سامياً غيظ بن مرة بعدما
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
تيزل ما يسين المشيرة بالدم^(٣)
رجال يله من قرش وجرم
يمينا لهم السيدان وجدتما
تداركنا عيسا وذيان بسدما^(٤)
تقاتوا وطفوا بينهم عطر ملثم^(٥)
وقد قلنا إن نترك السلم واسما
فأصبحنا منها على خير موطن
عظيبن في عليا مد وتيرها
ومن يستبح كثيراً من الجد ينظم

المجاهد :

١ - وهو ضد المدح فإنه يكون بسلب الراء ما يستر به من فضيلة، أو دمية بما يفر منه
من رذيلة ؛ وهو والمدح من الصفات الطبيعية في النفس ، فالإنسان قد يرعى فيطلق
لسانه بالثناء والمدح . وقد يسخط فيهدر طبعه بما يوجب وؤلم . ولقد عبر عن ذلك
أبلغ تيسير الزرقان 'بن بدر حين مدح وهما في آن واحد وقال لرسول الله (ﷺ) :
رغبت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت . . . وكان المجاهد في
الجاهلية بسلب الثنائيل والرى ينصف الهمة ونشور الزمة ، ونحو ذلك الرواة كما قال
الخطيب في حياء الزرقان :

دع للكفر لا ترجل لبيتها . . . وأندفائك أنت العظام الكاسي

(١) الماس الشديد البياض والأردان جردن وهو يقدم في القيس وهذه الآيات كانت تنطق
بالحكم . (٢) لأزب : ثابت . (٣) غيظ بن مرة : الهى الذي منه عدان السيدان ، وتيزل : تنفق .
(٤) السجول : الميل أو الميط يفل فلا واسدا . والدم : ما يفل شيطان ثم يفلان نالاً ويملان
جلا واسدا . (٥) عطر ملثم مثل ضربت في شدة التناؤم وأمه أن امرأة صائرة تنظر
أوام بغيرها وتزجوا الحرب ليلكوا .

ولقد قال حسان حين طلب إليه أن يحكم في هذه القضية : لم يهجه ولكن
سليح عليه .

ولقد قيل إن الأعمى مما علقته بن علاقة بقوله :

تبيتون في الشئ ملاءم لولتكم وجاراتكم غرقى بيتي عمالما
فلا سمح علاقة هذا البيت بكى ، وقال أنحن نفضل ذلك بمراراتنا ؟
ومهما يكن من شيء فإن الشراء المجانيين كانوا يتصدون في الإقذاع
ولا يسنون في السب والكتاب ، بل إنهم كانوا يكتبون أحياناً بالهكم والتشكيك
في فضل الهجو ، كما قال زهير :

وما أدرى وسوف إنخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء ؟

أو التصريح بمدح الثبير كما يقول حمزة الضبي :

فهل سئمت سسى عصبة مازن وهل كملأت في الرقة سواء ؟
ثم خرج الفسكتيون بالشعر من ذلك إلى الإغاش كالطليعة وهو من المنفرمين .
٢ - ومن أمثلة الهجاء قول قريظ بن أبيب الضبيري يهجو قومه مرصاً بمدح
أعدائهم :

لو كفت من مازن لم تستبح إيل	بنو التليطة من ذهل بن شيبان
إذا لثام بنصرى مشتر خشن	عدو الحفيظة إن ذو لومة لانا
لكن نوى وإن كانوا ذرى عدو	ليسوا من الشر فيسى وإن هانا
كأن ربك لم يخلق نطقه	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهموما إذا ركوا	شدوا الإثارة فرسانا وركبانا

الزباء :

١ - هو بكاء اللبث ، والتنجع عليه ، وإظهار الروعفة لفرائه ، والمزقن لوته ،
وهذا خلاصة السكرية التي يروج الأعداء قطعاً ، والإشادة بمدايه وشماله .
وكأما في الزباء على فرطهم في غيره ، لا يباثون ، ولا يهولون ، فيصرون

الأرض تميد ، والسياء ترى بالشهب ، وإنما كانوا يكون في البت الشجاعة والتجدة
والسكرم والوفاء ونحو ذلك مما كانوا يمدحون به .

وكان من عاداتهم - كما يقول ابن رشيق - أن يشرعوا الأشتال بالفرك الأعزة ،
والأمم السالفة ، والرعول المتتمة في الجبال ، والأسود الخادرة في القياض ، ونحو
ذلك .

وقد شاركته فيه النساء وبرزن فيه ، لفة قلوبهن ، وغزارة دموجهن ، كجارية امرأة
كليب ، والغنساء ، وعاتكة بنت زيد وغيرهن .

وكانوا أحياناً يستهونون قصائد الزناب بالفرز ، كما فعل دريد بن الصمة في رثاء أخيه
عبد الله ، حيث يقول :

أرث جديد الحبل من أم معبد بداية أم أخلفت كل موعد
وكقول أبي ذؤيب الهذلي في رثاء سديق :
هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها
أبي الله إلا أم عمرو وأصبحت تحرق نارى بالشكاة ونارها
٢ - ومن أمثلة الزناب قول دريد بن الصمة في قصيدته المذكورة برثاء أخيه :
دعاني أخى ، والليل بيني وبينه فلما دعاني ، لم يجدي بتددي^(١)
أخ أرضتني أمه من لسانها يدى سفاء بيننا لم يجدد^(٢)
جئت إليه ، والراح تنوشه كوقع الصياصق في السبيح للبدد^(٣)
فطاعت عن الخليل حتى انتهت وحتى علاق حالك اللون أسودى^(٤)
تنادوا ، فقالوا بأردت الخليل فارسا فقلت أعبد الله ذلكم الردى
فإن بك عبد الله حل مكانه فأكان وقفا ، ولا طائس اليد

(١) الصمة : الجبان اللحم والمائل . (٢) يجدي : ينجح .

(٣) الصياصق : جمع صيامة ، حوكة يسرى بها الخائف لوجه .

(٤) انتهت : كفت . وأسودى : لبة إلى الأسود أى الدم ونظف لفضورة وضخم
برفقه ويصنف لياها ويبره الإثراء .

ولا يرا بما إنا الرياح تناوحت برطب السماء والفرج المسند^(١)
كيش الأزار، نخرج نصف سافه سيور على الفراء طلاع أجد^(٢)
قليل تشكبه الصيات ذاكر من اليوم أعتاب الأمايث فغد
تراه محبس البطن والراد سافر عتيد ويندو في العيص الممدد^(٣)
وإن مسه الإقواء والمهدزاده سماسا وإتلافا لساكن في اليد^(٤)
سببا ماسباحتي علا الشيب رأسه فلما علاه قال الباطل : ابد
وطيب نفسي أني لم أقل له كذبت، ولم أجعل ما ملكت يدي

٣- وقال أوس بن حجر يرق فضالة بن كادة، وقد قيل إنها لا تغير لها في مطلبها .
وأوس من غول شعراء الجاهلية ، وكان شاعر مفسر ، حتى ظهر زهير والقائنة
فأغلاه ، وقيل إنه أشعر من زهير ولم يحمده إلا القائنة ، وكان غزلا ، متربعا بالنساء .
وساعة للعبير ، والسلاح ، وبخاسة القوس :

أيتها النفس أجمل جزعا إن الذي تحذرين قد وما
إن الذي جمع الساحة والنجمة والحزم والقوى سما
الأملى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى ، وقد سما
والخلف التلف الرزا لم يجمع يصف ، ولم يمت طيبة^(٥)
أودى فلا تنفع الإشاعة من أمر لن قد يحاول البدعا^(٦)
ليسكن الشرب والدامة والهدد بيان طرا ، وطساع طمعا^(٧)

(١) البرم : الذي لا يدخل للسر مع النوم ، وتناوح الرياح : حبوبها من كل جانب زمن الغناء .
والشاه : الأعيان الفاتكة أو ما لا شوك له . والفرج : نبات لا يمر به الوباء . والصفد :
للعلم . (٢) كيش الأزار : شعر لبيط ، وطلاع أجد : كتابة عن العمام الصواب .
(٣) عتيد : ميا ، وللمدد : الذوق . (٤) الإقواء : القفر .
(٥) الرزا : الشعر ، منح : كعصر بالقيء ، ذهب به ، والطمع يفتح الباء : التيقن والشيب .
(٦) الإشاعة : الإعراس . (٧) المصرب : جمع غراب ، كركب : جمع راكب .

وفلت هدم ، عاز نوافرها تصمت بالساء توليا جدعا^(١)
والملى إذ حاذوا الصباح ، وإن غاوا منبرا ، وسائرا تلسا^(٢)
٤ - وروى القائل في أماليه أنه كان لرجل من ضبة ، في الجاهلية بلون سبية
تخرجوا بمطادون بكلاهم ، فأدوا إلى غار ، نهوت عليهم سفرة ، ماتت عليهم
جيدا ، فلما استرات أبوم أخبارم ، التقى آثارم ، حتى انتهى إلى النار ، فانتطع منه
الأكر ، فأيقن بالشر ، فرجع وأنشأ يقول :
أسببة أطوار^(٣) ، أسببة إبحر أسببة آساد ، أسببة أنجسم
رزقهو في ساعة جرحتهو كخوس الدايا تحت سفر مرخم^(٤)
فن تلك إيام الزمان حيدة لديه ، فإني قد تمرقن أعطس^(٥)
يلنن نسيبي ، وارنشن بلالقي وسليبي بحر الأسي القصرم^(٦)
أحين رماني بالثمانين منسكب من الدهر ، منيع في مؤادي بأسهم
وزنت بأعنادي الذين بأيدم أنوه ، وأحي جوزني وأحتس^(٧)
فإن لم تذب نفسي عليهم صباية فسوف أشوب دعما بعد بالدم
ثم لم يلبث يدمم إلا يسيرا ، حتى مات كذا^(٨) .

النسخ :

١ - هو متحد الر - بكرم الللال ، وطيب الثبال ، ومباهاته بنفسه أو قبيلته ،
وهو من أخص صفات العرب ، ومن أوسع الأيواب في أشعارهم ، وبعض قصائدهم
الطوال قيل في هذا النرض كملفة عمرو بن كلثوم ومجبرة أمية بن أبي العلت .

- (١) القسدم بالكسر : التوب الملق ، والتواتر : هروك طاهر الكف ، وعلست :
تكت ، والتولب : ود الأمان أي المخش ، وجمع كحكتف : سيء الفداء .
(٢) تلم كحكرم وفرح : طلم . (٣) الطود : الجبل .
(٤) مرخم : منشد يمشه فوق حص . (٥) تمرقن أعطس : أنشد ما عليها من اللحم .
(٦) نسيبي : ثاية جهدي ، أو ثاية الزوج في الجند ، والبالا : الرطوبة ، والارناتف :
للس ، والقصرم : اللشيل . (٧) الأيد : القوة ، وأنوه : أنهى ، وسوزني : ناحق .
(٨) الأمان : ١ .

٢ - يقول طرفة عين العبد في مملته :

إذا القوم قاروا من نبي خلت أنى عويت نغم أ كسل ولم أتبلد
ولست بمجلال الفلاح مخافة ولكن متى يسترعد القوم أردد^(١)
فإن تبني في حلفة القوم تلقى وإن تلمسني في الخوايت تصطد
وإن يلحق الحى الجريح تلقى إلى ذروة البيت الشريف الصمد^(٢)

٣ - ويقول هنتر في مملته :

هلا سألت الخليل يا أبا مالك إن كنت جامعة بمسالم تلقى
مخبرك من عهد الوقيعة أنى أعتى الوفى وأعتى عند التمس
ومدحج كرم السكاة زالة لا ممن هربا ولا مستسلم
جادت له كفى بما جسل طمنة يثقف صدق الكعوب مقوم^(٣)
فشككت بالرمح الأسم نياحه ليس الكريم على القنا محرم^(٤)

التزل :

١ - أكثر أشعار الرب وأروع قصائدكم وإبرع آثاركم بقصص المرأة ، ووصف
حسنها، وشيد بجمالها ، وبيان الفرح بتربها، والألم والحزن على بعدها، ويذكر تأثيرها
على النفس ؛ وما يجود به من وسيل ، أو توزعه على صرطها من ذلال وسد ، ومن
لزورار وجران .

وكانت المرأة العربية ذات تأثير ساحر على عقل الرجل وقليه وعواطفه ومشاعره ،
يقصم الصواب ، ويخوض الشررات ، ويركب الأهوال من أجلها ، فلك كان الشعراء
لا يفتأون يرددون ذكرها في كل مناسبة للقول ؛ ينتصرون بها أشعارهم ويبدأون
قصائدكم ، ويقتنون على أحلامها بأكين ، ويلقون بمنازلها مشوقين .

ولقد كان من شعرائهم من يتحدث عن المرأة حديث الذي تتسلك الشهوة ،

(١) الفلاح : ما ارتفع من الأرض ، والربد : الماء .

(٢) الصمد : الصمود ، والجريح : الجريح . (٣) مقوم : سلب . (٤) الأسم : العلب .

وتستبد به الصبوة ، فيصور عاين جسمها من أرداف وأجواز ووجه ووطن وعيون
تثبه عيون لها . ويسد إلى كل ما يثير العاطفة والشاهر ، فيلج عليه إلحاحا
شعبيا مثل مهليل الذي لب بأنه زير نساء ، ومثل امرئ القيس الذي أختص في
غزوه وابتذل في ديبه ، ولم يتورع عن ذكر أسماء المبهويات في وصف فحلش ونزل
ماجن .

وكان كذلك القاضية المديباتي الذي أسرف في الفحش ودالج في تكشيف الرأة
والنفاذ إلى أدق الراطن وأكثرها سترأ واستغفاه .

على أن هناك من شعراء العرب من غلب عليه الطبع المرئ والأهنة البدوية فذكر
الرأة ، وأضاف إليها ما يجب أن يتوفر لها من ستر وحصانة ، ومن عزة ومتمة كما
قال علقمة بن عبدة في قصيدته :

طحا بك قلب في الحسان طروب ببسده الشباب عصر حان مشيب^(١)
يكلفي ليل ولقد شط ولها وعادت عسواد بيننا وخطوب^(٢)
منعمة ما يستطاع كلامها على بابها من أنت تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تعش سره وترضى لياب البعل حسين يؤوب
فالطباع العربية والصفات التي كانت تنمك نفس البدوي وتجاوزها حزة وأهنة هي
التي تسيطر على أمثال هؤلاء التنزئين أمثال علقمة . وإذا كان حق القصيد كما قال
ابن رشيق^(٣) : أن يكون حذر الألفاظ مسلما ، فربب الناس سهلها ، غير كز ولا غمض ،
وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، وطلب للكسر ، شفاف الجوهرة ،
يعطرب الحزين ويستغفب الرمين . فقد بلغ شعراء العرب القافية في ذلك وأنوا بالمعجب
البيجاب ، وإن المرء ليجد التصديقة منتجة بالنسب وذكر الأماليل وبكا القيار والشوق
والحنين تتشبط نفسه ، ويتفتح لذلك حسه ، ويبتدل على التصديقة بكل ما فيه من رغبة
ونهم .

(١) طحا به : ذهب به . (٢) شط : بد ، تأبها : فرها . (٣) ج ٢ ص ١١٠ .

وهذه هي مساندة الطوال الساة بالملفات تجدها كلها تبدأ بالنزل وذكر الخبار والأطلال . ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا قصيدة عمرو بن كلثوم التي انتخبها بحديث الجحر :

الاهي يسحكك فاسيبحنا ولا تبق خور الأندريسا

على أنه لم يثبت أن استحباب للطبيعة التحفة نصاد إلى ذكر العراق بقوله :

فنى قيسل الفرقى بالطينا تخسرك اليقين وتخجربنا

٢ - والأدباء دائماً يظنون اللفظ النزل والنسيب والتشبيب على هذه الأضمار التي تحمل حب المرأة والحديث عن جمالها وما تثيره في القلوب من هيام وسبوة ، والتي تنطق بكل ما يتعلق بها من حب ووصل وسد وتقريب وهجران . . . قال ابن رشيق في المقدمة^(١) :

« والنسيب والتنزل والتشبيب كلها بمعنى واحد » ، وبعضهم يفرق بين معاني هذه الألفاظ ، فقدمة يقول : « النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوالهن الهوى به مسين ، وقد يذهب على قوم موضع الفرق بين النسيب والنزل ، والفرق بينهما أن النزل هو للنسب الذي إذا اعتقده الإنسان في العبيوة إلى النساء نسب يهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر النزل ، والنزل للنسب نفسه ، والنزل إنما هو القصاص والاشتهار بمودات النساء » .

وبعض الأدباء يخلص النزل بالاشتهار بمودات النساء ، وتبين ذلك في الكلام ، ويريد بالتشبيب ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومسافة الأطلال ، أما النسيب فهو أثر الحب الصادق والعبادة للرجة ، فإيا يهت الشاعر من شكوى ، وما يصفه من حرمان . ونحن نميل إلى أن هذه الألفاظ أصبحت كلها تحمل معنى واحداً ، هو الحديث عن المرأة وما يتصل بها .

(١) - ٢ ج ١ ص ١١١ .

والنزول الجاهل كان مقصوداً على المرأة ووصف جامها ، لم يتجاوزها إلى البطن ، كما حدث في العصر العباسي . وتجنّب في السبب الجاهل البساطة والبعد عن العكس ، والتشبيه بالحسوس التي لديهم ، وعلى الرغم من إكثارهم فيه وضميرهم به ، لم يتولوه مستقلاً ؛ إنما مزجوه بكل فرض ، وألوا به في كل موطن ثاب من قصيدة قبلت في مدح أو عيب أو نثر أو وصف إلا كان السبب جزءاً منها . بل لقد نطب على بعضهم في موطن السمة ، ومكان الحزن والاروعة ، كما تقدم في الرثاء .

٣- قال أعتى قبس :

ودع هرة إن الركب مرتحل	وهل تعاقب وداغاً أنها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارقها	تمشى الهويبي كما يمشي الوجي الرجل ^(١)
كأن مشيتها من بيت جاريتها	مر السحابة لا ريث ولا ميل ^(٢)
تسمع للعل وسواساً إذا انصرفت	كما استعان بريح عشرق زجل ^(٣)
ليست كن بكرة الجيران ملقمتها	ولا تراها لسر الجار تختل ^(٤)
يسكاد بصرعها لولا تشدها	إذا تقوم إلى جاريتها الكسل ^(٥)
إذا تقوم يشوع السك أسورة	والزئيق الورود من أردانها تثل ^(٦)
ماروضة من رياض الحزن معشبة	تضراء جاد عليها مسبل هطل ^(٧)

(١) غراء : رضاء واسعة العين . والفراء : العلوقة الفرع أي الشعر والوارس الرمايات والأنياب من الأسنان . الوجي : الذي يشك حازه ولم ينف بد فيكون مثاقلاً ، فكيف إذا كان وحلاً يمشي في الرجل . (٢) الريث : الطاء .
(٣) الرسواس : صوت الخيل . والعمري : شجيرة مقدار خراج لها أكلام فيها حب منار إذا جفت قرنت بها الرخ تحرك الحب فسبح له شققة على المعنى . والزجل : نوع الصوت بالظرب والزجل بالكسر صفة منه . (٤) تختل : تتسبه استراقاً .
(٥) يضلها بالنسب والرف وفك من صفات الريح عندما لا تكون ممدومة نسمة .
(٦) يشوع السك : تنفس رائحته ، وأسورة : جمع سوار بالضم وهو تاقية السك أو سفة والزئيق عند العرب زيت الياسين وأجوده ما كان يميل للحمرة وثقله وصفه بالورد . وشمل أي عام .
(٧) الحزن : الأرض القليلة . والفراد هنا موضع من بلاد الحجازة فيه رياض وقبان .

يضاحك الشمس منها كوكب فريق

مؤذر بسميم التيت مكتحل^(١)
يوماً بأطيب منها نشر رائحة^(٢) ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٣)
٤ - ويقول امرؤ النيس :
أظلم مهلاً بعض هذا اللذال وإن كنت قد أذمت مرى فأجل^(٤)
أترك مني أن حبك قائل وألك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عينك إلا لتضري بسهميك في أعشار قلب مقتل^(٥)
ويصنة خدر لا يرام خباؤها نحتت من لمو بها غير مجمل
تجاوزت إحراساً إليها ومشرها على حراسا لو يسرون مقتل^(٦)
بقت وقد نشت لثوم ثيابها لدى السر إلا لينة التفضل^(٧)
متهفة بيضاء غسبر مفاضة تراثها مصسوفة كالسجنجل^(٨)
تعد وتهدى عن أسيل وتفق بناطرة من وحش وجرة مطبل^(٩)
وجيد كجيد الرثم ليس بباحش إذا هي نسته ولا بمطبل^(١٠)
وفرغ زين اللق أسود قام أثبت ككفو النخلة للتشكل^(١١)

(١) والكواكب هنا جماعة الزمر . ومؤذر أي يكافئه يات تام فهو ياتف عليه كالغاف
الإزار . (٢) الأصل : جمع أسيل وهو من الصرائق اللطام ، ونسته لأن الجو يبرد فيه
فيهب التسم مبالاً رائحة الأبرار . (٣) مرى : فطين ،
(٤) ذرفت : دمت ، والأعتار : الفطح ، ومقال : مقال .
(٥) الأعراس : جمع طرس ، والحراس : جمع حراس . ويسرون : يشربون .
(٦) نشت : نطقت . (٧) متهفة : شائرة . ومفاضة : سفينة البطن . والرايب :
عظام الصدر أو ما بين الزنوفين . والسجنجل : المرأة .
(٨) تعد : تعرض . وتهدى : تظهر . عن أسيل : أي عن خد أسيل وهو ما فيه اعتماد
وطول . ووجرة : موضع . وللطبل : أي لما طبل .
(٩) الرثم : الفلج الخالص الأبيض ، ونسته : رفته ، والقاشح : الذي تجاوز فترا سطوما
والنسل : الخال من الخل .
(١٠) الفرغ : الشعر الناعم ، واللن : الظهر ، والأيت الكثير . والقتر العذق . والنشكركمط .

غداؤه مستشزرات إلى الليل
وتنضح نبيت السك فوق فراصها

تمنيل العاصم في مثنى ومرسل^(١)
نؤوم المنحى لم تتعلق من تمنيل^(٢)

الوصف :

١ - الوصف من أدق موضوعات الشعر التي لا ينهض بها إلا نائذ البصيرة ،
صاق الذهن ، دقيق الإحساس ، وقد برز فيه الرب ، وكان لشعرائهم حظ وانفر
وتصيب كبير منه . وكان شعرهم تصويرياً سادة لكل ما وقعت عليه أنظارهم من
أرض وسما ، وشجر وجبال ، وحيوان ورمال ، ورياح وأمطار ، وبرق وسحاب .
وقد أجادوا في وصف السراة ومحاسنها وطباعها ، ونبينا في وصف الليل والأليل
والبتر الوحشي ، كما أبدعوا في وصف الليل وأحواله ، والبراك وآلاته ، وكل ما من
بهم من ظواهر الطبيعة وأحداث الحياة .

٢ - قال الأعشى يصف فرساً :

وقد أخذى إذا صنع العبد لك يحمر مشذب جوال^(٣)
مدبح سابع الضلوع طويل الشد خص عيل الشوى بحر الأخال^(٤)
يلأ العين عادياً ومقوداً ومصرى وسافناً في الجلال^(٥)
مستخفا على النباد ذنباً تم حسناً ففسار كالتفال^(٦)

٣ - وقال عنزة بن الأخرس يصف سمباناً :

للك تحنى من أرقام أرضنا بأرقم يسق السهم من كل ملطف^(٧)

(١) غداؤه : ذواته ، مستشزرات : مرتعات ، والنفاص جمع عقبة وهي الضفيرة .
(٢) تمنيل والتمنات : اسم فاعل النوى الحاصل بالفت ، لم تتعلق : لم تلبس النطاق ، من
تعلق أى يد لبس القفلة كما يقال فلان استبان عن ظهر أى يد فقر والقفلة ثوب واحد يلبس
الفتة في الليل ؛ يريد أنها عسومة لا تدم . (٣) مدبح : ساجح . مشذب : مهذب .
(٤) مدبح : حكم . سابع : عظيم . الشوى : الأطراف . العيل : اللؤلؤ .
(٥) سافن : الذى يمشى سافكاً . (٦) الفسار : التضيظ الحاد .
(٧) الأرقم : ألحبت الحيات . الملطف : من لطف أى سأل أى موضع السهم .

زاد بأجواز المشيم كأنما على صفة أخلاق برد مفوف^(١)
كأن بناحى جلده وسرته وجمع ليته نهاويل زخرف^(٢)
٤ - وقال امرؤ القيس يصف القرس :

وقد أفتدى والطيرى وكتابتها بمجرد قيد الأوابد هيكل^(٣)
مكر مقر مثل مدر مآ كجلود سخر حمله السيل من على^(٤)
مسح إذا ما الساجات على الرقى أترن التبار بالسكديد الركل^(٥)
يزل التلام الخف عن سمواته ويوى بأثواب التيف التفل^(٦)
دبر - كخزوف الوليد أمره نتاج كفيه يخرط موصل^(٧)
له أبطلا ظني ، وساقا نامة وإرخاء سرخان وتقريب التفل^(٨)
شليح إذا استدرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل^(٩)
كأن على التين منه إذا اشقى مدالك عروس ، أو سلاية حنظل^(١٠)
كأن دماء الماديات ينحره عصارة حناء بشيب مرجل^(١١)

(١) الأجواز جمع جوز وهو الوسط - القشيم : اليابس المتكسر من ثياب غيره . القن : القير .
الغوف : الفتوش . (٢) السراة : الظهر . البنيان : عرقان في باطن الشق . النهاويل : الفتوش ،
الزخرف : الزينة .
(٣) الركنات عناق الطير ، للبرد : للناس في البر ، الأوابد : الرخوش ، هيكل خضم .
(٤) مكر مقر : مثل مدر ، الجفود : الحمر الصب .
(٥) مسح : كثير الجري ، والساجات : الخيل التي تند بعدها في عدوها . الرقى : الضف ،
السكديد : الصب ، والركل : الذي يركل مرة بعد أخرى .
(٦) يزل يزلق . والقف : الحفيف . والعصوات جمع صهوة يقعد الراكب على ظهر القرس .
ويوى : يرمى . والتيف التفل : الملقح النحر .
(٧) دبر : دار ، والخزوف حصاة يتقوى بحمل النسب فيها خيطا فيدبرها على رأسه ،
وأمره أشبه نله .
(٨) أبطلا ظني : خصراه . وإرخاء سرخان : عمدو لثاب بنية الجيب . والتقريب : وضع
الرجلين موضع البين في العدو والتفل : ولد الثلب .
(٩) خليج : عظيم الأضلاع ، وحاف : ساجع . وأعزل . يميل عظيم ذنبه إلى أحد الطرفين .
(١٠) لثان : ما على بين العظام وتعالقا ، واتصق : اتصق ، ومدالك التروس : المير يحق
به التليب ، والسلاية : مدق التليب . (١١) الماديات : اللقدمات من الرخوش .

الاعتذار :

١ - هذا الترض قليل في شعر الجاهلين ، وطراسه الذي اشتهر به هو التابئة
الديبائي ، فاعتذاراته إلى النيران بن اللذرة ملك الجيرة من عيون الشعر الجاهل .

٢ - فن قوله في ذلك :

أتاني أبيت اللعن أنك لثني وتك التي أهتم منها وأنسب
فبت كلن المائدات فرشن لي هراسا به يمل فراهي ويقشب^(١)
حلفت فسلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمسرء مطلب
لئن كنت قد أيلنت عن خيانة ليلتك الزاهي أغش وأكذب
ولكنني كنت امرأ لي جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحهم أحكم في أموالهم وأقرب
كعصك في قوم أراك اسطعيتهم ظم زعم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلق به القار أجرب
فإن أك مظلوما فبهد ظلمته وإن تك ذا عيب فتكع يقب
ولست بمسكين إنا لا نله على شمت أي الرجال للهدب ؟

٣ - ومن قوله كذلك :

فلا لمر الذي مسحت كعبته وماهريق على الأنصاب من جسد^(٢)
ما قلت من شيء مما أبيت به إنن فلا رعت سوطي إلى يدي
إنن ضالبي وفي معاقبة قوت بها عين من يأتيك بالهدد^(٣)
بنت أن أبا قيرس أوعدن ولا تفرار على زار من الأسد
مهلا فداء لك الأفرام كلهمو وما أقر من مال ومن ود

(١) المراس بالفتح : شعر حاله . يقشب : يخب .

(٢) الجسد : الدم .

(٣) الهدد : الكذب .

خصائص الشعر الجاهلي

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والفقهاء في الزيادة بالشعر الجاهلي ، وتقصه ، ورميه بالتقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ، وعيه حيناً بخلوه من الشعر التمثيلي والتصفي ، وحيناً بتفككه وعدم وجود وحدة في آثاره الفنية البالية ، واضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها. وحيناً آخر يرمونه من ناحية الصيانة واللفظ والنظم بأكثر مما يباب به شعر قديم أو حديث . وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً شتيلاً ، وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يظفروا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم ينهمروه حتى التهم ، وقرئ آخر تدفعه إلى ذلك الشعبية الحديثة التي ترى مظهرها بادياً في تقص كل ما هو عربي أو قديم والتعصب لسكل ما هو عربي أو حديث .

ولا شك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكمومة الأدبية وإسرافاً ومنالاة كثيرين ، فلشكل شعر جيد - كما يقول الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي - ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعاً مؤثر فيهم ، ولكن بشرط أن يصدوا لثمنه وتدفعه ، وهو من ناحية أخرى مرآة يثقل في فؤاد أو تصف شخصية الشاعر ويعتقه وصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ، فزدها الشعر الجاهلي نفاً ليس أقل إيماناً في الخطل من زدها الشعر الأجنبي .

إننا لا نذكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتدفعه سهولة كثيرة أهمها : صعوبة لثته وأسلوبه ، وبعد الأمد بعبور البيئة العربية القديمة وإيران الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، ومشاهد الطبيعة والوجود فإن ذلك العهد البعيد ، ولكن ذلك

لا يمكن أو لا يصح أن يصرنا من هذا الجال الذي الراح الذي نجده في الشعر الجاهل، فضلاً عما نيه من تحليد آثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهل أفرى دعامة لتربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث أنه سورة من سور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث أنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ، لا يمكن لتلك ولنيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم وتبذره ورائنا ظهرياً .

في الشعر الجاهل جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من عنات . وفيه روعة ، وإن كنا لا نبره من السب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يتلوه الشعر الجاهل . وأن نتعرف خصائصه وعناصره لتري إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء من الفناء والتصميم على الشعر الجاهل القديم ، وإلى أي مدى يصح أن نسير في الفناء منه . تلك أقرب إلى المدالة الأدبية في البحث والناشئة .

١ - أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهل : البساطة والصدق والرشوح وعدم التمسك أو الإنزاق في الأداء ، وهذا في " بسلفه الفناء للشعر الجاهل تسلياً . ويمزجون به وهو ما يندفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرأه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهور من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والمحب والتمعة . بل إن هذه اللذة الفاضلة في الشعر الجاهل هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث : بعد أن أهد المحدثون الشعر عن البساطة والإخلاص ، وما الصفتان اللتان كانتا حساناً له ، كما يقول الدكتور شريف^(١) .

(١) ١٨٣ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

٢ - ويمتاز الشعر الجاهل أيضا بالزهد في الحسنة وأوان التزين الفنى ؛ وهذه صفة غالبية عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا الذهب ، ولقد كلف الشعر للعصر الحديث في أول نهضته مقفلا يتقيد الزخرف البيهبي الذى ورثه عن العصر التركي والشبانى وأواخر العصر العباسى إلى أن ناز القناد على ذلك النهج ودعوا إلى التخلص من آثاره ، حتى برأ الشعر الحديث من ماعته وسار طلبيا إلى غاية . وقد ظهر في الآداب الأوروبية أيضا سبنة الزخرف الفنى في العصور الوسطى ؛ كما حدث في الأدب الإنجليزي بعد عصر اليصابات ، وفي فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهل يصاب لهذه الحسنة الظاهرة ؟ وزجرى فلك الممثل الظاهر ؟ .

٣ - ومن خصائص الشعر الجاهل : متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأمره والبيئة البدوية أثر جيد في ذلك ؛ وقد سار المحدثون في العصر السياسى على هذا النهج حيناً ، وحيناً آخر اغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ووتوا بعضها عن العصر الأموى ومدرسة النثرين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض القناد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والزفة ، ووقف آخرون بمجددون موقف هذه وموقف تلك كإبن الأثير في الكل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة حنفا في الشاعر وميلا منه إلى النابية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البيهات زهير الشاعر للعصر المشهور . . . ولكننا نقول للناشئين : ربما ذوقكم الأدبى ، وأرهنوا مشاهركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تميشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك نهذه العذوبة والزفة يجب ألا تنقلب حنفا وطمية هوان توهى بأفان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر وتسيته قبل كل شيء ؛

كما يجب ألا تغلب الجزالة حوشية وإغراباً وتقيداً عند الشراء الذين يمانطون على الجزالة . واحسب أن شراءنا للماسرين الذين يتكلمون الألفاظ الثنوية الكثيرة البهيمية في قصائدهم إنما يملون ذلك تقليداً فحسب ، وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الناشئون من التقليد ، ونحن على أي حال لا يمكن أن نسيب الشعر الجاهل لجزالته ، فقد رأيت موقف الققاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بهمسا ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها آثر من آثار البيئة في الشعر الجاهل .

د - ومن خصائص الشعر الجاهل أيضاً التصد إلى المنى في إيجاز ويسر وقلّة إخطاب ولا شك أن المصور الأدبية التي تلت العصر الجاهل وتصدت فيها ألوان التقلات ومظاهر الحماضات قد أبدت الشعر من هذا الانحياز ودفعته إلى الإخطاب وشي ألوان التصوير ؛ ووقف الققاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وترأه البلاغة والبيان، وطائفة تشيد بالإخطاب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير، وأخرى تحمد للإخطاب مواسم وللإيجاز مواسم : ككندامة في نقد الشعر وابن سنان في سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر الماسر : آثر الإيجاز أو اهد إلى الإخطاب، وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدي مفايك في دقن ويسر وقلّة فضول، وفي الآداب القريبة الآن مذاهب تدعو إلى التصد في التصوير البياني والاكتفاء بشرح الأنكار الجديدة وترك ما عداها .

هـ - ولا شك أن أم طابع الشعر الجاهل بمد الذي ذكرناه سابقاً هو هسناً الطابع البدوي الراضح الذي ينجوك في شئ الفصائد الجاهلية ، مما هو أثر البيئة والحياة الجاهلية ، ونحن ندعو كما يدعو كل منصف إلى ترك هذا الانحياز في الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منبج الحياة في القرن العشرين كما إن إبراز هذا الطابع البدوي في شعر الشاعر الماسر يكون تقليداً سخيفاً لا مبرر له ، وبحول دون ظهور تزمانه الثنية ومواجهه الخاسة المنقلة في شعره ، وهذا شرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع في الشعر الجاهل :

أ - شدة تحييه للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج ، فقلّوا شرم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجلل والظلم والذن والخيال القديمة ، مما سخر به بعض الفئاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه فقال مطيع بن نبياس :

لأحسن من يبد تحاربها الفطاة ومن جبل على ووسلها سلسا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلّة في وجه صاحبه ترى

وهذه دعوة جديرة بالاعتناء ، خليفة بالإشارة ، وقد دعا المجددون في الأدب الحديث ، وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسه وبيئته وعصره ، وإلى أن يتخلو من آثار التقليد للتداعى في أغراض الشعر وفنونه ومرسوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربي الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذي يكون غير مقلد في مضاء أو في لفظه . ويكون صاحب هبة فنية في نفسه وعقله ، يتأثر ببيئته ويؤثر فيها . ويمثلها في جدها وفروعها ، وحرزها ، وسلامها وحرابها ، وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب - ومن آثار هذا الطابع البدوي في الشعر الجاهل أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الحيار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا الفليل ، كسمر بن كاثوم في مملته التي بدأها بذكر الزاج ، وكثأب طعمرم في قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذي دون سلع لتتيلأ دمه ما يطسل

والتي يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن قتيبة في أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حاراً ، فقد سؤر نهج العرب في وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الحيار والآثار ، ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وإلم الوجد وفرط الصباية ثم ذكر الرحة إلى المدوح تحملا إلى مدحه واستحلابا لرضائه وسى أطلاله ، وقال : والشاعر الجيد من سلك حسنه

الأساليب ، وعُدل بين هذه الأقسام^(١) . وقد سار الكثير من المحضرين والإسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ، كما أكثر الكثير منهم من بدئها بالفزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذي دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح قال :

وصف العقول بلاغة القدم فاجمل صفاتك لاينة الكرم
وتبه ابن المتر فقال :

أف من وصف منزل بكافظ فصول
غدير الريح رسمه بمجذوب وشمائل

وكان أبو نواس شوبيا في مذهبه . ليس هو الذي يقول :

تبيكي على طلق اللاتين من أسد شكاتك أمك قبل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن نيس ومن يمن ليس الأراب عند الله من أحسد

ولكن ابن المتر كان نادياً يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادي بتحضّر الشعر وترك البداوة فيه وتحييه حياة الشاعر وآرأته في الحياة . . . وقد ناز ابن دريشق على منهج الجاهلين في القصيدة ، ورأى - مع من رأوا - أنه لا معنى لتكرار الحضرى الديار^(٢) وأنه ليس بالحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في عصره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يكتبها ، وأن الأول وصف الحُر والتيان^(٣) . وقد تكلمت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الذي في القصيدة ، فليس منهم - والحمد لله - من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لم يزل أحد الآن زرع بالجنون ؛ ولكن معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه في شعره أبداً ، أو ألا يبدأ قصيدته من قصائده بذكرها ، ولكننا نقول إن السبب هو التزام بدء القصيدة بوصف الأطلال القديمة تقليداً للجاهلين ، وإذا التزم شاعر معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته

(١) ١٠١٤ و ١٠١٥ من الشعر والشعراء . (٢) ١١٩٩ : ١ : القصيدة . (٣) ١١٢٩ : ٢ : الريح .

وأحيائه ولم يتخل عن هذا النهج لم تحاسبه عن ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حربه
الغنية أو حبس مواهبه وملكانه الأدبية فإنه يجب بحق ألا يتبد الشاعر نفسه بأي قيد
لا تقزمه به نفسه ومواهبه وملكانه الغنية وحدها ، وإلا كان مفقداً لا نصيب له من
الشعور بالحياة والإحساس بها والتمتع بنفسه المتيقن بمشاهدتها وسورها والرواها .
ج - وهناك في الشعر الجاهل ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوي للوروث ،
وهي كثرة التريب والوحشي ، ولا شك أن ذلك مذهب التراب والندى وخدم لأثر
البيئة البدوية الجافة الغشقة في عقولهم ونفوسهم .

وما أروع ما يقول سفي الدين الخليل الشاعر التتوق عام ٧٥٠ هـ :

إغا الميزبوت والورد يس	والطبخا والفتاخ والطييس
لنسة نخر السامع منها	حين تروى وتشدُّ النفوس
وقبيح أن يذكر الفافر الوء	شي منها ويترك الأأنوس
أين غول : هذا كتيب قديم	ومقال ، عقتل قدموس
إغا هذه القلوب حديد	ولقيس الأفاظ متناطيس

وليس هناك الآن - والحمد لله - أحد يدعو إلى استبدال هذه الألفاظ ، أو يرتاح
قلبه حين سمعها ، فهي ألفاظ تاريخية يجب أن نعلمها بحسب .

بيت يد ذلك صور البيان الأدبي عنه . أنموذج أسلوبنا على الصور القديمة التي
يتمثلها الشعر الجاهل ، أم نستمد سوره من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولغضرب
مثالا واحداً لذلك ؛ لا شك أن الجمل كان عماد الحياة في العصر الجاهل ، وفي أساليب
البيان صور كثيرة استمدت منه . فقد قالت العرب : ألقى الجمل على النار ، ولتصد
نار الجمل وسنامه ، ووطئه بمنسمة وخرسه بأنياه ، وألقى عليه جرأته ، وناه وأناخ
عليه بكلكله ، وقاروا لا ناقة لها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول القناد والبلاغيون في السور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان
وتكسيها من مشاهد الحياة والبيئة التي تتجدد دائماً .
فهل تأخذ صور البيان القديمة في أساليبنا لترضى العرب القدامى . أو تولد فيها
لترضى عبد القاهر والقاضي المرحوم وسواهما ؟
لست أدعو إلى الأول ولا أجهه ، وإن كنت لا أرى في الرأي الثاني شيئاً أو
شراً ، وأؤثر أن يضيف الأدب إلى الصور التي يولدها صوراً جديدة يستمددها خياله
من حياتنا وبيئتنا وأثران الحضارة التي تنبش فيها ، والاختراعات التي تجتهد دائماً
بيننا والتي تبدد الفلحة عنها ومحاول ألا نستمد منها صورنا الأدبية .
ويصد ، فهذه سمات الشعر الجمال والعللة الفنية بين حياتنا الفنية الحاضرة
وما يصح وما لا يصح أن نغله فيه .

معارس الشعر الجاهلي

١ - مدرسة شعراء الملقّات

- ١ -

كان فيا أُر من أشعار العرب ، ونقل إليهم من تراثهم الخليل ، بنوع تصانيد من أجود الشعر وأدقّه معنى ، وأوسعه خيالاً ، وإبرعه إبداعاً ، وأسمحه لفظاً ، وأعمته معنى ، وأمدّه فائية ، وأسدهه تصوراً للحياة التي كان يحياها العرب في جاهليتهم ، وقد سميت هذه التصانيد بالملقّات .

وهذه القصائد هي على التتبع للتراث :

- ١ - قصيدة امرئ القيس وأولها :
فما نيك من ذكرى حبيب وميزل يسقط الثرى بين الفسول فومل
- ٢ - قصيدة زهير أبي سلمى وأولها :
أمن أم أوفى دمسة لم تكلم بمروانة الدراج فالتسلم
- ٣ - قصيدة طرفة بن العبد ومطلعها :
لخولة أطلال برفسة نهد تلوح كياتي الزودم في ظامر اليد
- ٤ - طرفة عنزة وأولها :
هل تادر الشعراء من متردم أم هل عرفت القار بعد توم
- ٥ - قصيدة عمرو بن كلثوم ومطلعها :
ألا هسي بصحنك غابسينا ولا تيق نخسور الأندرينا
- ٦ - قصيدة لبيد وأولها :
عنت القار عملها فقامها يحي تأيد عولها فرجلها

٧ - طوية الحارث بن حازم ومطلها :

أَذَقْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءَ رَبِّ نَارٍ يَجِلُّ مَسَّةَ النَّوَاءِ
وهؤلاء الشراء كلهم جاهلون ما عدا ليذا فإنه من المخضمين ، وبعض الأديه
يحمله جاهليا وبضمهم يسقط من هؤلاء عترة والحارث وببنت الأعمى وقصده :
ما يسكاه التكبير بالأملال وسؤال وما زد سؤال
والثانية في قصيدته :

عرجوا فحيروا نهم دمنة الفار ماذا تجهون من نوى وأحجار ؟
ويحمل بضمهم منها طوية الأعمى ، وهي مدحته لثني (سل الله عليه وسلم) .
ألم تنتفض عينك ليه أرمدا وبنت كما باتت السليم مسدا
وطوية الثانية :

يا دار مية باللياء فالمدد أوت وطال عليها سائنا الأمد
ويضمهم يحمل منها قصيدة عبدة :
أفتر من أهله ملحوب فالتطبيسات فالتنوب
وبعض الرواة يرى أن اللغات كان ويحملها بضمهم عشرا ويسمونها قصيدة
الأعمى « ودع هريرة » .

على أن المتأخر أنها سبوح ، وأصل منشأ الزيادة أن بعض الرواة كان يرى نيا بضمه
من التصائد ملامح التقديم وسمات التجميع على بعض ما اعتبر ، فيضيفها من نفسه .
وليس أدل على ذلك من اختيار قصيدة (ألم تنتفض عينك) وأدعاء أنها من اللغات
وهي إسلامية أشدت لثني سل الله عليه وسلم ؟ وهي مما لا يتعلق عليها خير التلويح
بحال لم يعرف أنها عانت على الكعبة ، أو قال مك : علفوا لنا هذه .

لم سميت هذه التصائد مملقات ؟

(١) يرى بعض التقديمين من أدباء العرب أن هذه التصائد التي جمعها حماد

الرواية سميت الملقات لأنها عانت على الكعبة تطليبا لأمرها وتنبها على خطرها ودلالة على مكانها من الفضل ومزاياها من الرمة وجلالة الشأن وعظمة القيمة .

ومن هؤلاء أحمد بن عبد ربه صاحب القند المرقد فإنه قال : « الشعر ديوان غاسة الرب وللنظوم من كلامها والتويد لأيامها والشاهد على حكمها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتمضيها له أن عمدت إلى سبع قصائد تحيرتها من الشعر القديم فسكتبها بآء الذهب في التياطل للدرجة وعلفتها في أستار الكعبة فنه يقال : مذهبة امرئ ، التيس ومذهبة زهير ، والذهبات سبع وقد يقال لها الملقات » .

ومن قوله هذا نرى أن الاسم الأجدد بها عنده هو للذهبات لأنها تكتب بآء الذهب في التياطل ، وإن تسميتها انزعت من تعلقها على الكعبة ، وابن رشيقي في كتابه السبعة يمتنع بتعلقها على الكعبة وإن كان يمكن الرأي الآخر القائل إنها لم تعلق على الكعبة .

يقول ابن رشيقي : « وكانت الملقات تسمى للذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فسكتبت في التياطل بآء الذهب وعلفت على الكعبة فذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان ذلك إذا استجيدت قصيدة لشاعر قال : علفوا لنا هذه لتسكون في خزائنه » .

ويقول ابن خلدون^(١) : « إن العرب كانوا يطلقون إشاراتهم بأركان البيت الحرام موضع حجيتهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس والناينة وزهير وعنترة وطرفة وعاتمة والأعشى وغيرهم من أصحاب الملقات السبع ؛ فإنه إنما كان يتوصل إلى تعلق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعسبيته ومكانه في مفر على ما قيل في سبب تسميتها بالملقات » .

فإن خلدون يرى أنها سميت كذلك لتعلقها بأركان البيت الحرام وإن كان يبدو من عبارته أن الذي علق أكثر من هذه السبعة ، ولعله يرى أن هذه السبعة أفس

(١) للخدمة ص ٨١ .

وأروع ما خلق .: بيد أننا نختلف مع ابن خلدون في أن الذي يتوصل إلى الصليق من له قدرة على ذلك بتوته وعصبية ومكانته في مضر، فإن الذي يبدو نياً أثر من الشر الذي خلق يعتمد لذلك على قوته القانية ومكانته الأدبية لا على حية وعصبية .

ويرى البندادي صاحب خزنة الأدب أنها سميت مقلات لتقليتها على الكعبة . . يقول : كان العرب في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يبيأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان نغراً لئامه وعاقب على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وإن لم يستحسنوه طرح وذهب نياً بذهب ، قال أبو عمرو بن العلاء (للترقي سنة ١٥٤ هـ) : وكانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحلى من قريش . (ب) وأسكر بعض الأدباء تقليتها على الكعبة وحجبتهم في ذلك :

١ - أن خير الصليق وصل إلينا مبهما غامضاً لم يبين كيفية الصليق ولا زمانه ولم يكشف عن الذين كتبوها أو اللوك الذين أمروا بتقليتها أو الحكام الذين حكموا لها بالتبوق والتقدم .

٢ - وأن الكعبة قد هدمت وجرده بناؤها على عهد رسول الله ﷺ ولم يذكر شيء من هذه المقلات ولا مما أسأله .

٣ - وأن العرب ما كان لهم أن يندسوا الكعبة بما كان يشيع في هذه التصانيد من فسوق وهجر وخس وحم الذين يظلمونها ويحجون إليها .

٤ - وأن الأشعار الجيدة التي أثرت للعرب كثيرة فلماذا لم يؤثر خير الصليق إلا لهذه التصانيد ؟

وزعيم هؤلاء أبو جعفر النحاس أحد فراع المقلات فهم يقول : إن خير تقليتها على الكعبة لا يبرته أحد من الرواة وإن جاداً حين رأى سدوف الناس من الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه التصانيد السبع ، وقال : هذه هي المشهورات فسميت التصانيد المشهورة ، ويرى أن تسميتها بالمقلات يرجع إلى أن اللوك كان إذا استحسن قصيدة

قال: علقتنا لنا هذه وأجفوها في خزائن . فإن النحاس يرى أنها كتبت وعلقت وإن
كان ينكر تعلقها على الكعبة ثم لا يذكر من هو الذي كان يستحسن التصيد
ويأمر بتعلقها في خزائنه .

ويرى المستشرق الألمان الأستاذ لودفيك أنها لم تعلق على الكعبة كما يقال وأن
الملفات منهاها اللتخيات وإنما سماها جامعة بهذا الاسم تشبيهاً لها بالبلاد التي
تعلق في النحر واستدل على ذلك بأن من أسماء السموط ومن مساكن السموط القلات .
ويرى هذا الرأي كذلك الأستاذ الفرنسي كليان هيار مؤلف كتاب الأدب
العربي .

ويرى الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندري أن السبب في تسميتها بالملفات أن العرب
لم تكن تكتب في ورق وإنما لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدوناً وإنما كانوا يكتبون
في رقاع مستطولة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على
عود أو خشبة وتعلق في جدار الزواجر أو الخيمة بيده من الأرض حرصاً عليها من
الغرض أو نحو ذلك من دواب الأرض فأدول قوله تعالى : (يوم تطوى السماء كطى
السجل للكعب) إذ يظهر أن السجل ومناه المحببة أو الكاتب الذي كان يعلق
الكعب أو يطويها لله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه . وترى مع
هذا لا تقتصر أمر التعلق على هذه القصاصات فقط بل كان كل شاعر يحرص على أدبه
ويحفظه بشعره بلجاً إلى مثل هذا الصنيع .

ويحصل الأستاذ الروح مصطفي الراسي علة قوية جديدة على خبر تعلقها على الكعبة
ويقول ص ١٨٨ ج ٣ : ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعلق
ولا سمى تلك القصاصات بهذا الاسم كالملاحظ والبرد وصاحب الجهرة وصاحب الأتاني
مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نقلاً وأبياتاً منها وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأتاني
التوفي سنة ٣٥٦ إن عمرو بن كلثوم قام بتصيدته خطيباً بسوق عكاظ وقام بها في موسم
مكة . فلو كان خبر التعلق صحيحاً لما نراه أن يقول فكيفها العرب وعلقتها على ركن
من أركان الكعبة .

ومن العجيب أن يدعى الرجوم الزاني أنه لم يرأحداً عن يروثي بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليل مع أن ابن رشتين يقول إن خير تليقتها على السكينة ذكره غير واحد من العلماء .

(ج) هذا وقد رأينا فيما نقلنا من أقوال المارثيين لخير التليق حلة قوية عذيفة عليه . . والأمر فيما أرى أهون من أن نحصى له الحيلة ونحتمد في سبيل دمه هذا الاحتشاد .

فالمرب كان من عاينهم إذا أرادوا أن يوتفوا أمراً أو يؤكدوا عهداً كثيراً به كتاباً وعلقوه في جوف السكينة تظليفاً لشأنه ، اليسوا قد شاهدوا أو اتفقوا على متاملة بني هاشم فلا يتكلمونهم ولا يبيرونهم ولا يجتمعون منهم وكثيراً بذلك وثيقة ثم علقوها في جوف السكينة تركيزاً لهذا الأمر على أنفسهم ، وما الذي كان ينتمى من تليق هذه القصائد وهم يرونها كتابهم الخالد وأسفارهم التي تتعلق بعجدهم وتملأ عن مناقبهم وتشيع بين الأنام مفاخرهم ؛ ولقد كان ابن عباس يجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة مع ما فيه من غزل لا يقل عن غزل امرئ القيس ؛ وهذا عمر بن الخطاب يشكر على حسان إنشاده الشعر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له : دعني فلقد كنت أشد فيه من هو خير منك فلا يغير على شيئاً . ولو كان يؤخر هذه الطوال عن تليقها عدهم ما يبدو فيها من غش وما يشيع من فجر ، لأخرها ذلك عن الشهرة وعالها عن الانتشار وخاصة عند أشرافهم وعلائقهم والتوقيرين منهم ، وليس يحتمل أن يدعى حاد الراوية أنها علفت ليلت الناس إليها ويدلهم على مكانها من البيان ومزائها في البلاغة بتل هذه الدعوى فإن ما تنتم به من إسراق وإبداع وسر كليل يجعل القلوب تتعلق بها والأبصار تلتفت إليها .

ولقد أسكر بعض الأدباء حمة نسبة هذه القصائد لقاتلها وادى أنها منجوعة وضما أمثال حاد وخلف الأحمر . وهو شك لا يقوم عليه دليل ولا يستند برهان

من نخل أو تاريخ أو تكمير سليم . فقد يستمخ النخل أن تنحل أبيات في قصيدة أو قصيدتين لشاعر ، أما إن تنحل مثل هذه القصائد كلها وتنسب إلى هؤلاء الشعراء فأمراً يحبه النخل وأباه المطلق الصحيح .

والذي نستطيع أن نخلفس إليه من كل هذه المارك أن هناك قصائد سيمياً أجمع الرواة على نحلها وفوتها وارتقامها من جميع ما أثر للرب من شعر وما جمع لهم من قصيد وأنهم سموا هذه القصائد الطوال أو اللغات أو الذهبات أو السموط .

- ٤ -

ولقد صرح هذه القصائد أبو بكر البطليوسى التوفى سنة ١٩٤ وأبو جعفر ابن النحاس للتوفى سنة ٣٣٨ هـ وأبو علي الصالبي التوفى سنة ٣٥٦ هـ وأبو ذكريا بن الخطيب القيرواني سنة ٥٠٢ هـ والمديري صاحب حياة الحبسون والوزني التوفى سنة ٤٨١ هـ . وهي مشروحة في كتاب الجهرة .

- ٥ -

والناظر في هذه القصائد يروعه ما آتاه به من قوة السبك وتلاحم النسخ وجوده الصوغ وحسن البيازة ولطف المنى وصور الأسلوب وتصورها الرائع لجياة العرب وما كان يفتخرها من أحداث ، ويخلفها من وقائع .

كأنما نزلها الذي لم يسبق في قصائد الجاهلين وتعدد أعراسها وتفرع مناجيها واشتغالها على كثير من الماني التي نخل أن تحشد في غيرها من القصائد فنزلها من الشعر الجاهل مائة في أصل مكان وأسس منزلة وأرفع ذروة .

عرض عام للملقات

ملقطة امرؤ القيس

- ١ -

امرؤ القيس بن حجر الكندي إمام الشعراء الجاهليين . وأملوهم قصيداً ، وأبرهم اختناً ، وأوسمهم ميداناً . نشأ نشأة مترفة ، إذ كان أبوه ملكاً على بني أسد فنبأ له من أسباب الدهر ما جده يبيع إلى الجون ، وبألف الملاحة ، ويدمن الخمر ، ويصكف على منازلة النساء ، وقد شاق أبوه بذلك فطرده ، وظل سادراً في لوه حتى قتل أبوه ، فألق من بيت الشباب ، وظل يطالب بنأر أبيه في رشد وعقل إلى أن مات . وقد فتح في الشعر أبواباً جديدة في التزل ووسف الخيل والعيد والنساء . واشتهر بكثرة التشبيهات المترعة ، كتشبيه النساء بالقباء والبيض ، والفرس بالعقاب . وهو أول من تيد الأوبد ، ووقف واستوقف ، وبكى واستبكى .

أما ملقته فقد قالها في زمن لوه وجهه وجمره قبل مقتل أبيه ، فهي سورة لحياته الأولى ، تبيض باللوه والجوف ، وتنسخ بالتشبيهات الرائجة ، والمانى البقكرة ، والوضوحات المبرعة .

ويقول الروزني إن سبب إنشاد هذه القصيدة : هو قصة غدير دارة جلجل حيث كان امرؤ القيس يحب ابنة عمه حفزة ، فتركها تستقم في هذا التدبير مع أتراب لها وجمع ملايين ، ثم لم يعلها لمن إلا بعد مرورهن أمامه عاريات ، ثم ذبح لمن ناتهه وقسم متاعه عليهن بمملته ، وركب مع حفزة في هودجها .

- ٢ -

وقد بدأ امرؤ القيس ملقته بكاء العيار : « فنا نيك الخ » ثم يستمر في وصف العيار وآثارها حتى يقول :

وقرفا جيسا صبي على مطهيم بتولون لانتبهك امسى ونجمل
وايث شفاي عبرة مهرافة قبل عدد رسم دارس من سمول^(١)
ثم بصفت ذكريات لغوه وعينه فيقول ليا يقول :
ويوم عقرت للذاري معاني نيا نجيا من كورها للتصل^(٢)
فظل الذاري يرتين بلحميا وشحم كدياب القمقي للقتل^(٣)
ويوم دخلت المسدور عذيرة فقالت لك الفيلات إنك مرجلي^(٤)
تقول^(٥) وقد مال التبييط باناسا عقرت بييري وامرا القيس فانزل
فقلت^(٦) لها سيرو وأرخي زمانه ولا تبديني من جياك اللال
فتكك^(٧) جلي قد طرقت ومرشع فألحنيا عن ذي تمام حول
ثم يستمر في غزله :
أقطم مهلا بعض هذا التذلل وإن كنت قد ازهدت صرى فأجلى^(٨)
فإن تك قد ساءتلك مني خليفة فلي تياي من تيايك تمل^(٩)
وما ذرفت عيناك إلا لتضري بسهميك في أحشار قلب مقل^(١٠)
إلى أن يقول :

تشي . الظلام بالشاء كأنها مارة حمسى راهب متجمل

- (١) مهرافة : مرارة مكتوبة . لغول : اللسان به .
(٢) لطيبة جتا : القاعة . الذاري : الأبيكار . الكور : الرجل . التصل : المحول .
(٣) حجاب القمقي : أطراف الفرز . القتل : القتل .
(٤) المرد : الفوج وهو في الأصل النار . عذيرة : اسم محبوبته . مرجلي : فاضل بيديجالي .
(٥) التبييط . الرجل : عقرت بييري : أدبيت طوره لعله .
(٦) البلي : الفز . اللال : التي جتي مرة بعد مرة .
(٧) حول : مفس عليه حول .
(٨) أزعج الأمر : تبت مزبه على إسنائه . الصرم : الجير . الإجمال : الرقي .
(٩) الخليفة الجية . الثياب هنا : القلب . تمل : تسقط .
(١٠) طرف دمه : سأل . السهبان هنا هما النيران . الأعتار : أجزاء الجوز التي ينثر
في ليسر يأخذ منه السهم للقتل سبعة والرقيب ثلاثة . مقل : أهلكك المقل .

- تمت محابت الرجال من الصبا
أفرك منى أنت جيك قاتل
وليس تؤادي عن هواك بمسئل^(١)
وأذك منها تأسرى القلب بمسئل
ثم يصف الليل وطوله فيقول :
- وليل كوج البحر أرغى سدوده
نقلت له لدا تملى بملبه
على بأنواع الموموم ليحسئل^(٢)
وأردف أجزاً وناء يكسئل^(٣)
ألا أيها الليل الطويل الأناجيل
يبيع وما الإسياح منك بأمثل
نبا لك من ليل كأن نجومه
يكل منار النمل شدت بيذبل^(٤)
ثم يصف فرسه فيقول :
- وقد أنتدى والظير في وكلماتها
مكر مفر متبل مدير مما
بمجرد قيد الأوابد هيكل^(٥)
يكلود سخر حظه السيل من حل^(٦)
ثم يذكر السيد وطهى العظيمة له وسط الصحراء :
- فظل طيابة اللحم ما بين منضج
سيف شواء أو تدبر مسجل^(٧)
ثم يصف البرق والظفر في عذوبة وسحر وجمال وقد تقدم في التناجج .

ملققة زهير

- زهير بن أبي سلمى الزبي القسري . نشأ في بيت شعر ، إذ كان أبوه شاعراً وأخته
سلمى شاعرة . وتخرج على خاله بشامة بن الندير الشاعر وعلى أوس بن حجر . فكان
(١) تمت : تكسفت وأزامت . محابت : حلاوات وفوايات . مسئل : سأل .
(٢) الموموم : النور . يمل : يخبز .
(٣) الملب : الظير . الأجز : للآخير . الكسئل : المصير . ناء : نهس .
(٤) منار : عجم حديد . بيذبل : اسم جبل . يصف نجوم الليل بالثبات .
(٥) وكنت : جمع وكلة وهي النسي . شجرد : فصيل الشمر دقيقه . الأوابد : الوحوش
القردة .
(٦) مكر مفر : سرهم السكر والتمر ، حل : فرق .
(٧) العظيمة : جمع طلاء وهو اللباج . لم سيف : صف على النار ليذوى أو ليقتس ليهدد .
تدبر : مطبوخ في القدر .

من فعلول الشعراء الجاهليين ، وأعلمهم قولاً وأكثرهم تهذيباً لشعره . واختص بمدح
هرم بن سنان ، وانتاز شعره بكثرة الحكم والأمثال ، وبالإيجاز والتجويد والتفصيح ،
وقد عرف بالدج والحسكة . وقد فسّنه عمر لأنه كان لا يماثل بين القول ، ولا يتتبع
الحوصى ، ولا يقول إلا الصدق .

إنما مصلته فوضوعها الدعوة إلى السلم والتفكير من الحرب ومدح هرم بن سنان
والحارث بن عوف لسميها في الصلح وتحميلها الذب في حرب داحس والغبراء .
وهي من روائع اللغات ، وأبلىها غرضاً ، وأعلمها قولاً ، وأكثرها حكمة .

بدأ زهير مصلته بذكر الفيلار وزارته لفسا ووقعه بها بعد عشرين عاماً طويلاً
يتذكر جهود سيده ، قال :

أمن أم أوق دمنة لم تسكنم بحسونة الدراج فالتقم^(١)
وقلت بها من بعد عشرين حبيبة فلأياً عرفت الفيلار بعد توم^(٢)
فلما عرفت الفيلار قلت لربها : ألا انتم سبأها أيتها الزرع واسلم
ثم أخذ يصف النساء اللاتي ارتحلن منها ، فيقسن بصره كثيراً حزناً ، ويصف
الطريق التي سلكتها ، والموادج التي كن فيها ، واليهاء التي زلتها في غفوية وسهولة
وجمال . . إلى أن يقول :

فلما وردن النساء زرقاً جامه وشنن عصي الحاضر التضم^(٣)
تذكرني الأحلامليل ومن تفتت عليه خيالات الأبية بحلم

(١) أم أوق : عبوة الناصر . دمنة : آثار الفيلار . تسكنم : تكلم . حوسنة الدراج والتقم :
موضان .

(٢) الحبيبة : السنة . أياً : أي بعد ألى وشفقة . توم : طن .

(٣) جام الله : ما أبيض منه . والجمام الزرق : المياه الصافية . وضع النسي كتابة عن
الإهبة . الحاضر : التازل على الماء . التضم : التضم .

ثم انتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بحقيقتها الكريمة في إيقاد السلام ، وإطفاء الحرب بين عيس وذيان ، ومحملها ديات القتل من مالها وقد بلغت ثلاثة آلاف بئر . قال :

سعى^(١) ساهيا غيظين مرة بعدما تيزل ما بسين الشجرة بالدم
فأقسمت^(٢) بالبيت الذي طاف حوله رجال بلوه من قريش وبجرم
يمشا لهم السيدان وجسدنا على كل حال من سجيل وسيرم^(٣)
تداركتنا عيسا وذيان بسهما تمانسوا ودقوا بينهم عطر منقم^(٤)
وقد قلنا إن ندرك السلم واسما بمسال ومروف من الأمر نسلم^(٥)
فأصبحنا منها على خسير موطن بسيدن فيها من عقوق ومسام^(٦)
ثم ندد بالحرب ووسف نفاثها ، ودعا إلى السلم وأكدّه وأوجبه على الصحارين .

قال :

وما الحرب إلا ما علمتم ودقم وما هو عنها بالحديث الرجم^(٧)
معى تبتوها تبتوها ذبيحة وتضر إذا غريقتوها لغضم^(٨)
ويصيح قومه بأن يقوا على السلم ، ويعدد بالحسين بن مضمم ويأثّر عمله في صبيح
الدم وإيقاد نار الحرب ، وكان الحسين حين أجمع القوم للصالح قد حمل على رجل له
عنده ثأر في الحرب قتله ، ويميد التنويه بالرجلين اللذين احتملا ديات القتل واحداً
واحداً على غير جريرة كانت منهما .
ثم انتقل من هذا المجال، مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام إلى مجال الحكمة

(١) غيظين مرة من لفظان اسم جد القبيلة - تيزل : تضر - الساعيان : طاهرم والحارث .
(٢) البيت : السكبية - (٣) السجيل : حشد الدم - والبرم ، القبول ، والسجيل كتابة
عن الرضاء والبرم عن التندة .
(٤) منقم : امرأة من خزاعة كانت تبغ عطرا فلما أطروا اشتدوا منها كلفوا لولاها .
(٥) واسما تمكنا أو خالسا - (٦) العقوق : فطية الرسم - الأثم : الإثم والعدوان .
(٧) الرجم : المظنون - (٨) غريقتها لغرم أي هجمته نجاح - لغضم : تغرم : تغل .

الإنسانية العامة ، حكمة الرجل الحرب للحياة الذي ذاقها وخبرها وعاش في خضنها
ثم امتد به العمر بزهدا وانصرف عنها قال :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستنن عنه ويضم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يفرس بأذياب ويوطأ بحشم^(١)
ومن يجمل للرفوف من دون عرضه بقره ، ومن لا يتق القشم يشتم^(٢)
ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإرت عاظا تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يمش ثمانين حسولا لا إياك يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله وانكفى عن علم ما في غد عم
وأيت الناي خبط عشواء من نصب نخته ومن تحطى* يصر فيهرم
ويحتمها بتأكيد معروف السيد بن المدوحين عليه فيقول :
سألنا فأعطيتم وعدنا فسدتم ومن يكثر التسأل يوما سيهرم

معلقة طرفة

- ١ -

طرفة بن العبد البكري أحد غول شعراء الجاهلية، مات أبوه وهو صغير، وورثه
أعمامه، فنشأ ميالا إلى البطالة والتهو والخر ، يقول الشعر ويهجو الناس واللوك ،
وقد اتصل بصبر بن هند ، فأكرمه ، ثم تآثر عليه فقتله . وهو من أوصاف الناس للناقة،
وقد ات الشباب . وكان يميل إلى التريب من القنظ . وقد اشتهر بلوسف والحسكة .
أما مملته فهي أطول السلدات ، إذ بلغت أبيتها خمسة ومائة بيت ! وتحتاز
بالابتكار في الباني والسبولة في الألفاظ ، ما غدا وصف الناقة ؛ وهي على العموم تصور
حياة الترف والثقة وعدم اللبالة .

(١) المسألة : المارة - يفرس : يضيغ بالأضراس - القشم : الحافر .
(٢) بقره : أي يصونه ويقيه .

وتمتاز اللقطة بوفرة ممانيتها وتنوع أعراسها وجمها بين السهولة والثرابة في القنط ،
وبين الرفة والثانة في الأسلوب ، وبين الحكمة والبهو والمجد والمزج في التبع
والحياة ، وتصور الشاعر وحياته وأمانيه ومطامحه وقناته ولموه وبشته والحياة فيها
تصويراً جميلاً رائعاً رائعاً بالتأخذ الفعلة والإحكام والجمال .

بدأها الشاعر بالنزل نذكر أطلال خولة محبوبته ووقف عليها وبكائها :
تلوثة أطلال بريقة تهمد تلوح كياتي الودم في ظاهر قيد
وقفاً بها صبي على مطيم . يتوارن لا تهتك أسي ويحقد
ثم يذكر قباب خولة وهي طائعة وبشبهها بالسنية تشبهاً جميلاً قوياً :
كأن حدوج الالكية غدوة خلافاً سفين بالواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجود بها اللاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الله حيزومها بها كأنهم التراب المايسل باليد^(١)
ثم يصف جمال محبوبته وينشأ نعتاً جميلاً قوياً مؤثراً عذياً يدل على امتلاء نفسه
بالحب وهي خنتوعه لأسر الجلال :
وفي الحى أحوى يتفنى الرشدان مظاهر سملي لؤلؤ وزبرجد^(٢)

(١) المدوح : القباب الالكية من خولة . الملايا : مع خلية وهي الهيئة الكبيرة .
التواصف : مجازي الله لك البحر . دد : أرض منروية . وعدولية : أي قديمة ، وهي الكثرة
من السن ، وتكتب لك موضع يقال له عدول . وابن يامن : ملاح قدم من أهل البحرين .
تجود : يذل ، يهتدي : أي يعرف طريق السير .
حباب الله : طرائفه وما ارتفع منه ، الخيزوم : الصدر ، القابل : الذي يجمع تريباً وضمياً .
فيه شيئاً مثل الخلة ويسمى التراب نمانين ويطلق في إحداهما لأن أماب ظر وإن أخطأ ضمير .
(٢) أحوى : أي لونه حمر ، وهي السودة . والراد : شجر الأراك . الشادن : وقد التبية
لما قوى ، سملي : شطلي . مظاهر : يتضح واحداً على آخر . اللؤلؤ والزبرجد : جوهران مروغان .

وتيسم عن المي كأن متوراً
ووجه كأن الشمس التبرداها
ثم يأخذ الشاعر في وصف نالته فيجيء به في لفظ تامض ، فيقول :
وإني لأمضي المم عند احتضاره
أمون كأفواج الأران نساتها
على لاجب كأنه ظهر بوجد
إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترزل وإن شئت أرقلت
على مثلها أمضي إذا قال صاحبي
وإن شئت لم ترزل وإن شئت أرقلت
على مثلها أمضي إذا قال صاحبي
وجاشت إليه النفس خوفاً وخذلة
مصابيا ولوأسمى على غير مرصد

ثم يقتصر الشاعر بنفسه ويبرخ لها ويصف ثورته وكرمه وقلاته وبعوته ولهو
بشرب الراح وائر ذلك كله في مكانته في بيئته ، كل ذلك في وضوح وسهولة فيقول :
إذا التورم قالوا من غي أشلت أمني
عديت ، ثم أكسل ولم أتبدل

(١) تيسم : يفتخر بها . المي : سواد في الكفة . التور : الأفعوان . أخله : توسطه وحمل فيه . حر الرمل : الثلج منه . الشمس : الكواكب الصغار من الرمل . الندى : من سعة الأفصوان يصنه بالندوة .

(٢) نلت : أملت . وداهما : بهماهما . يتخدد : يضطرب عن نصير فيه علقوق .
(٣) الموياء : الخليفة اللواد ، ويروي بوجاء وهي المبروة . مرهال سعة لثالة ، أي كثيرة الإزهار ، وهو عذبة النير .

(٤) الأيون : لأيونة النار . الأران : النايوت الذي تحمل فيه الثور . نساتها : زجرتها . اللاجب : الطريق الواضح . البرجد : كساء من أكبية التراب ، شبه استقامة الطريق بخط أبيض يكون في الكساء من العطن .

(٥) الأرفال : شرب من النير . اللد : اللوط . الحمصد : الحسك القل .
(٦) القمير في « منها » المنغزة والبرية .
(٧) باجست : عات . خاله : طن عنه ، ولو أسمى الخ أي ولو أسمى لا يرصد ولا يخالف .
(٨) أتبدل : أغير . الكسل : العجز .

ولست بحسب لال التلاح غائلة ولكن متى يسترند النوم أرتد^(١)
وما زال تشراي الخور ولاقى ويبس وإنفاق طريق ومطوى^(٢)
إلى أن تحاشي المشيرة كلها وأتردت إيراد البير اللبد^(٣)
رأيت بني غبراء لا يتكروني ولا أهل هذاك الطرف للدد^(٤)
ألا أيها اللأني أحضر الوغي وإن أشهد الذات هل أنت غلدي
فإن كنت لا تطع دفع ميني فدعي أبادرها بما ملكت يدي
ويعد بظانه اعتداداً كبيراً وبذكرها :

فلولا ثلاث هن من عيشة اللقي وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمن سبق الماذلات بشرية كيت متى ما نمل بالماء توبد^(٥)
وكري إذا نادى اللناق عنيا كسيد النفا - نيهته - للورد^(٦)
وتصير يوم الدين والدين مسجوب بهيكة تحت الطرف اللدد^(٧)
أي سرب الراح ، وركوب الخيل ، والهدوء مع امرأة جميلة .
ثم ينتقل إلى خطاب ابن عمه مالك :

قال أراي وأين عمي مالكا متى أدن منه يتأ عن ويعد
وأياسي من كل خير طلبته كأنما وشدهاه على ريس ملعد

(١) التلاح : الأرض الرطبة والنعشة ، والورد هنا الذي الثاني لأن البخل يمل في الأماكن للنعشة : التلا يراه أحد ، وأرى أنه يجوز أن يمل في الأماكن للنعشة حتى لا يمل إليه أحد .
(٢) الطرف : اللكسب . اللبد أو اللدد : اللوروث .
(٣) تحاشي : اجتنابي . المشيرة : بنو المم - أتردت : أهدت . اللبد : اللقال اللقل بالقران .
(٤) بنو غبراء : اللصوص . الطرف : بيت من بلد . يريد أنه لا يتكره مسكوك ولاغني .
(٥) كيت : غرة تقرب لقل اللورد ، نمل : أي يصب الماء عليها .
(٦) كرى : مطنى ، اللناق : الذي أشافقه اللقوم . اللجب : القرس اللوجبة اللالين ، اللبد : اللقب . النفا : شعر .
(٧) اللدين : اللطر اللفيف ، مسجوب : أي يوجب من وآء اللهيكة : اللالة الللق أو اللحاء .

فلو كان مولاي امرا هو غيره لمرح كروي أو لأظنرق غدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاعة على الرء من وقع الحسام للهند
ثم يعود إلى التحدث عن نفسه ووصفها بالقكاء والشجاعة، ويبدأ بحمته ويطلب
من ابنة أخيه مبد أن تسيكه إذا مات :
إذا مات فانسى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة مبد
ولا تجمليني ككبرى^(١) ليس هم كهسى ولا يبنى غنائى ومشمدي
وهو فى هذا البيت يبرض بابن عمه .
ويتقل إلى الحكمة . فيأتى منها بحكم رائحة وأمثال بلينة رويت على من
الزمان :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا وبأنتك بالأخبار من لم تزود
لمرك ما الأيام إلا عمارة فا أسطمت من مرورها فتزود
عن الرء لا تسأل وسل من قرينه فكل قرين يالفان يقتدى
لمرك ما أدرى وإنى لو أجل أى اليوم إقدام النية أو غسده
إذا أنت لم تنفع بولدك أهله ولم تنك^(٢) باليوسى عدوك فابعد

معلقة عنزة

- ١ -

هو عنزة بن شداد البيسى، أمه حبشية؛ وكان أبوه يده فى صفوف البيد، إلى
أن أطي فى حرب عيس مع طي، وكان سبباً فى نصرة قومه، فألقته أبوه به ثم تزوج
بأبنة عمه حيلة، بعد أن انتصر فى داحس والبيراء . فهو إذن فارس الشعراء وشاعر
الفرسان، وقد اشتهر بالجماعة والفخر والنزل .
ومسلته من أشهر شعراء وأرواحه، فهى تصوير لقصيدته وحبه وشجاعته .

(١) لكن عدوه : ألقى به الطب والقمر .

بدأها عنزة بالذوال في ابنة عمه جيلة ومخالبة دارها ذات الأكرات الجيلة،

قال:

هل نادر الشعراء من متردم أم هل حرفت الدار بعد نوم^(١)
بادار جيلة بالجواء تسكني ومن سباحا دار جيلة واسلي^(٢)
ومحل جيلة بالجواء وأهلنا بالمزقن فالضبان فالنم
واستطرد إلى وصف الروضة .

أو روضة أنفاً تمنين نبتها نبت قليل الثمن ليس يعلم^(٣)
جادت عليه كل يسكر حرة فستركن كل قرارة كالقروم^(٤)
وخلا القباب بها فليس يبارح غرداً كفضل الشارب الترم^(٥)
هزجاً يحك ذواحه بذواحه فذبح السكب على الزناد الأجدم^(٦)

ثم يصف نالته في أبيات كأبيات طرفة تعاز بالقرابة :

هل تيلقي دارها شديدة لعنت بمحروم الشراب معصوم^(٧)
ثم يقتصر بنفسه وشجاعته :

أني على بما علت تيلقي سهل خالطني إذا لم أعلم

(١) نادر : ترك . متردم : شيء يصلح لم يكونوا أصله . الترمج : الترمج .

(٢) الجواء : بلد في نجد من أماكن عبس . ومن : أي أسس .

(٣) الأنف : اللام في كل شيء . الذمن : النظر الخفيف . النبت : النظر اللطيف ذو العلامة .

(٤) جادت من الملود وهو الشعر الكثير . البكر : الضعابة في أول الربيع . والمرأة :

البيضاء القرارة : الفاح . وكالقروم : بيني في البياض والاستدارة .

(٥) خلا : غرد ، بارح . تارك : غرداً : متراكماً .

(٦) المزج : السرح الصوت . ذبح السكب : أي الذي أكب على الزناد بقدمه الأجدم :

مطلوع اليد .

(٧) تيلقي : توصلني . دارها : متراكماً . شديدة : نالته . لعنت : جف شرها . محروم الشراب :

أي خرب لا يشرب فيه . معصوم : جاف .

فإننا ظلت فإن ظلى بسل - مر مسدده ككلم العلم
وإذا صرت فإني مستهك - مال ، وعرضى وانر لم يكلم
وإذا صرت فإفصر عن ندى وكما علت شاملي ونكرى
ويستمر في الهويه بشجاعة إلى أن يتول :

ولقد ذكرتك والزمان نواهل من ويض الهند تنظر من دى
فوددت تبسيل السيوف لأنها لمت كبارق تترك التيسم
لا رأيت النوم أبسل جميع يتفامرون كورت غير مذم
يسمعون هنر والزمان كأنها إشطان بشر في إبان الأدم^(١)
ما زلت أرميهم بنثرة نحره وليانسه حتى تسريل بالدم^(٢)
تقزور من وقع القنا يلبانه وشكا إلى بسيرة ومحمم
لوكان يدري ما المحاورة اشتكى ولسكان لو علم السلام مكلم
ولقد شق نسي وأرا سديها قبل الفوارس : ويك عنتر أدم
ويغتمها بتهديد أبي ضمقم وكانا قد نذرا دمه وزبما له لأنه قتل أبهما في
الحرب ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدبر للحرب دائرة على أبي ضمقم
الشامى عرضي ولم أشتمها والهاذين إذا لم ألها دى
إن يفصلا فلتد تركت أبهما جزر السباع وكل نسر قشم^(٣)

(١) أعضان : حيان - إبان : صدر - الأدم : الفرس الأسود -

(٢) القرة : الهزيمة التي في الخلق - إبان : الصدر - تسريل : ليس السريال -

(٣) جزر السباع : أي طسة لها - القشم : الكبيير من القصور -

معلقة ليبيد .

- ١ -

هو ليبيد بن ذبيبة الباصري الضري، أدرك الإسلام، ولم يؤرعه فيه شعر الاكولة :
الحد لله إذ لم يأنس أجسلي حتى أكسبت من الإسلام سرابلا
وكان شاعراً مجيداً ، عهد له النابغة حين سمع معلقته بأنه أشعر هولان ، وقد
أجاد في الشعر والزمان ، وهو من السمرين ، توفي سنة ٤١ هـ .

- ٢ -

بدأ معلقته بيكاه الأطلال ووسلها فقال :

حلت البيار محلها فقامها يحيى تأيد غولها فرجامها^(١)
وجلا السيول عن الطول كأنها زبر تجسد متونها أعلامها^(٢)
فوقت أسألهما ، وكرب سؤالا سما خوالك ما بين كلامها^(٣)
ثم يصف رحيل أجيابه عنها حتى يقول :
بل ما نذكر من نوارك وقد أتت وتقطعت أسبابها ورامها^(٤)
مربة ، حلت بيدي ، وجاورت أهل الحجاز فأين منك مرامها^(٥)
ويرى أن يقطع أمه منها ويترك رجاء فيها ما دامت نوارك قد تغير ووسلها :
فقطع لباة من تعرض ووسله وكشر واسل خلة صرامها^(٦)

(١) حلت : درست . الجهل والتمام : موضع الخول والإفلسة . من : موضع قريب من
طلفعة . تأيد : توشح . النول : ماء معروف للتياب يحوف طلفعة به كحل . الرجام : جبال
بإفراة اليمن من حربة .
(٢) يريد أن السيول كسفت عن الطول فظهرت كالكتيب تبده طيورها . والزبر : جمع
زبور وهو الكتاب .
(٣) سم : جمع صباه . خوالك : بوان جمع خالدة . والفم البوان من الأثافي . بين : يظهر .
(٤) نوار : اسم حيوة . الرجام : جمع رمة وهي اللطيفة من الجبل البالي . يريد أن الوصل
تقطعت به الأسباب .
(٥) مربة : تشبه إلى مرة بن حوف . قيد : موضع في طريق مكة . مرامها : مبالغاً .
(٦) لباة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة بضم الخاء : الصدفة .

ثم يأخذ في وصف نالته في لفظ غريب وتعبير يدوي متين ؟ يطيل في هنا الوصف ، ويشبهها بالأمان الرحشية وبالظبية الرؤوم المجموعة إلى أُنث يقول :

فتفك إذ رقص القوامع بالضحي واجتباب أردية السراب أكلمها^(١)

أفضى البانة لا أفرط رية أو أن يلوم بحاجة نرامها^(٢)

أو لم تكن تدرى نوار باني وسال عند حبال جدامها^(٣)

تراك أسكنة إذا لم أرفها أو يرتبط بمش النفوس حامها

ثم يتحدث عن نفسه وهزتها ، وقادت الراح التي شارك نيمسا ، وشجاعته وطلوته في مواقف التزال والتمثال ، وكرمه وسخائه ونواله للجبار الفقير والضيف للفاقر والمجار التريب والباكين والساكين :

وجزور أيسار دعوت لطفها بمنساقن مشتبه أعلامها^(٤)

فالضيف والمجار التريب كأنما هبطا تباله غضبا أعضامها^(٥)

تأوى إلى الأظتاب كل رزية مثل البلية فالص أهدامها^(٦)

ثم يتفخر بقومه ومآثرهم ويرثمهم وعدمهم فيقول :

من مشر ست لم آؤوم ولشكل قديم سنة وإيمانها

(١) وصف : ارتفع - القوامع بالضم : بين الكل - اجتاب : ليس - أردية جمع رداء - السراب : ما يتردى السائر في الصحراء من شبه لاء مما يكون لازمة بالقيان - أكلمها : جمع أكله .

(٢) البانة : الحاجة ، لا أفرط : أي لا أترك - رية ، التلك والحانة : أن يلوم : أي أن لا يلوم .

(٣) أي أسل وألقت - وعما يتعب لا يرتفعه للبيوت في المب .

(٤) الأيسار : الذين يحضرون السنة ويفضون بالدهاج ، التلق : جمع سلاق وهو السامع من سهام البسر - مشتبه أي يشبه بضمه بضمها .

(٥) تباله : قرية في نجد مشهورة بالضب - أعضام : جمع حضم وهي بطون الأرض اللطيفة .

(٦) الرزية : الرأء التي قد أرمها عليها أي أمزغا - البلية : تالة الرجل تنقل عند قبره حين تموت - الأظتاب : حبال الصاليط - الأهدام : الخلفان - فالص : ضمير مرفوع .

فبدوا لهما بيتا رديسا سمكة ضبا إليه كهلها وعلامها
فلمسح بما سم اللبك فزأما فسم الخلاق بيتنا سلامها
وإذا الأمانة قسمت في مشر أوق بأعظم حظها خصامها
فهم السمة إذا الشيرة انظمت وهو نورسها وم حكلمها^(١)
وهو ربيع الجاور فيهم والمرسلات إذا تطاول عامها

معلقة الحارث بن حنظلة

- ١ -

الحارث بن حنظلة أحد غول الشعراء القليلين ، وأقدمهم على الارتجال ، وأبشهم
في الشعر .
ومسلته هي ومسلقة عمرو بن كلثوم فيأتنا في يوم واحد ، بل في مجلس واحد ، على
ما يقول بعض الرواة ، وإحداهما رد على الأخرى في المفاخرة فقد أشدنا في مجلس عمرو
ابن هند ملك الحيرة .

- ٢ -

بدأ الحارث مسلقته بالنزل فقال :
آذنتنا بيأهنا أسماء رب تلو يعمل منه التواء^(٢)
بعد عهد لنا بيرة شيا • فأدنى جازها انضمام^(٣)
ثم انتقل إلى وصف الفاقة فقال :
غير أني قد استعين على المم إذا خف بالثرى الفجاء
يزوف كأنها هفلة أم رثمال دويبة سقاء^(٤)

(١) الاسم : المصيح . انظمت : اجتمعت .

(٢) الإيذان : الإعلام . التواء : الإهانة . (٣) مواضع .

(٤) الزوف : السرية . الملق : النامة . الرثمال : جمع رثال وقد النامة : الهوية : نسبة
لدى الدو : أي القفازة . سقاء : طوبى في المنام .

ثم ينقل إلى الوشوح يقول :

إنت إخواننا الأرقام بنسار
بمخاطون البرىء منا بنى الدار
أجمروا إمرم عشاء ، فلسا
من مناد ومن عيب، ومن تمد
تت علينا ، ق قبايم إحناء^(١)
ب ولا يقع الخلل الخسلاء^(٢)
أصبحوا أصبحت لهم شوتاه
هال خييل خلال ذلك رعا
ويرد على عمرو يقول :

أيها الناطق الرقص عتسا
يقينا على غرائك إنا
يقينا على الشفاعة نعد
ثم يمدح الملك عمر وين همد حيناً ويستمر في هجاب إخوانه من ثلث حيناً آخر :
ملك مقسط ، وأفضل من مد
أيما خطة أردتم فأدو
عند «عمرو» وهل قالك بقاء^(٣)
قبل ماقد وهي بنا الأعداء^(٤)
منا حصون وهزة عتساء^(٥)
ي ، ومن دون ماقيه التناء^(٦)
ها إلينا تعنى بها الأملاء^(٧)
ويسير على هذا النهج من الدح والقتاب .

ثم ينتخر بقومه ومجدهم وأيامهم في سدق وجمال وفرة عاطفة :

هل علمت أيام ينهب لسا
إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي يصح لنا أن ندهها ملحمة شعرية مصفرة تنطق
بمجد بكر ومفاخرها في الحرب والسلام في الجاهلية .

(١) الأرقام : بطون من ثعلب . الخيل : القوم . إحناء : إحناء .
(٢) الخلل : الخلل . الخسلاء : الخسلاء .
(٣) الناطق الرقص : أي الواسع النطاق أكاديبه ووعاياته وأباطيله .
(٤) المراد : اسم يسمي الإفراس . (٥) الشفاعة : الشفاعة . تنبأ : ترضنا .
(٦) مقسط : عادل .
(٧) الملحمة الأمر العظيم الذي يحتاج إلى الفخر منه . أموما أي فوضوما . الأملاء :
الجماعات من الأشراف .
(٨) النوار فللوازة . النوار صوت القتب وهو ستمار فضجج والصياح .

معلقة عمرو بن كلثوم

- ١ -

عمرو بن كلثوم سيد نخل وقارسها ، وأحد فناء العرب وشمراتهم الشهورين
بضميدة واحدة ، والمجيدون للنصر ، ويمتاز في شعره بالبدئية والأرجال ، وأسلوبه
السهل الواضح المذهب .

ومعلقته مشهورة بالرفة والسلاسة والسهولة ، وهي في المخر ، ولكنه ألغ فيه
في أبيات كثيرة منها . ويقول ابن قتيبة : إنها من جيد شعر العرب .

- ٢ -

بدأها عمرو يوصف الجمر ، ولم تبدأ قصيدة يوصف الجمر في الجاهلية إلا هجسته
القصيدة فقال :

إلا هي بصحنك قامبجينا ولا تبق غور الأندونا^(١)
مشمشة كأن الحس فيها إذا ما الماء خالطها صخينا^(٢)
صدت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس جرهاا الجينا^(٣)
وما نسر الثلاثة أم عمرو بصاحك القى لا تصبجينا^(٤)
وكأس قد شربت يصابك وأخرى في دمشق وقصرينا^(٥)
إذا صدت حياها أريسا من التبان حلت به جفونا^(٦)

ثم يأخذ في النزول ووصف محبوبته وجمالها :

فمن قيسل التفرق يا ظبينا تحريك القيسين وتحبرينا

(١) هي : استيقظ . الحس : الفصح الرئيس . أصبجينا : اسبينا الصبوح وهو التعرب
في القعدة . الأندونا : جمع الأندور وهي قرية بالشام معها بضمها بالموالها .
(٢) مشمشة : متزوجة . الحس : الروس . صخينا : جدها وتكرمتنا من السخاء .
(٣) صدت أي صرفت . أم عمرو هي والدته .
(٤) أي لست أنا شر الثلاثة تصدق من الكأس .
(٥) بلاد مروية . . . (٦) صدت تصدت . الحيا صورة الراح . الأربى العاقل .

فنى نساءك هل أحدثت صرماً لو شك العين أم خنت الأملينا^(١)
أى ليسل يمانين أيرها وإخوتها وم لى ظالمونا
ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ومجدهم وعزتهم ، ويهدد الك محرو بن هند وينذره
ويوجهه في أساليب قوى جزل مع عنوية وجمال ، والظاهر أن ذلك كان أيام التحاكم
إمام محرو بن هند والفاخرة بين تنلب وبكر :

أبا هند فعلا تنجل علينا وأنظرونا تخبرك اليقينا
بأنا نورد الزايات بيضا ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا عز طسوال عسبنا لك فيها أن ندينا
ورثنا الجسد قد علفت ممد نظامن دونه حتى بيينا
والجزء التالي من السلسلة يبدو أنه نظم يمد قتل محرو بن هند ، وهو :

بأى مشيئة محرو بن هند تطيع بنا الرشاة وزردينا
نهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأملك مقتوننا^(٢)
وأن فناننا يا محرو أعبت على الأعداء قبلك أن تلبنا
ثم ينتقل إلى ذكر وقائع قومه منقشراً بها على بكر ، ومنها يوم خزاي ، ثم
يختصمها بنفخه القوي ، ومنه :

وأنا الخاكون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا النازلون بكل نمر يخاف النازلون به القوسا
إذا ما لك سام الناس خسفاً أيينا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهان أحد علينا فنصجل فرق جهل الجاهليينا

(١) الصرم : المبر - الزهفة - السرمة - العين - القران - الأئين : القوق بيده -
(٢) أى خسا جهر يفتو وهو الخادم .

٢ - مدرسة الشعراء المعاليك^(١)

شعر المعاليك ، هو نوع من الفنون الأدبية الصادرة عن تلك الطائفة الخاصة من الشعراء الذين تميزوا بالشجاعة والحمية في فلولهم ، والقوة والفتوة في أجسامهم ، ولشكهم كانوا اقراء ، سألوا بالحرمان ، وتجرموا بالفرح وحقدوا على الأعداء وتلوا على الأنظمة الآلية المتبينة ، فراحوا يفتنون - عن طريق الترة والبطلان - بما حرموا منه ، ووجدوا السادة كل السادة في أن يتأروا لأنفسهم والفتراء من أنظارهم من ذوى القنى واليسار ، وقد وحد بينهم الحرمان وألب بينهم البدا . فسطف بعضهم على بعض وتخاصروا فيما بينهم ما كانوا يفتنون ، وقد آوى بعضهم المعاليك العاجزين مما قدروا عليه من السلب والنهب كبروة بن الزرد الذى يقول فيه عبد الله بن مروان : من زعم أن حاتمًا أصبح الناس فقد ظم عروة بن الزرد .

وقد عرف هؤلاء بالشعراء المعاليك أو القصرى أو الدائين ، ما كانوا يحفلون به من مرفة الحركة والنظفة ، وشدة العدد والخبرة بدروب الصحراء ، ومن أشهرهم فى العصر الجاهلى : عروة بن الزرد ، وكان يلقب بعروة المعاليك ، لأنه كان يجهم ويقول بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا منزى ، ومنهم تأبط فرس^(٢) والشعري ، وسليك بن السلكة .

وكانوا يفتنون بالصلصلة لأنفسا - فى نظرم - شيمة الشجمان والأقوياء ويشتنون بالأئمة والكرهم والفة وشفة الأيس وقوة للشكبية وعسقم الخوف من

(١) فى القاموس - صلصلة : أفترو ، والصلوك القير ، وتمسطقه: الفتر ، وفؤان الرب: لموصوم ومعاليكهم ، وكان الذى على الله عليه وسلم يستفتح بمعاليك الهاجرين : أى يستنصر بفرأهم ، فالصلوك : هو القير الذى لا مال له ، وقد تطور مدلول الصللة فيما بعد ، والشروب أن هؤلاء الشعراء المعاليك لم يكونوا اقراء حسب ، بل كانوا كصفه أقباء عجماء ، وكانوا يفتنون بالفروق بين الأعداء والفتراء - (٢) يقال إنه تأبط سكبياً ذات يوم وخرج فسمعت منه أنه ذكأت لا أمرى إنه تأبط شرأ وخرج ، اسم يلفه .

التهديد والوعيد ، كما كانوا يهاجون بتأمراتهم ويصرخون على الشدة ، واحتالم الجميع وإيتارم له على أن يكون لأحد نسمة عليهم ، والظاهر أنهم كانوا لا يجهلون إلا على البخل فقط من الأعتياء .

ولقد كان أحدهم أو أكثره مقطوعات لا تصائد ، ولعل مرّة ذلك إلى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس ، لم يألفوا التزهل والتزوي ، فجاء شرمم صورة من حياتهم . كما يتبرز أحدهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه نزول ولا بكاء أملاط أو نحو ذلك . وشرمم على الموم بصور شرباً من شروب الحياة المريرة ، ويسجل أعمالهم وعسايتهم ، فهو سدى للواقع ، وصورة للحقيقة ، ولهذا لا نجد فيه الشعر التزل ، وكيف يتزك من يتضى نهاره يترب ، وليله يترسد ، ولا يستقر في مقام^(١) . ولما يند شعر الصعاليك مرآة صافية تنسكس عليها حياة البادية . وهذه أمثلة لأشعارهم تنقل صورة عما كان يضطرم في مشاعرهم وإحساساتهم .

١ - من شعر تايبط شرمم^(٢) :

إذا الرم لم يخل وقد جد جدّه أشاع وطمى أمره وهو مدير^(٣)
وانسكن الخواطر الملقى ليس نازلاً به الخطب إلا وهو لتصد بمصر^(٤)

(١) راجع الأباي ج ٣ ص ٧٣ ، عافرات في الأدب العربي لشكوتور عبد الحميد السليوت .
(٢) هو تايبط بن جابر القوس ، وقوم : إحدى قبائل قبيل غيلان القصرية ، وقد نسجت حوله الأساطير ، والتروث منه أنه مداء واس من أرض القوس وأشدم تنكا ، وقد نزل في بلاد حذيل وري به في ناز . أما تناسية النس عند زوى أن بي لحيان أشتوا عليه طريق جبل وجموه فيه يحي عسلا ، ولم يكن له طريق غيره ، فأقبلوا عليه وفلوا : استأسر أو تنطق ، فشكره أن يتأسر وحب ما معه من السل على الصخر ووض نفسه عليه حتى النس لك الأرض من غير طريق ، فصار بينه وبينهم ١٥٥ أيام وعسا منهم .
(٣) الحياة : الخلق في تدبر الأمور ، والجد : الخلق أي أسباب حقا . والرائد : إذا تزل بالإنسان ما يكروه ولم يمتل في خلاصه منه أشاع أمره وطمى الأمرين في لإباروه .
(٤) الخطب : الكريب . والفتد : الرشد أي إذا انظرم هو الذي يند للامر قبل تروله .

عذاك قريع المحر ما عاش حول	إذا سد منه منخرٌ جاش منخر ^(١)
أقول للحيان وقد سمرت لهم	وطاين ويوي شيق البحر ممر ^(٢)
ما خلتنا إنا إساناً ومعة	وإما دم والتلل بالحر أجسد ^(٣)
وأخرى أسادي النفس عنها وإليها	لورد حزم إن نلت ومصدر ^(٤)
فرشت لها يدى نزل من الصفا	به جؤجؤ هيلٍ وبتنٍ غنصر ^(٥)
تظالم سهل الأرض لم يكدح الصفا	به كدحه والوت خزبان ينظر ^(٦)
فأبت ^(٧) إلى نوم وما كدت آتياً	وكم مثلبا فارقتها وهي تصفر ^(٨)
ويصف تأبط مرراً نفسه فيقول :	
قليل غرار النوم أكبر همه	دم التآر أو يلقى كيباً مستفماً ^(٩)
بيت يمتنى الوحش حتى ألقته	ويصيح لا يميم لها الدهر مرتما ^(١٠)
وأين فني لا صيد وحش يهيمه	فلا صاغت إنسا لصاغتة مسا ^(١١)

(١) قريع الدهر : الحرب للأموار ، الملوك : السير بتحويل الأحوال ويضد بقوله (إذا سد منه منخر) أي : أنه سرح الشغلي من التدهال وهو مثل يعلق لثقه .
(٢) لحيان : يطن من حنقيل ، سمرت : نالت . الوطاب : جمع وطيء وهو سفاهة اللحن ، وسيق البحر : مثل لصيق الخف ، المورد : المكشف المورد ، أي الأول لهم وأنا في هذه الخلة .
(٣) خلتنا : دنت خلة وحقت : التون الضرورة ، يريد إذا أسر وقتة وإما قتل وهو الجهر بالحر . (٤) أسادي النفس : أي أوبر الرأي وأندبر أسرى : أي وشلة أخرى وهي التوضع الذي يرده الحزم ويصدر عنه (وهي في البيت التالي) .
(٥) فرشت : بسطت ، والجؤجؤ : البيل المصدر الضخم أي أنه فرش لأجل هذه الخلة سدده على الصفا (البحر) وذلك حين صب الوطاب .
(٦) لم يكدح الصفا : لم يؤثر فيه . وينظر : يتحير .
(٧) فأبت إلى نوم : رجعت إلى البياض (نوم) . (٨) وكم مثلبا : وكما مثل هذه الرجعات تركت حديثاً وهي تأسف على أنها لم تنل مني شيئاً .
(٩) التآر : القليل ، والكسبي : الصجاج ، اللذيم : التغيير لون الوجه .
(١٠) يريد أنه طالت ملازمته للوحوش حتى ألقته ، فلا ينشأ من الرمي أنه لا تخالف منه لأن همه بصروقة إلى غيرها . (١١) وأت حسن فني لا يحضر صيده لها على بال ، طار كان في الإسكان أن تصالغ إنساناً لصاغتة معها من طول ما ألقته .

خصائص شعر (تأبط عُرا) :

التصريح شعر تأبط عُرا يمد خشونة في مانيه ومبانيه ، وتصويراً حسيماً صادقاً ، وتدفعاً طبيعياً على غير نظام ، اللهم إلا نظام الطبيعة العظيمة . أما الأوزان والنواقيح فهي مستقيمة وإن كانت شديدة تنصاع من خلالها موسيقى الصحراء ، فأدبه عامة فيه سذاجة نظرية حلوة ، وجو صحراري يضطرب فيه حيوان الصحراء وينابتها وغشها وبرقها . وهو - أدب في جملته - اعتراف في روح القصة واللحمة^(١) .

٢ - من شعر الشفري^(٢) :

للشفري شعر في الفخر والحجاسة والتهبزه ما يسمونه « لامية العرب » وهي قسيمة من ثمانية وستين بيتاً ، وهي وإن لم تكن ثابتة النسب إليه في جملتها ، إلا أنها تنطق بلسان الذاكرة الأولى وحياتة التشرد والتمسك . ومناسبة هذا النص أنه كان قد دخل البيظ نفس الشفري في أحد الأيام فأشهرها فنادى الأهل والأصحاب وراح يضرب في الدياق ، ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدته ينصب على قومه ويفضل ووحوش الصحراء عليهم ثم يفخر بنفسه ثم يسترسل يوصف الوحوش والليل والنهار وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة ، وفيها يقول :

أقيموا بني أمي سدور مطيبيكم نأى إلى قوم سواكم لأئيل^(٣)

فقد حثت الحاجات والليل مفرم وشدت لطبات مطايا وأرحل^(٤)

(١) راجع للوزير في الأدب العربي وتاريخه ج ١ ص ٧٦ ، وضع لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية ط دار للدارف ، وراجع تاريخ الأدب العربي . كارل بروكلمان ترجمة د . عبد الحليم النجار ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) هو ثابت بن أوس الأزدي ، من أهل اليمن ، وهو سدود من المدائن القرن لا نظمهم الخليل . وكتب بالشفري لعظم هفتيه . وكان مشهوراً ولغماً مرحوب الجاهب وأماؤه الجليل ، روى أنه طلب ليلتان مائة رجل من بني سلابان ، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتالوا عليه فأسكروا رجل منهم ثم قتلوه فر به رجل آخر منهم فرانس جيبته ، فقتلت هفتية منها برجله فأت ، ضمت القتل مائة .

(٣) أقيموا : أقصوا ، مطيبيكم : جمع مطية وهي الدابة .

(٤) سمر الأعر : فصي : اللطيات : جمع طية وهي البية ، الأرحل : جمع رحل وهو مركب قبيح ، ويريد بلونه والليل مفرم : أنهم لا يقدرون ولا ينجون منهم من أن يجهنوا في أمورهم .

وفي الأرض معاً الكرم من الأذى ولها لحن غاف التسل منزل^(١)
لمسرك ما في الأرض شيق على امرئ^(٢) سرى رانجياً أو داعياً وهو ينقل^(٣)
ولي دونكم إهلون سيد محلس وأرقط زهدلوق وعرة جيسأل^(٤)
م الأهل لا مستودع السر ذائع لهم ولا الجاني بما جر ينسأل^(٥)
وكل أبي باسل غير أني إذا عرنت أولي الطرائد أبسل^(٦)
وإن مدت الأيدي إلى القاد لم أكن بأجلهم إذ أجمع القوم أجمل^(٧)
ومسا ذلك إلا بسطة عن تغزل عليهم وكان الأفضل للتغزل^(٨)
وإني كغافى فقدت من ليس جزياً بحسى ولا في قربه متغل^(٩)
ثلاثة أصحاب : فؤاد مشج وأبيض إصليت وسفراء عيطل^(١٠)
هتوف من اللس القون بزئها رسائع قد نطت إليها ومجمل^(١١)
إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزاة شكلي زن وتمسول^(١٢)

(١) اللأى : الموضع البعيد ، الغلى : البعث وهدنة السكرانية ، التغزل : التمس .
(٢) لمسرك : كلمة تستخدم في القسم ، سرى : مشى ليلاً ، يريد : إن الأرض لا تغيب
بالمائل الذي يستعمل خلفه في كل أسوره رغبة فيها أو رغبة منها .
(٣) السيد : الأسد أو الثوب ، محلس : قوى سريع على السير ، الأرقط : أثر الأثر ،
أو مائيه سواد يتوجه قطب بيشاد ، الزعلون : الألسن العراء ، أثنى التذبح ، وأبائل ميم على الضبح .
(٤) يتزل : هؤلاء هم الأهل الذين يفتنون السر ولا يهتمون الجاني إذا أذب .
(٥) الأبي : من أبي تلك والقوان ، الباسل : الشجاع ، والطرائد : جمع طريدة وهي
ما يصطاد ، يريد أنه أحد بنات من الفرسان . (٦) الأجمع : الأشد طمأ .
(٧) بسطة الشك : الكرم . (٨) التغزل : التسل بالتمويه .
(٩) أصحاب : عامل كغافى في البيت السابق ، مجيم : شجاع الأبيض الإصليت ؛
البيف الصقول أو المرء من عده ، وسفراء عيطل : القوس العلوقة .
(١٠) هتوف : صفة القوس إذا أحدث صوتاً ، للس القون : أي صوتها وهي جوانبها مشاء .
رسائع : ما يرمى به من جوهر وثوبه ، نطت إليها : علفت بها ، الخمل : خلافة البيف .
(١١) زل عنها السهم : خرج منها بسرعة ، الرزاة : لصاية بالرزاهم الشكلى : التي فقدت
ولها ، حنت : صوت ، وعمول : رنمت صوتها بالكلام ، شبه رنين القوس إذا خرج عنها السهم
بيك المرأة لصاية بقتد ولها .

نظرة حول النص وسأجبه :

نرى في هذا الجزء من القصيدة مثالا لشاعر المعنى القديم الذي ألتب الخبايا
وعاصر الضواري ، نجاء شمره سورة لحياته ، وهو على خشوته صادق التعبير ، دقيق
في التصوير ، وهو شاعر والمضى ، يمثل البداية التي لم تمتد لها المدينة ، وقد نجح ذلك
في تصويره لأحوال ميسسته وإفارته .

ولا يختلف أدب الشعراء عن أدب تأبط بمرا مادة ونفساً وثوبنا عليا، وخشونة
الفاظ في رقة باطمة ، كما لا يختلف عنه تدخلاً فطريا والتصاقا بالادة ، وإبه أن التريب
أن نرى في مثل هذا الصلوك ذلك الاطلاق الفسائي وتلك الحكمة الطيبية وذلك
التطرف في الاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس . ولكنها النفس العربية في ضميرها
الشديد الوفاة وفي نبضاتها واختلاجاتها الكريمة الأخاذة على ما هنالك من قسوة
وخشونة^(١) .

٣ - من شعر عروة بن الورد :

مناسبة النص :

روى أن قبيلة (سمد) تهاجت عليها ستوات قحط وجوع ، وكانت (غطفان)
أحسن حالاً منها . وكان عروة بن الورد قائماً في بعض تلك السنين وقد أهلك هو
الآخر إليه وخيله ، فرجع ليبيد قومه في تلك الحال وقد تجمعوا في حظيرة لما أمرتهم
الساكب وقالوا: نوت فيها يوماً خير من أن نأكلنا القناب ، فأنام عروة وترع منهم
كديهم (الحظيرة من الشجر) وقال لهم : اخرجوا وهذه فلوسى ففقدوا لها واحلوا
أسلحتكم على هذه الفلوس حتى أصيب أسكم ماتهمشون به أو أموت ، فخرج يقصد أرض
فضاعة ، فرجلك بن حمار وقد ندم ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بنتيانك هؤلاء ؟
ارجع بهم تهلكهم شبية ، فقال: إن الشبية ما تأمرني به ، دعني أئس مساشا لي ولقوى
(١) راجع تاريخ الأدب العربي لسكران بروكلمان ص ١٠٥ ، والوزير في الأدب العربي
ولورثه ص ٧٥ .

أو أموت فألوت خير من المزال ، فقال له مالك : إن أظنني رجعت إلى المرسيين
(جبلان في أرض بني قريظة) فقال عروة: كيف أستع من كنت عودته إذا جئني ؟
فقال : يذورك إذا لم يكن عندك شيء . فقال : ولكني لا أعذر نفسي بترك الطلب ،
وقال هذه الأبيات :

فلت لقوم في الكتيف تروحوا عشية بقنا عند ماوان وزح^(١)
تتالوا التي أو تبلنوا بنفوسكم إلى مستراح من حمام مبرح^(٢)
ومن ياك مثل ذا عيال ومعتراً من اللال يطرح نفسه كل مطرح^(٣)
ليبلغ عذراً أو يصيب رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منطرح^(٤)
دعبي أطوف في البلاد للملح أفيد عني فيه تقي المنع محي^(٥)
أليس عظيمًا أن تم ملعة وليس علينا في المظوق معول^(٦)
فإن نحن لم نملك دفعا محادث تم به الأيام فألوت أجمل^(٧)
إني امرؤ حاقى إناي شركة وأنت امرؤ حاقى إنائك واحد^(٨)

(١) تروحوا : سيروا وقت الرواح ، ماوان ليم ماء ، الزح : المهازيل يريد : قلت لقوم
مهازيل عشية بقنا عند ماوان في الكتيف : تروحوا .
(٢) المستراح : الاستراحة ، الحمام المبرح : القوت اللؤلؤ ، أي إن سيروا تالوا ما تريدون
وتنصروا من موت محقق ألي .
(٣) المقتر : القير ، يطرح نفسه : يرمى بها في كل بلاد ومثقة .
(٤) يصيب رغبة : يتال مالا ، يريد : أنه إذا أن يتال عذراً أو حطاً من اللال ومن أبلغ
نفساً عذرها مخلصاً من الكسل والجن فهو كمن أجمع في سعيه .
(٥) يخطب زوجته بلالا : امرئى أكثر الأسفار لأصدق غيري يكن ذوى المظوق وأحل به
منهم أقال القيون والذيات .
(٦) أليس من العار أن نزل التوازل ولا يبول علينا في دنسنا ؟
(٧) إذا يتم الخال بنا إلى تلك الدرجة فيطن الأرض خير لنا من ظهرها .
(٨) العاقى : طالب العروف ، وشركة : أراء خلفاً كثيراً ، كفى بقلبه من الكرم ، كما كفى
بقوله : وأنت امرؤ الخ من البطل . والمسي : إني امرؤ كريم يهتكم في إناي هذه اللاكل من
وأنت يميل ومطالب إنائك واحد .

أتهزأ مني أن سمحت وأن نرى بوجهين شعوب الحق والحق خاعد^(١)
أدم جسمي في جسم كثيرة وأحسو فرح الماء والله بارد^(٢)

عروة بن الورد وشاعريته :

من خلال الأبيات السابقة يتجلى لنا عروة بن الورد كصفاك ولكن من إيمرف
الصفايك . إنه يعيش لتيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويفضل كل شيء في سبيل التير ،
أما « صملكته » فمن حاجة وفقر ، وعن رغبة في إثارة ذوى الحاجة ، وهسو يسمل
ما استطاع السمل ، ويسمى بتشاط في سبيل أهدافه « ليبلغ عذراً أو يصيب رغبة »
وهو لا يربح الموت في سببه ، بل يراه أجل من أن يميز عن دفع الفوازل وإبادهها
عن الناس . أما عن مميزات أدبه ، فإن عروة يبدو إنسانياً في عاطفته ونفايته ، يروق
بماضته ولا سيما في زعته الاشتراكية الساذجة الرسكرة على حمة التير والمسدب
على ذوى اليأس . . أما لفته فألف خشونة لسا في عاطفته من نومة ، وأما حكمته
فطبيعية مستحبة ، وإن لم تحصل في عمومها من ممراسة فبا تدعو إليه من أساليب
التحصيل^(٣) .

(١) يريد : أتخبر من لأجل منتلك ونحو جسمي وتير وجهي ولا تلم أن سببه كون
بجوداً في أداء الحقوى ؟

(٢) أقسم جسمي : أي قوت جسمي ، والفراخ : الماء الذي لم يتأمله تيره ، والله
بارد كتابة عن زمن الشتاء الذي يهتد فيه الجذب - والمي : إن أجود بلوى على غيري وأجترى
بجسو الله البارد من الموت ، بشرى لك كرمه وإيثار التير على نفسه .

(٣) رابع تاريخ الأدب العربي ، كارول بروكلمان ترجمة د . عبد الملحم النجار ج ١ ص ١٠٩ ،
والويز في الأدب العربي وتاريخه ص ٢٥ - ٢٦ .

٣ - عيد الشمر

عرف العرب في الجاهلية للشمر منزلة وعظيم خطره لأنه هو الذي ينطق بجعد القبيلة ويشيد بآثرها ومناخرها ، ولا كان للشمر هذه المكانة ، فقد كان الشعراء يأغون أن يمدحوا إنساناً إلا لأفراض حريفة ومقاسد نبيلة . ومن ثم كان الشعر العربي يذبح دائماً من طبع الشاعر وينفجر من إحساسه ، ولا تتحكم فيه سمة ولا تستبد به كلمة ، ولا يمدد ساجحه إلى تضييع أو تجويد ليكتسب من ورائه أو ليترب به إلى الناس زلق .

وقد أمرنا من قبل إلى أن الكبراء والقادة لما شعروا بأن مظاهر سيادتهم ودلائل عظمتهم تستدعي أن يكون هناك شاعر يبل من شأنهم ويرفع من أقدارهم ويضع مفاخرهم ، أخذوا يتربون الشعراء وينفقون عليهم ، ومن ثم بدأ الشعراء ينساقون في هذا السبيل دون ما يخرج ، وظهوت طبقة من الشعراء قصدت بشعرها الفوك والأسراء ، وانتجت الرؤساء والأمراف وأزوت بالشمر ومكانته والشاعر ومنزلة إزراء شديداً حتى قال صاحب السمة : « كان الشاعر في مستأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب ، لحاجتهم إلى الشمر في تخليد المآثر وشدة العارضة وحماية المشيرة وتبهيهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتناولوا به الأعراس سارت الخطاية توفه »^(١) .

وقد لم يكن من التريب أن يأخذ شعر التكبس هذا السميت الجديد الذي جعل الشاعر يشحنه ويمتل ذهنه ويهذب بيانه ويراجع فكره ليكتسب رضا المدوح بعد أن كان من قبل ينطق بالشمر عبثاً والظاهر ويستوحى إحساسه ووجدانه .

(١) السمة ج١ ص ٦٦ وراجع الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د . عبد الحميد السلت ص ٢٤٣ - ٢٤٧ .

ولقد بلغت محاولات تجويد هذا اللون من الشعر حداً كبيراً إلى درجة أنه مما قيل عن زهير إنه كانت له قصائد تسمى الملويات، لأنه كان ينشئها ثم يراجعها، ثم يبرسها في حوله كامل حتى ترضى بها نفسه ويسكن إليها خاطره ويرضى عنه بمدحها، ومن ثم قيل عن زهير وأمثاله من الجوذيين التكسبيين بشعرهم: عبيد الشعر.

وفي الحقيقة أن هذا اللون من الشعر وإن كان قد حط من مكانة الشاعر حيث جده الشعراء سلفاً إلى الأعراض النادية وذرية إلى الفاعل الشخصية، فإن هذا التكسب نفسه قد عاد على شعر الدج بالمجودة والتفقيح، وتميز بمحاودة النظر فيه حتى يبرأ من العيب، ليس معنى هذا أن الشعراء في غير هذا الفن لم يهودوه أو لم يخلوا بهذه المراجعة من أجل تهذيبه وتحسينه. . . وإنما يولع في تجويد شعر التكسب حتى طمحت عليه الصفة واسطنع بالتكلف، وكان من الطبيعي أن يستمر شعراء التكسب ذلك من مزاج شعروهم حتى قال الخطيب « غير الشعر الملول المحكك » إما من مكانة هؤلاء الشعراء في نظر العلماء والفقهاء فيعتبر عنها الأسمى بقوله :

« زهير بن أبي سلمى والخطيب وأشباههما عبيد الشعر » . . . وكذلك كل من يهود في جميع شعره ويفتد كل بيت فله ويبعد النظر فيه حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة^(١).

ومن أشهر الشعراء الذين تكسبوا بشعرهم : الأعمش وزهير والقائبة القبياني وطرفة بن العبد والخطيب، على أن من هؤلاء الشعراء من كان يتكسب بمدحه في ترفع كزهير أو تنزل كالأعمش والخطيب أو بين بين كالقائبة . . . وتلك تحتاج لا كان يتكسب به شعراء الدج، أو من عرفوا نيا بعد بييد الشعر.

١ - من سور الدج في شعر القائبة القبياني « ويبدو فيها ابتذاله واستطالته لقبيان » :

أتاني أبيت اللعن أنك لنتى وتك التي أهتم منها وأنصب^(٢)

(١) البيان والقبين الجاهل ج ٢ ص ١١٠ . (٢) وتك : أي تلك الثلاثة ، أنصب : أهب .

فبت كُن العائيات فرشن لى هراساً به بقل فراشي ويشب^(١)
حلت لم أترك لنفسك ديمة وليس وراء الله لرهـ مذهب^(٢)
لئن كنت قد بلغت عى خيانة ليلفك الفواي أغش وأكذب
ولكننى كنت أمراً لى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب^(٣)
سلك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أسوالهم وأقرب^(٤)
كصفاك فى قوم أراك امطنتهم سلم ترم فى شكر ذلك أذنبوا^(٥)
فلا تتركى فى عيب كأتى إلى الناس مطلق به القار أجرب^(٦)
لم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذنب^(٧)
فإنك شمس والترك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب^(٨)
ولست بمسئق أحمأ لا تله على شمت أى الرجال اللذنب^(٩)
فإنك أك مظلوماً فبذ ظفته وإن تك ذا عى فتلك يشب^(١٠)

(١) العائيات : اللقى بزود الرض ؛ هراس : نبت كثير الثوب ؛ يشب : يخطئ .
(٢) الربة : الله ، والراد ليس به اللب يلف بين فلا داعى لك .
(٣) لى جانب : أى مسلم ، فيه مستراد : أى يقال ولا يار .
(٤) سلك وإخوان : أراء السابيين الذى أكرموه حين نزل بهم .
(٥) امطنتم : امطنتهم واختتمهم من الناس ، ولقى : انبسطى كأقوام صاروا إليك
وكأقوام عرك فاصطنعتهم فأسلت إليهم ولم ترم مذبذبين إذا بارقوا من كانوا معه .
(٦) القويد : التهميد ؛ لى الناس : فى الناس ؛ القطار : يقول : لا تتركى كالجمل
الأجرب للقل والقطران المنزول من بلى الجبل . (٧) سورة : مثله وضيقه ، يتذنب :
يتعرب . (٨) أى أنت نسو على سائر اللوح كاتسو الشمس على سائر الكواكب .
(٩) تله : تهمته وتصلحه ، التمت : التفرق والفساد ، ولقى : من لم تصلحه من الناس
وتقوم أحوالهم فلتت بمسئقهم صديقاً لهم ، فإذا لا تجد رجلاً كامل الأخلاق لا عيب فيه .
(١٠) العى : الرضا والسفح ، عيب : يظن ويرضى ، وللى : إن أكن مظلوماً فأنا العيب
الذى جعل سيده ، وإن شئت أن تنفر لى فإلك جدير بالحق والحق .

٢ - ومن شعر الخليلية ، والتي يبدو فيه أثر الفسك ، ومدى استمداد الشاعر لأن يهجر عدوماً إلى آخر طالما في الزيد ، بل مدى استمداده لأن يهجو الأول أصلاً في استثناءه الثاني .

يقول الخليلية^(١) :

والله ما مشتر لاسوا لمرأ جينا في آل لاي بن شماس بأكياس^(٢)
لقد مريتكم لو أن درتكم يوما يمي بها مسحي وإيساسي^(٣)
وقد مدحتكم محمداً لأرشدكم كيا يكون لكم مشي وإيراسي^(٤)
وقد نظرتكم إنياء ساردة للخمس طالها جودي وتناسي^(٥)
لا بد لي منكم غيب أفتسكم ولم يكن ليراضي منكم آسي^(٦)
أزمت ياساً مبيتاً من نوالكم وإن ترى طارداً لغير كالياس^(٧)
ما كان ذنب يبيض أن أرى رجلاً ذا طاعة حل في مستوهر شاسي^(٨)
جزاً قوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيا بين أرماس^(٩)

(١) يهجو الزرمان بن بدر ، وكان الخليلية قد بناوره لم يحمده جواره ، فتحول عنه إلى جيش فأكرم جواره .
(٢) الجلب : التريب ، في آل لاي : أي في مشيهم ، الأكياس : مع كس وهو الفطن الذكي .
(٣) مري اللقاة : مسح خرعها لغير اللان ، القوة : الفين ، الإيساس : ملاطفة اللقاة عند القلب ، يمي : أنهم لم يتحوه برمح مع مدراثة لم وحسن مسالته .
(٤) اللعج : تزح القلي وجلبها من البئر ، الإيراس : وضع حبل البئر في الكورة بعد أن ارتقى منها ، يمي : زل قصدت مدسك لأرشدك إلى ما طالب منك من أسباب الجهد فيكون لك الفضل في إعادتي بجودك من القوة التي ألتقيها .
(٥) الإنياء : الإنصاف . الصادرة : الرجعة من لاء ، الحس : من أطاء الإبل ، بان ترمي بكه أليم وترد لاء في الرام ، والطوة من هذا القاية أي ساقها سريعاً ، والفتاس : من نس اللقاة إذا زجرها وساقها ، يقول : لقد انتظرت عطاك بما كاتلة أجهدها السير الطويل .
(٦) غيب أفتسك : أي ما تفسره لي أفتسك من البضياء ، الآسي : الطيب القساوي .
(٧) النوال : النطاء . (٨) حل في مستوهر شاسي : نزل في مكان صعب للراس
(٩) المون : القل ، الأرماس : القبور .

سأولوا غراء وهرته كلاجهم
لا ذنب لي اليوم إن كانت غوسكم
من ينمل الخبز لا يندم جواربه
دع السكرام لا ترحل لبنيها
٣ - الأضنى شاعر التكبسب : من نصيحة له يمدح فليس بن سدى كرب
الكندي :

إلى الرء فليس أطيل السرى
وما مزبد من خنيج الفراء
بكب الظلية ذات القلاع
تسكأ كأ ملاحها وسطها
بأجود مسنه بما عنده
هو الزواهب الائمة الصطفاة
نؤان مساوية الأكرمين عظام
مقى تدعهم للقاء الطرد
إنما ما هم جلسوا بالمشى
وأخذ من كل حى عصم
ت جون غواربه تلتطم
قد كان جؤجؤها ينحطم
من الخوف كوثلها يأنم
إنما ما سماؤم لم تنم
كالخل طاف بها المجرم
الناب طسوال الأثم
ب تأنك خول لهم غير هم
فأحلام عاد وأيد هضم

(١) الرى : الضيافة ، حرته كلاجهم : نبحث عليه ، بنى : إن آل الزبرقان كرهوا جواربه
وتأولوه أسوأ لئامة . (٢) الفاراك : المرأة للفتنة تزوجها . (٣) العرف : العرفوف .
(٤) العظام : الأكل ، السكرام : اللابس ، يقول : دع السكرام ، لحببته من بل وعمل
تظن أن تكون أكلا مكسوا .
(٥) العضم : جم عصام ، وهو المثل لشدة به القرية أو الدار ، ولعل التامع يريد اليهود .
(٦) الجون : الأسود ، غواربه : أماليه . (٧) الحلية : الحيلة الكبيرة . القلاع :
الدرع ، الجؤجؤ : المصدر . (٨) تسكأ كأ : تامل ، كقول الدنياة : مؤخرها أو سكتها .
(٩) لم تنم : أى لم يكن فيها نيم . (١٠) المجرم : الذى يصرم الخلال .
(١١) مساوية الأكرمين : قوم للندوح ، الأثم جم أمة وللصود بها حنا العامة .
(١٢) غير هم : أى لا وساح لهم . (١٣) أسلام عاد : أى عقول قديرة الرساءة والفعل .
أيد هضم : أى : أيد كربة نيمود بنا لدها .

٤ - ومن شعر زهير في مرم بن سنان الرى وجهه مدائح سارت بها الامثال،
ومن ذلك قوله :

إذا السنة الحمراء بالناس اجحفت ونال كرام السال في الجفرة الأكل^(١)
وأبت ذوى الحاجيات عند بيوتهم فطينا لمس حتى إذا نبت البقل^(٢)
هناك إن يستغلبوا السال يجلبوا وإن يسأروا يعلوا وإن يسسروا ينقلوا^(٣)
وليسم مقامات حسان وجوهها وأندية يتاقها القبول والفصل
وإن جشهم ألقت حول بيوتهم مجالس قد يشق بأحلامها الجهل
وإن قام بهم قائم قال لا عسد رشدت نلا نغم عليك ولا خذل
على مكترهم حق من يترهم وعسد الفلين الساحة والبذل^(٤)
فما كان من خير اثره فاعسا توارته آياه آياتهم قبل
وهل يبت التل إلا وشيجه ونفس إلا في منابها النخل^(٥)

و بعد . . فهذه أمثلة لبعض التكسين بشعرهم من أطلق عليهم عبيد الشعر وإن كانوا يتفاوتون - على ما أوضحته الأمثلة السابقة - في أمر هذا التكسب فقد بما لنا العائبة عبا لثمان ، خلاصا له الروة ، وإن كانت تلك الروة مبنية على أساس مكين من المطاء والتكريم ، وإن كان ذلك التعلق ناتجا عن أريحية في الثمان واسعة ، وعن حياة طيبة بصحبة للثك وأتباعه ، وتملته هذا الثمان جمه لا يأنف - وهو التكبير النفس العزيز الجانب - من أن يتذلل وأن يجعل من نفسه عبدا ويقول لثمان :

فإن أك مطولما فسيد طلته وإن تك ذا عني فتك بيت

(١) الجفرة : السنة الجديدة الجديدة .

(٢) الفلين : جمع فلن وهو اللحم ، ومن إذا نبت البقل : كتابة عن أنهم يقولون مقبيد ولو جاء الغيب . (٣) إن يستغلبوه : أي يقرضوه ، وإن يسسروا : يسبوا لليسر . (٤) على مكترهم : على الأغنياء منهم ، حق من يترهم : حق من يتصدقهم ويطلب تولفهم . (٥) الخيل : الشعر الذي تصنعه الرياح ، وشيجه : أمه ، يعني أن كل شيء يدل عليه أمه ، وكل إلا : يا فخره ينشج .

ولقد نحس من شعر الثابتة وغامة في الدح أنه شعر التنكيب الذي يسمى وراء
الثقة للشاعر وقومه ، وهو من ثم شعر النين والتمتعة أكثر مما هو شعر الطبيعة ،
وهو من ثم أيضاً - يسير في جلال اللوك ، عند امتداد ملكهم وسطوتهم ، في نفس
مال ولثة منتنة ، تشدد في موافق الشدة والتقال ، وتلين في موافق الترف ونشارة
البيش .

أما الخطيئة ، فإن من استقرأ كذلك مدأخه ، فلن يخرج عن الأسلوب اليهود
عند سائر شعراء اللوح والاستجداء وفي سائر الشعر الجاهل على وجه الخصوص ،
ويحس القارى لشعره ، أن الخطيئة في نهمه وانفداعه وراء اللال يحاول أن يهدد
شموالمدوح بموسيقى شعرية تتصاعد من الأوزان والنواقي والألحان ويخفق جواً يمت
على العطاء وهو يرسل خلال تلك الموسيقى أنوال الترف ، لينة حينا ، ناطقة بوق الصبيل
والتنظيم حينا آخر ، ويذكر من صفات المدوح ما ينهمه أن الشاعر بحاجة إليه ،
ويصرح له أحياناً بأن الشاعر فقير مدم ، ثم يلف الطلب بصفت أخرى للمدوح مشتقة
من صفات الشجاعة والياس والكرم وما إلى ذلك ، من مثل ما مدح به آل شماس
من قصيدة يقول فيها عن المدوح وقومه :

قلبيزه الله خيرا من أخي ثقة	وليده يهدى الخيرات هاديا
والخلف الألفبجد الألفبنتها	والواهب لثانة المكي وراسيا ^(١)
قوم نورا في بي سمد وفرونها	يوما إذا عد من سمد مساعيا
له درم قوما ذوى حسب	يسوما إذا جلية حات مراسيا ^(٢)
أهل الحفاط إذا ما أزمة أزمتم	بالناس حاضرهم منها وباديا

وكذلك الأحمى في تنكيبه ، فإن من يطالع مقطوعته يلاحظ أنه يحاول أن
يجري على أسلوب الثابتة إلا إن استطاعه مقتضب ومدحه في السوم يتبع الأسلوب

(١) الشكي : الناطة السنية .

(٢) الجلية : السنة القديمة ، قلت مراسيا : أي استقرت .

التقدم من فائحة نزلية ووصف للخمر ومجالس النهي ، ووصف للفاقة والسفر . ثم ذكر المدوح وما له من سنات الجود والقوة وما إلى ذلك ، والأعشى في مدحه سرخ في التسكيب وهو أول من « سأل بشعره » وشعره الدهن يتناز بما يتناز به سائر شعره من رونق وسهولة ومتانة وموسيقى عذبة .

أما زهير في مدحه ، فمل من أبرز الثورات فيه هو اتصال زهير بأوس بن حجر زوج أمه وشاعر نجيب في الجاهلية وزعيم جماعة عبدة الشعر ، فلقد كان زهير راويفه ووارث مدرسته ، ومن ثم كان اللوح يشغل قلباً كبيراً من ديوانه . وكان مدح هرم ابن سنان والحارث بن عوف خاصة يشغل القسم الأعظم من المدح في ديوان زهير ، ولا يجب في ذلك ، فهو شاعر شهرة الأعمال السكرية ، وهل هناك من هو أكرم هملاً من هذين السيدين اللذين سميا في الصلح بين عيس وذيبيان حتى وضعا حداً لما دار بين القبيلتين من حرب شروس ؟ . . .

أما خصائص مدح زهير فأهم ما يبرز منها أنه كان يصدر في مدائحه عن إعجاب بما قدم بمدوحه وتقدير لما صنع ، فهو كما قال عنه جرير المطالب : « لم يمدح الرجل إلا بما فيه » لذلك لم يكن يلجأ إلى اللاتالفة في خلق الصفات السكاوية على مدوحه ، فإذا عمد إلى شيء من اليبانة علته على أمر محتج وذلك كما في قوله :

لو نال حي من الدنيا بترلة وسط السباء لانت كفه الأفا

وزهير لم يكن في مدائحه من أولئك التسكيبين الذين يرقون ماء وجوههم على أقدام مدوحهم ، ولا من الذين يظهرون أمام من يردون عظامهم بظفر القل والفاقة ، فإذا عمد إلى التسكيب ، كان لبناً يبدان التهاك على السؤال . وهذا يبدو في مدحه لحسن بن خليفة حيث يقول :

أخي تنة لا تهك الظر ما به ولكنك قد يهك السال ناته

تراد إذا ما يهته متبلا كأنك تعطيه لقي أنت ساته

وزهير لا يخرج في مدائحه عن الإطار الجاهلي ، فهو يتعلم على مدوحه

كل الخلال الحسنة التي يوجب بها البدوي ، وبراها مثلا أطي في الصفات التي يجب أن يتحلل بها العربي ، وذلك كالكرم والشجاعة ورجاحة الفعل والنجفة وكرم المند وبها الطلعة وما إلى ذلك .

وخلاصة القول في مدح زهير أنه مدح صادق العاطفة يهد عن التلو ، لا يخرج في مساويه عن الصفات التي يكبرها المجتمع الجاهل ، وهو لا يخاف من توجيه وتعليم ، أنصف إلى ذلك أنه مدح خلد الذين تناولهم ، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي أحد أولاد هرم بن سنان فقال له والله إن زهيراً كان ليحسن فيكم القول ، فقال له : وإنما كنا نحسن له الدعاء ، فقال عمر : اند ذهب ما أعطيتوه وبق ما أعطاكم .

الشعر في إمارتي المناذرة والنساسة وأسباب ازدهاره

من يدرس الشعر الجاهلي يلاحظ أن شعر الدح الذي إنشده أصحابه للشكيب
قد كثر منذ منتصف القرن السادس الميلادي ، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة كان من
أبرزها : ازدهار الحياة في الإماراتيين الشماليين ؛ في الحيرة وفسان في ذلك الوقت ،
وإزدياد ثرائها وسلطانها ، فأنجبه الشعراء إلى هذين القبيلتين في رحلات مستمرة
ومتصلة للارتواء منها ، ومن الشعراء من استقر فيهما استقراراً دائماً ندبها للوكها
ومنرداً في رؤسها كالنابتة النيباني وحسان بن ثابت بن النضر .
وكان البلاط في هاتين الإماراتين يجمع بالشعراء من كل نواحي الجزيرة العربية
وكأنه صورة مصغرة لما سوف يحدث فيما بعد في بلاط الأمويين والعباسيين .
وكان أن النابتة النيباني كان قد اتصل بملوك الحيرة وبخاصة عمرو بن هند، والتمنان
أبو قابوس بن النضر الرابع . . فإن حسان بن ثابت كان قد راد النساسة ومدحهم ،
وكان اتصاله بهم اتصالاً بذوي فؤاد ، فقد مهد له نسبة فيهم أن يتزل في بلاطهم وأن
يتميزوه في كل مرة يتزل فيها عليهم .
وإذا كان النابتة لم يستقر به التمام أول الأمر في بلاد الحيرة، حيث اضطره الرشاة
إلى الهرب من وجه التمان حتى ذهب إلى فرقة ثم إلى عسان حيث لقي هناك حفاوة
وأكراماً فأبلىهما بالرفع من الدح . . . فإن زيارة حسان للمناذرة قد اختلف فيها وإن
كان هناك من النصوص ما يؤيدها ويشير إلى حدوثها^(١) .

(١) راجع : حسان بن ثابت، المكون ص ٦٨ من ٦٨ .

أما عن النابنة^(١) :

قد كان له من الباقية وحسن النظر والمهارة ما استغل منه الناس الفاعية بين
الحيرة وغانس في تحقيق بعض الطامح السياسية والسالية ، فكان اتصاله الأول بملك
الحيرة وأخذه النعمان بن النذر وأغدق عليه من المال والطلاء ما جعل الحساد يكفرون
من حوله وأخذوا يندسون له الدسائس ويبرغرون صدر النعمان عليه حتى قامت جفوة
بينه وبين النعمان وعزم النعمان على قتله ، فلم يلبث أن فر النابنة إلى غسان ، وما زال
وهو في بلاطه الجديد يمين إلى النعمان ويقتدر إليه حتى عفا عنه وأعادته إلى البلاط في
الحيرة من جديد . . . وظل فيه حتى قتل النعمان فألتحق النابنة بقرمه حتى وافقه بدوره
معيته .

وأما عن حسان^(٢) :

لم يكن اتصاله بالنساسة ونزل عطائهم في أول الأمر سهلاً ، فالتاسون أيضاً في
بلاطهم شعراء مقفنون قد احتلوا من قلوب القوي والأمراء السكابة الأولى ، وكان
على حسان أن يبحث عن موضع خال وسط حسدا الزحام ليثبت وجوده ويصمغ من
جدارته في ميدان الشعر والشعراء .

ولقد كان هناك من شعراء البلاط في الحيرة غير النابنة من البرزين الفحل
اليشكري ، وعدى بن زيد ، وكل منهما شاعر مجيد ، ومن هنا تجمع لدينا عديد من
شعراء البلاط ، كان لكل منهم خصائصه ومزاياه .

١ - النابنة في الأحداث :

تمرض النابنة في بلاط النعمان بن النذر لكثير من حسد الحاسدين ووشاية
الواشين ، وقد بلغته مرة أن النعمان حاق عليه موعده له لا حله الوشاة من تيمات أعمال

(١) النابنة : هو أبو أمامة زيد بن معاوية البجلي الذي توفي سنة ٦٠٤ م .
(٢) الذي الرواة على أنه جالس ما يقرب من مائة ومدرين طام واختلف في سنة وفاة
قبل زهاء سنة أربعين وثلث عشرين وقبل سنة ثمانين من الهجرة .

يقول إنه براء منها ، وبلته أن بني فريم - وهم بعض الرضاة - متحاملون عليه شديد التحامل ، وأنهم كثيرا ما يوبخون صدر اللك عليه ، فكان مما قاله الثابتة بدلي بمنزرة إلى النعمان ، ويصف حاله بعد وشاية الراشدين ووعيد النعمان :

وهيد أبي قابوس في غير كنهه	أناي ودون دراكس فالصواعج ^(١)
فبت كأي ساورتني شئيلة	من الرقت في أبايها السم نافع ^(٢)
إناي أبيت النمن أنك لشي	وتلك التي تستك منها السامع ^(٣)
مقاله أن قد قلت «سوف أتاله»	وذلك من تلقاء مثلك رائسح ^(٤)
لمعري - وما معري على بين	للسد نغقت بطلا على الأفراع ^(٥)
إفراع عرف لا أناول غيرها	وجسوه فرود تبتني من تجامع ^(٦)
أتاك امرؤ مستظن في بنفة	له من حسدو مثل ذلك شائع ^(٧)
أتاك يقول هليلج كاذب	ولم يأت بالحق الذي هو ناسع ^(٨)
أتاك يقول لم أكن لأقوله	وتوكيت في ساعدي الجوامع ^(٩)
حلفت لم أترك لفسك ربية	وهل يأتين ذو أمة وهو طائع ^(١٠)
للكفدي ذهب أمرى وتركته	كذي الركيوى غيره وهو زالع ^(١١)

(١) في غير كنهه : في غير موضعه وغير حقيقته ، راكس : واد ، الصواعج : المضارب .
(٢) ساورتني : وابتدي ، الشئيلة : الخيبة الدافئة القم ، الرقت : جمع رقتاء وهي الخيبة فيها تظن سود ويش ، الشائع : الذي يتبل لساعته . (٣) وتلك : أي للامة ، تستك : تسمع .
(٤) الرالت : الخيف . (٥) الأفراع : أراد بن فريم الذين وضوا يده لله النعمان ، لمعري : المر والمر والسرد إلا أنه لا يتصل في القسم إلا مفتوح العين .
(٦) لا أناول غيرها : لا ألتصد إلى حياة غيرها ، تجامع : اجتماع وتحامم ، ولراد أن الأفراع قد حانت عليهم أمسيهم وأمرامهم فهم يبرسونها للفرقة والفاقة .
(٧) مستظن : متسرع ، شائع : معين . (٨) هليلج النسيج : رقيق ضيف .
(٩) الجوامع : جمع : جماعة وهي التل أو التيد الذي تبيع به البدان إلى النسي .
(١٠) ربية : النكاح ، الأمة : الذين ، أي : وهل يجاب بالزور من كان قاذرين واستقامة مثل : (١١) كلفني : حثاني والمر : خروج الأهل يسيل منها مثل الله الأصغر من الحرب .

فإن كنت لأذوالضنن على مكذب ولا خلق على البراءة نافع^(١)
ولا أنا مأمون بشئ . أقوله . وأنت بأمر - لا محالة - واقع^(٢)
فإنك كالأبل الذي هو مدرك . وإن قلت أن الضأى عنك واسع^(٣)
أترعد عبداً لم يحنك أمانة . ويترك عبد ظالم وهو ظالم^(٤)
وأنت ربيع ينمش الناس سببه . وسيف أعبته النية فاطسع^(٥)
إي الله إلا عسده ووفاء . فلا التكر معروف ولا البرف منافع^(٦)

هذه واحدة من اعتذارات الثابتة ، وقد سبق إن امرئاً من قبل إلى سورة
أخرى من اعتذاراته تجل فيها استطاته للثمان وهي التي يقول فيها :

أناي أيت الثمن أنك لثني وثق التي أهم منها وأنصب
والثابتة يبدو في سائر اعتذاراته على براعته وقوة حججه كأنه الحماى الذى يفتن
في عرض فضيحه ونمزجها بالأدلة والبراهين لتبرئة ساحته من تمولات الواشقين ومزامم
الحاسدين . وهو دائماً يمزج الاعتذار بهجاء الثمنين ، ويهيب الثمان أن يربأ بسمه
من مثل هذه الأوبل والند بدا في جميع اعتذارات الثابتة للثمان الحرص الشديد على
حبة الثمان^(٧) والسعى في استرضائه بشدة وعنف ، ولئن لم يستطع التسكران بأنه
ذهب إلى غسان ومدحهم ، فقد برهن أن ذلك كان منه شكراً على فضل ، وشاكر
الفضل لا يستحق الثوم ، وهو يشهد عتقاً إذا ذكر الوشاة ، فيبرر ساعته ، ويقسم

(١) أى إن لم يكن تكذيب ذى الضنن الذى وعى به ولا ينفع خلق .
(٢) ولا تأمى على ما أقول من العدل وأنت معدل ولا محالة ما قبل منه على .
(٣) للثأى : السكان البعيد أى لاني لا يمكن عمل شئ . لأنك تنسركى بقدرتك . لأنك
كأبل الذى يسطط خلقه على كل شئ . (٤) الفاعل : الخائف من الفى البعيد من العوالب .
(٥) السيب : المطاء ، وأنت ربيع : بكرة الربيع الذى يجىء بالثير .
(٦) التكر : التسكر . والترف : الترفوف ، أى ليس التسكر مثل الترفوف في المنسك
وليس الترفوف منافع .
(٧) التوجز في الأدب المرى وتاريخه من ١٤٤٩ .

وننأى في القسم لبيد الرية ، ويكذب الوشاة ، وهم قسم كالفرد لا يستحقون
التصديق ولا الإستهاء إلى أقوالهم ، وهذا نشر أن النابذة في اضطرام واحترام فيشدد
شعره ، وإذا هنالك ثورة عاطفية فيها احتار لخصوم وفيها تدافع كلام وفيها ترديد
لبعض الألفاظ : أناك امرؤ . . . أناك يقول . . . أناك يقول . . .

ثم يحاول النابذة أن يبين قلب النعمان قبيحه ، وإذا النعمان يجر من الجود وينبوع
من الخلم والسدل ، ومك واسع السلطان ذو مقدرة لا تحد . . . إن أراد تشبيهه شبهه
بالفرات ، وإن أراد تصوير غنبيه شبهه بالليل الذي لا يستطيع أحد الحرب منه ،
والنابذة تجاه هذا القضب قلن الببال لا يقر له قرار ولا ينمض أه جنن ، وكان لياليه
ليس لها نهاية ، وكأنه يردد على فتاد وإذا اللبلة النابذة مضرب الأمثال وإذا هي
طول وموم وأنكار تذهب به ونجى . . . وهو في كل ذلك عاطفة جياشة تهب الصدور
القاسية ، وحجة قوية تعطل الزاعم الواهية ، ودعاء محام ليق يجمع قوة البرهان إلى
نيل السلام والثورة إلى دواهي الاستهانة ، وبمخاطب الفقل والقلب يبلغة ومرونة ،
وسياسة قلنت على خبرة واسعة بأخلاق اللوك ، وبمسا في بلاطهم من دسائس
وأحقاد . . .

٢ - حسان بن ثابت في الدبج .

لعل من أم النصائذ الجاهلية التي بقيت لسان في مدح النساين هي التي
مطلبها :

أسألت رسم النار أم لم نسال بين الجوازي قابضج غومسل
وقد مدح بها الفك النساين عمرو بن الحارث . . . واستطاع حسان أن يبلغ فيها
القمة الفنية بمدحه للنساين ووصف جمالهم وملكوتهم وهم أمزة أجداد لا يجرؤ ملك
أن يملك بهم أو أن ينقل منهم صفة أو سكرمة ، لأنهم أبناء ملك عظيم وهو الحارث
الأحمرج بن أبي نمر النساين ، وهم يسفون حجر لأشيائهم ويمدون اللوائد لسكل متبل
عليهم ، لا يبايون بمن نزل بهم ، ولا يروهم بهمم فل أو كثر ، فهم ملوك كرماء

يمشون في سعة ، ويسقيهم ولذاتهم الحسان الزينق الشهي ، فهم يسوا سمايليك
تقراء يرسلون ولذاتهم لقف الحفظل كما تقبل العرب^(١) يقول :

دار لنوم قسد آرام مرة فسوق الأهزة عزم لم ينقل
له در عصاية نادتهم يوما ما يجلق في الزمان الأول^(٢)
أولاد جفنة عند قسبر أبيهم فبر ابن مارية الكريم الفضل
يسقون من ورد اليريس عليهم ردى يصفى بالزحيق السامل^(٣)
يسقون دريق المدام ولم تكن تندو ولا تدم لقف الحفظل^(٤)
يشون حتى ما نهر كلابهم لا يسألون عن السواد الثليل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم فم الأنوف من الطراز الأول
ولا ينسى الشاعر أن يصف شجاعتهم وجسارتهم في الحروب وكيف يسبرون
إلى الحرب في حلقهم ودرودهم ، يقول :

يمشون في الحلال السناضف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل^(٥)
الضاريون الككبش يبرق بيضه غرأ يطيح له بنان الفصعل^(٦)

ويتنقل حسان إلى سورة تناير ما قال في مدعه ، تلك الصورة التي يثبت فيها عيت
الرجل المهرب لا التي النض ، فهو يقبل على الحجر وعلى مجالسها يقبل ولهان ، بنادم
أمراء جفنة في قصورهم ، ويسسى بها إليه الحسان يسقونه مرة بعد مرة فلا يتروى ..
إلى آخر ما قاله في هذا السبيل .

وتتكرر اللطوحات التي يمدح فيها حسان التسامحة ، ورغم أنها قليلة جداً ،
فإنها تعبر عن الشعر الكثير الذي قيل فيهم وشاع مع الزمن . .

(١) حسان بن ثابت ص ٧٤ - ٩٧ . سيد حتى حنين .

(٢) جلق : موضع في دمشق أو قريب منها .

(٣) اليريس : نهر في دمشق وكذلك يردى . (٤) لقف الحفظل : شفه وتكبيره .

(٥) البير البازل : هو القبي استنكول البنة القائمة من حمرة .

(٦) الككبش : البعد أو العائد .

وحينما يمدح حسان النمامسة ، فإنه لا يسلط سواك الشعراء الرباب عنهم
بمدحونهم ليأخذوا عظام غضب ، ولكنه يمدحهم ليفتخر بهم لأنهم أخواله
الذين استظلموا أن يبتوا لهم عبداً ، فيجدم عبده وذكر حامد بن عمرو . . . وفي ذلك
يقول :

منهم أسل فت يفتخر به يعرف الناس لغز اللغز
نحن أهمل التز والجد مسا غير أنكاس ولا ميل حسر^(١)
فسلوا عنا وعن أمالنا كل قوم عندهم علم الطير
وكان لحسان في المجادلة سديق غساني هو الأمير جيلة بن الأبيهم ، ومن
المنشآت التي ببيت لحسان في مدحه - وفيها وصف عيد الفصح عند المسيحيين . .
يقول حسان :

قد دنا الفصح فالولائد ينظر^(٢) رت قنوداً أكلة الرجان^(٣)
يبتدين الجاهدي في نهب الرد ط عليها جساد الكفان^(٤)
لم يبقن بالنسار والصد بخ ولا تفت حفظ الشريان^(٥)
ذاك معنى من آكل جنة في الده ر وحق تاقب الأزمات
فسد آرائه هناك حق يمكن عند ذي الحاج متمدى ومكاف

فاللغز الذي يمدح بها حسان - إذا - ملوك الشام وأمراءهم هي اللغز التي كان
يمدح بها للوك في الجاهلية ، فهم كرام آراءهم وهم تستقبل كل واحد ، ويلبسون
أجمل اللابس ، ويترشون أنظر الرباش ، وهي أشياء لا يجدها الجاهلي في صحرائه ،

(١) الألكاس : جمع نكس وهو الرجل القصر من التهمة والكرام . والأبيل :
المجان ، السر : جمع أسير وهو الذي يسلم بسلامه .
(٢) الفصح : عيد قيامة المسيح ، الأكلة : جمع إكليل وهو الناج .
(٣) الجاهدي : الزعفران ، النقب : جمع نقة وهو يزار عند كلسراويل ، الربط : الثياب
التيه الرقبة البيضاء ، الجساد : الضمان .
(٤) القفار : نوع من الصبح ، الحفظل : نوع معروف من الثمار من اللذان .

وحيثما يصف مواعيدهم وأعيادهم فإنما هي وسيلة لدعوتهم والتعرب إليهم ولا شك أن مثل هذه الزيارات أثرت في فنه ، فهو لم يكن يستطيع أن يرسم صورة عيد الفصح كما رسمها في الأبيات السابقة دون أن يرى الفتيات وهم يظلمن الأكاليل الزينة بالجواهر، أو يعطرن أجسادهن وملابسهن بالإعفران ، ثم يتأرن بين أولئك الفتيات وفتيات البدو فيقول لهن لسن ممن يجتنبن صنع التماثيل ويتعفن الخنظل لاستخراج ما فيه . وبعد ؛ فمن خلال الاعتذاريات الدائمة للتيان بن اللذرة ومدائح حسان في التناسخنة يمكننا القول بأنه قد أتاحت الزيارات التي ظم بها كل منهما للتشبال أن يطلعا على مظاهر أكبر حضارتين موجودتين في ذلك العهد : الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية . . فانتقلت في إشارتها بعض مظاهر هاتين الحضارتين المتمثلتين في الإماراتيين المانحين لها: إمارة الناذرة ، وإمارة التناسخنة . . فأكتسب شعرها الواناً جديدة لم تكن تشبهاً لها أو لغيرها لم يبقا على مظاهر هاتين الحضارتين .

فالبابنة يبدو في ذلك الشعر الدائم باللفظ المختار والسكلام البعيد عن الزكافة والوسيق المفظة الرائنة ليظهر لنا من خلال ذلك وغيره تلك الاعتذاريات التي تم عن شاعر عاش في قنعص من ذهب وهو يذيب قريحته للبيان أشمة من نور على أبواب السلاطين وفي زوايا البلاط .

وكذلك كان حسان في مديحه لتسائين حيث انكسبت على شعره مظاهر الترف والنعيم من ناحية ومظاهر الحضارة التي شاهدها وعاشها من ناحية أخرى . . يضاف إلى ذلك - كما سبق القول - أن مديحه لتسائين كان يشتر ظراً لنفسه ، فإذا رجع من شأنهم فهو تعجيد لقبيلته ، فمترج مدحه بالفخر ؛ ومن هنا اختلف حسان في مدائحه وبخامسة لتسائين - عن غيره من الجاهليين ، حيث كان مديحه تسوده التزعة المططانية على خلاف طبيعة هذا الفن ، فالزعة المططانية من شأن الفخر وليس للرح ، ولكن امتزاج الموضوعين عند الشاعر أشاع هذه الهمجة فيها ممأ .

شعراء القرى العربية

كانت بيئة الشعر في الجاهلية متنقلة تسير مستقرة ، ومن ثم كان الشعر حقاً مقسوماً بين أجزاء الجزيرة المختلفة ، وكان الشعراء يتنقلون من مكان إلى آخر تبساً لأحوالهم الميشية ، ومن هنا ظهرت أشعارهم سيرة عن حياة التنقل التي يجربونها ، وعن مشاكل القبيلة التي ينتمون إليها ، وكان كل ذلك مزوجاً بهجوم الشاعر نفسه وما يدأبه ..

وإذا كان الشعر البرقي في كثير من الأحوال يأتي عن الطابع الفردي ، العبر من إحساس الشاعر وانعكاسه انطوائاً نحو حدث من الأحداث فإننا لا نلبس أن تلج وميضاً يتألق حيناً ويختفي حيناً فترى به آثاراً بليغة ولغات فكرية عميقة تكاد تولف في مجموعها ما يشبه للذاهب التصلة وما يأتي عن تلاحق الأجيال وتواردها على الطواطم ، وتلف الجبل ما ترك الجبل ، فنجد في الشعر مدارس يقف بعضها بعضاً ويتابع فيها التقليد أستاذة ، ومن هنا كان لشكل شاعر راوية يحفظ شعره ويقشده ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه في الترييض ، وقد عرفنا من قبل أن امرأ القيس كان رواية أبي ذؤاد الإيادي ، وزهيراً كان رواية أوس بن حجر ، والأعشى راوية السيب كما كان الخطيب راوية زهير . .

وكانت تيارات الفكر اللاهية والتمارضة يأتي عنها تسرب المسيحية واليهودية إلى الصميم من الجزيرة العربية بعد أن أخذتها من أطرافها ، كما يأتي عنها انبعاث مذاهب جديدة هي جيسارة عن سياحة جديدة للخلاصة الصالحة من المسيحية واليهودية ، مضاناً إليهما ذلك التناج انطوائاً للنس العربية في جنبها الأسيل ومهد تكويتها ، فنجد دين الصابئة ، ومذهب حباد الطبيعة ، ونجد ذلك الحس التامض والاستشراف إلى ترف الذب والوقوف على المستقبل .

وتأخذ الجزيرة من أمصاها إلى أمصاها موجة من الحياة والقوة ، فرحلات الشتاء والصيف إلى الشام واليمن ، وازدهار التجارة ، وازدياد ثروة المدن الواقعة على طريق القوافل وما يتبع ذلك من سرعان الحياة ، هذه العوامل وغيرها جعلت المدن مصدراً للحياة العسكرية والدينية التي كانت تمتلج بها قلوب الأحرار والجماعات^(١) .

ولقد كان موقع الحجاز بعيداً عن أطراف الجزيرة بُدأً جعله يأمّن من أن يتأله الاضطراب الذي كانت تتعرض له الأطراف المجاورة للإمبراطوريتين الفينيقية : الفرس والروم كلما تارت بنفوس القادة صهوة الفتح ، إلا بذلك التدر الذي يكون به التهديد حائزاً على اليقظة ، والتوجس دائماً على التماسك ، فاحتفظت تلك باستقلال عقيد ، انقلب به إلى بقعة تأوى إليها أقدس مظاهر الحياة في هذه الأمة ، وتمتلخص فيها اعز مقومات هذا الشعب البشري في أرجاء هذه الجزيرة الترابية الأطراف .

وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة من الحجاز منزلاً اسكل متعاهد يلجأ إليه فتره اليهود بعد أن كان يصف بهم جيروت الدولة الرومانية ، ولجأت إليه أجناس أخرى كانت تهساجر إليه أترادا وجماعات ، فسكان في الحجاز الفارسي والرومي والحبيشي ، وغير أولئك من هذه الأجناس التي كانت تنزل قارة من ظلم أو طالبة لنظم ، أو حاجة إلى بيته اللدس ، وهذا التزوج من الحجاز وإليه ، وهسته القيارات التي تلتق نيه وتصدر عنه ، وهذا الشعور الذي كان يثبت في قلوب أبناء الأمة العربية . كل هذا جعل من الحجاز بيثة شمرية جديدة وعاصمة المدينة ومكة والطائف^(٢) .

وإذا كان القام يعشيق بذكر جميع الشعراء في هذه القرى العربية ، فلا أقل من التصرف على شاعر يمثل قرية من هذه القرى .

١ - قيس بن الخطيم :

هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو بن سواد بن ظفر ، من شعراء الديعة ،

(١) وابع تاريخ الشعر العربي: محمد نجيب البهيني من ١٩٩٠ ط دار الكتب القاهرة - ١٩٥٠ .
(٢) المرجع السابق .

ويكفي أبا زيد ، وكان أبوه قتل وهو صنير غيبة ؛ وكذلك عدى أبو العظيم قتله قبل ذلك رجل من عبد القيس ، فلما بلغ قيس بن العظيم وعرف أخبار قومه وموضع قاره لم يزل ياتمس غيرة من قاتل أبيه وجدة في الواسم حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله ، وظفر بقاتل جده بذي الحجاز^(١) ، فلما أسابه وجده في ركب عظيم من قومه ولم يكن مع قيس إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حذيفة النزارى فاستجده ثم بنجده ، فأتى خدش بن زهير فبعض معه بيني عامر حتى أتوا قاتل عدى فإذا هو واقف على راحلة في السوق فطهته قيس بجرية فقتله ، فأراده رهط الرجل ، فحالت دونه عامر ، فقال في ذلك قيس بن العظيم :

تأرت عدياً والعظيم ثم أشع	ولاية أشياخ جمعت إزاهما ^(٢)
شربت بذي الزرين ربة مالك	فأرت بنفس قد أسيت شهاها ^(٣)
وساعى فيها ابن عمرو بن عامر	خدش فأدى غمة وأفاهها ^(٤)
طلعت ابن عبد القيس طنفة فمأز	لها نذ نولا الشماغ أساهها ^(٥)
ملككت بها كني وأهبرت فتنها	برى قائم من دونها ما وراهها ^(٦)

وقد قال قيس هذه الأبيات من قصيدة طويلة منها :

تذكر ليلى حسنها وسفاهها	وبات لنا إن يستطيع اتفاهها
ومثلك قد أسيت ليست بكنة	ولا جارة أنفتت إلى خباهها ^(٧)
إذا ما أسطبحت أربها خطم ثرى	وأبنت دوى في السباح رشاهها ^(٨)

(١) موضع بريدة كانت تقام به سوق من أسواق العرب في الجاهلية. (٢) أي جمعت القوم عليها.

(٣) بذي الزرين : السيف ، والزر : حده ، والزفة : العروة ؛ يريد موضعها وهو الضيق.

(٤) ساعى : واقتنى . (٥) النطف : القنب ، والشماغ : حمرة الدم ، والشماغ : بلع اللين ؛

انتشار الدم . (٦) ملككت : شدت وشدت ، أهبرت : أوسعت .

(٧) الكنة : امرأة الأبن أو الأخ ، أنفتت إلى خباهها : أي ليس بينها وبينه سر .

(٨) خطم ثرى : أي أنه انحلت عن جر ثوبه من الخلاء ، وأبنت دوى : أي أي أنه يقع في السباح مثناه .

ومن خلال هذه الأبيات نستطيع أن نخلص شاعرية قيس بن الخطيم فهو شاعر مطبوع يبتد في شعره عن التكلف ولم يحاول أن يميل بشعره نحو الصنعة أو الحلية اللغوية إلا ما جاء عنو الخاطر . كما أنه صادق الإحساس والتصوير، ولم ينجح إلى التحول ليعبر به عن مشاعره ، ولذا فإن أسلوبه واضح وتبيري ورائق وألفاظه جزلة رصينة لا يتسرب إليها الزهن أو الفتنور. أما موسيق شعره فضيقة لمسافة مع طبيعة الروشع الذي يبرع عنه ، فإذا ما بدأ شعره بالنزل وجدنا اختياره لألفاظه تشع منها الموسيقى الداخلية الرقيقة التي نتم عن حس مرهف وعاطفة هادئة رزينة ، أما إذا تناول في شعره موافق التآثر والانتماء إذا بالموسيقى الصاخبة والألفاظ المجرزة القوية تعبر بنفسها عن مواطن هذا التآثر والانتماء .

ومع ذلك فهو شاعر تقليدي ، يميل إلى أن يبدأ شعره بالنزل ثم ينتقل إلى الفرض الذي يريد التحدث فيه كما هي طبيعة الشعراء التقليديين .

ولقد بلغ من صدق شاعريته أن يحب الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره بعد أن صبه فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ثم أتقدم قصيدة قيس بن الخطيم فأنشده بعضهم إياها - وكان مطلعها :

أعرف رسماً كطراد الذاهب لعمرة وحشاً غير موقف رأكب^(١)
إلى أن بلغ قوله :

أجدهم يوم الحديفة حاسراً كأن يدي بالسيف خرق لاصب^(٢)
فألفت إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشبهه له
ثابت بن قيس بن شماس وقال : والذي بينك والحق يا رسول الله لقد خرج إلينا سابع

(١) الذاهب : صم مذعب وهو جلد تجمد فيه خطوط مفعبة بعضها في إثر بعض ، والطرادها : تائبها .

(٢) الحديفة : قرية من أمراء القديفة في طريق مكة ، والقرق : خرقة مقلوبة يلبس بها الصبيان ، وعن سائس في مصر : القردة .

جرسه ، عليه غلالة وملحفة موروسة (مصبوغة بالورس . وهو نبت أصفر تصبغ به الثياب) بجلده ناكاً ذكر^(١) .

وليل : قدم النابتة للقيان المدينة ، فقدم قيس بن الخطيم جلس بين يديه ، وذلك بعد أن أشد النابتة تعبيدة له ، وقال النابتة : ألا رجل يشد ؟ . ثم أشد قيس قصيدته :

* أنرف رمتا كاطراد الزاهب *
حتى فرغ منها ، قال : أنت أشرف الناس بإبن أخي^(٢) .

٣ - أبو طالب بن عبد المطلب :

من أكرم رجال مكة وأقربهم عزمة وأعزهم معاش ، وأشدهم ذكاء أبو طالب ابن عبدالمطلب عم رسول الله صل الله عليه وسلم ؛ ورث عن أبيه عبدالمطلب بن هاشم عزة النفس وسداد الرأي وقوة الهابة ، وكان كأبيه شامراً بالقطرة ، ولكنه لا يكاد يقول الشعر إلا عندما تهزه الأحداث .

ويذكرنا التاريخ بدم الليل ، فأقدم أربة الحبيشة بجيشه وقيانه لخدم الكعبة وتحرف الناس وملسكهم الوجع والملع ، غسل عبد المطلب ساكني القدس وابط الجاش ، يتنهل صدق إيمانه وقد أمسك بباب الكعبة وأشد يقول :

لا م إن الرء بم صنع رحله قمتع رحالك
لا ينان سألهم وعالمم أبدا عمالك
جروا جوع عيالم وللميل ك يسبوا عيالك
عدوا حاك بكيدم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وبقلفنا فأسر ما بدا لك

ومن ثم نشأ أبو طالب وقد ورث عن أبيه كراهية الظلم ومقت المدون وأوى مهابة الرؤساء ، وقد كان أحد القرن سادوا في الجاهلية مع الإفلال .

(١) الأمان ج ٦ ص ٢١١ - كتاب التحرير . (٢) المرجع السابق ٣١٢ .

اشتهل بالتجارة في الجاهلية ، فكان مثال الصدق وحسن الساملة وشدة النجاعة
- ولعل اشتهل أهل مكة بالنجاعة الاقتصادية وقيامهم برحلي الشتاء والصيف - كان
من أسباب قوة القشر عند شعرائهم مع أنهم كانوا أساطين الفصاحة وأمرأه البيان^(١).
شهد أبو طالب ميلاد الدين الجديد ودافع عن نبي الإسلام دفاعاً مجيداً ومع
ذلك لم يقدر له أن يدخل في هذا الدين . وقد أزرعه أنه كان يقول :

ولقد علمت بأن دين محمد من خسير أديان البرية دينا
ولقد أرادت فريرش أن توغرس در أبي طالب وتبرح حفظته ضد الرسول والسلفين
ولكن أبى طالب - وهو الرجل الحصيف - أدرك ذلك ثم يتأثر ، بل قام يتألف إليه
القلوب حتى يمد فريرشا عن وجههم .

واقتلب الوفء وأثارت موافق أبي طالب حفاظ فريرش فأجتمعت رؤوسهم
وتأهدوا على أن يكتبوا كتاباً يشاهدون فيه على بنى هاشم وبني المطلب - وعلتوا
الصحيفة في بيت الكعبة توكيداً على أنفسهم فلما تم لهم ذلك أعازت بنو هاشم وبنو
المطلب إلى أبي طالب ، فندخروا مه في شبيهه ، وق ذلك يقول أبو طالب :

ألا أبلنا على - على ذات بيتها لؤبياً وشما من لؤي بنى كعب
إلم نعلوا أنا وجسدنا محمداً نبياً كوسى خط في أول الكعب
أيقوا أيقوا قبل أن تحفر الزين ويصيح من لم يمين ذنيا كذي القرب
ولا تدمعوا أمر الرشاة وتظلموا أوامرنا بدد الودة والقرب
وتسجلوا حرباً حواناً وربما أمر على من ذاقه حلب الحرب
فلسا ورب البيت ندلم أحدا لوزاء من عض الزمان ولا كرب

ولقد كان لأبي طالب أشعار سائرة وقصائده مذكورة في مدح الرسول وتأيدته
والدفاع عنه . وتلك من أسرار الصيرة ونفحاتها . . ولذا كان يبدو على هذا اللون من
(١) يشاب إلى ذلك : أن تكة كانت حرمنا آتيا ولم يكن أماليا يتدون أو يجر عليهم سما
يجر لهم تارة النصر .

شمر أبي طالب ، طابع الصدق وهو يأخذ شكلاً دينياً حيناً يتسكلم عن الأديان السابقة التي بشرت من قبل أن يأتي رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم . . ههنا بجانب ما يميز به ذلك الشمر أيضاً من التوة والوضوح مع البساطة وعدم التكلف أو الاتساق مع التعبير في آفاق الخيال .

كذلك يبدو في هذا الشمر - السكي - طابع التصظيم للمقدسات العربية وأبرزها بيت الله الحرام ، واحترام المقدرات والتقاليد العربية النابعة من سديم البيئة من الوفاء بالهدم وإجارة المسجد وما إلى ذلك .

ولقد روى أن عتبة بن ربيعة لما قطع رجل أبي عبيدة بن الحارث بن العطلب يوم بدر هم عليه على وعزة فاستنفذاه منه وضرباً عتبة بسيليهما حتى قتلاه ، واحتضنا صاحبهما من المركبة حتى ألقياه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، لو كان أبو طالب حيناً لم أتة قد صدق في قوله :

كذبتم وبيت الله كفى محمداً ولنا نطامن دونه وتناضل
ونصره حتى نصرح حصوله وتذهل عن أبنائنا والحلالل

وورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من قتل بدر وأمر بطرحهم في الغيب ، جعل يقول : يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أبا جهل بن هشام ، يا فلان ، يا فلان : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً ، ثم أخذ يذكر من شمر أبي طالب بيتاً فلا يحضره ، فقال له أبو بكر : لعله يا رسول الله قوله .

وإنا لعمر الله إن جسد ما أرى لتليسن أسبائنا بالأمانسل
نسر رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال :
إي لعمر الله لند التيبست

ولقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبي في عام حديد ، فقال :

يا رسول الله : أيتهاك ولم يبق لنا سبر يرتفع ولا شارف يجتر^(١) ، ثم أشفه آياتنا
خفها بقوله :

وليس لنا إلا إليك قرارنا وابن فرار الناس إلا إلى الرسل
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى سد الكبر فحمد الله وأثنى
عليه ودعا دعاء السقيا ، فما رد يده إلى بخره حتى تزييت السماء بالنام وجاءت
بالطر ، فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : لله در
أبي طالب ، لو كان حيا لفررت عيه ، من يشهدنا قوله ؟ فقام على فقال : يا رسول الله ،
لعلك أردت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال الياقى عصمة للأرامل
يلوذ به الملاك من آكل حادهم فهم عندهم في رحمة وفواصل
قال : أجل^(٢) .

٣ - أمية بن أبي الصلت :

هو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف التتقي ، شاعر
تتيف ، وأحد التمسجين للدين في الجاهلية .

نشأ بالطائف وكان أبوه شاعراً مشهوراً ، وورث الكثير من أخبار اليهود
والنصارى ، بعد أن اطلع على كتب الأقدمين وقرأ التوراة والإنجيل وكان مفلطحاً
على التدين ، لقي في تجارة له إلى الشام بعض أهل الدين ، فزهد في الدنيا وليس السوح
وتعبد ، وذكر في شعره إبراهيم وإسماعيل والحبيبية ، ووصف الجفة والقار ، وحرم
الخر وشك في الأوثان وطمع في النبوة ، وكان يجتر أن نبيا يبعث ، ويؤمل أن يكون
ذلك النبي ظاهراً بظهور النبي - محمد صلى الله عليه وسلم - استقطق في يده وقال ، إنما

(١) كناية من القسط للعديد الذي أصاب الناس في ذلك الوقت .
(٢) من طالع هذكتور عبد الحميد للنفوس بصفة الأجر من ٨٢ ، ٢٦٤ - الجاهل المصرون
عام ١٣٦٨ هـ .

كنت أرجو أن أكونه ، وحله الحسد إلى أن يناسب الدين ورسوله العدا ، وأخذ
بمخترش فريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرى قتلام في وفعة بدر ، فهى
التي عليه الصلاة والسلام عن رواية شعره في ذلك ، وكان يقول - إذا سمع شعره في
التوحيد والإيمان والتناء على الله : « آمن لسانه وكفر قلبه » .

شعره :

بعد أمية من أكبر شعراء القرى - على قلة الشعر فيهم ، غير أن الذى غرض
من شأنه ، في نظر بعضهم - كثيرة استعجاله للدخيل من البرية والسريانية في شعره ،
وكان أمية يسمى السباء : (سافورة وحقوقه) ويؤمن أن للقمر علاقة يدخل فيه إذا
خسف ويسميه (الساهور) ، ويسمى الله في شعره : السالميط والترور ونحو ذلك .
ويعد شعره ببعض السوءة في لفظه ، يذكر بعض النجائب من القصص
الظلمية والأساطير الخرافية ، وخلق العالم وفنائه ، وأحوال الآخرة ، وصفات الخلق
والشروع له ، وهو يذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء قبله ، ويخلل ذلك
بهي من الحكيم والأمثال .

وقد اختلفت شعراء أمية بن أبى الصلت فيما أدخله على أدب العرب من معان
وأسايب جديدة ، لا في رونق كتابته ولا في جمال تصويره ولا في متانة سبكها ،
وليس من شك في أن ما تأثر به أمية من كتب الأقدمين وما اطلع عليه في كل من
التوراة والإنجيل كان له دور كبير في اتخاذها في شعره تلك الوجهة الدينية ، وإن كان
له شعر آخر في غير الدين يكاد يتحصر في الفخر والوصف والمدح والزنا .

ومن نماذج شعره الدينى قوله :

الحمد لله محسانا ومعصينا	بالفسير سيحنا ربي ومسنا
رب الحديقة لم تنفس خزانها	مجموءة طيق الآفاق سلطانا
ألا نهي لنا منا فيغيرنا	ما يسد نابتنا من رأس عيانا
وقد طمنا لو ان انهم يطمنا	أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

وقال في حادثة البيل ، وأن الدين الحق هو الحنيفية - ملة إبراهيم حنيفا - بعد ذكره من آيات الله في السكون والحياة :

إن آيات ربنا بايات ما عصى فيها إلا السكور
خلق الليل والنهار فشكل مستبين حسابيه مقسود
ثم يجلو النهار رب كريم بمهابة شامعا منشور^(١)
حبس الليل بالنفس حتى غسل بجمو كأنه مقود^(٢)
جوه من مارك كندة أبطا ل ملاووث في الحروب ستور^(٣)
خلفوه ثم ابدعوا جدياً كلام عظم ساقه مكسور^(٤)
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور
ومن خير توصلات أمية قوله :

إلى الله أهدى مدحى وثانياً وقولا ردياً لابي الدهر يانيا
إلى لك الأعلى الذي ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا
حنانك إن الجن كنت رجاءم وأنت إلهي ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم ربنا لمن أرى آدين إلهنا غدريك الله ثانيا
وإني وثر سبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ما غفرت خطايا
فرب العباد أنى سبنا ورحمة على وبارك في بين ومالنا

ملقة أمية بن أبي الصلت ومثاله :

قال أبو عبيدة: « اتفقت العرب على أن أشمر أهل الدين أهل يثرب ثم عبد الليس
(يريد أهل البحرين) ، ثم تضيف (يريد أهل الطائف) وإن أشمر تضيف أمية بن
أبي الصلت »^(٥) .

وقال ابن سلام : « وبالطائف شمر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشمر بالحروب
التي تسكون من الأحياء ، نحو حرب الأوس والنضير ، أو قوم بنيون وينار عليهم »

(١) الباء : النفس . (٢) النفس : سكوت .

(٣) اللأوث : جمع ملوث وهو اليد الغريبة . (٤) ابدعوا : ففعلوا .

(٥) تاريخ الأدب العربي - ١ ص ٣٠٤ قبايس بيوت .

والذي قلل شعر فريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يجاروا ، وذلك الذي قلل شعر حمان وأهل الطائف . ومع ذلك كان نهم أبو الصلت بن أبي ربيعة وابنه أمية بن أبي الصلت وهو أشعرهم^(١) ثم يقول : « كان كثير المعائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ويذكر لللائحة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب » .

ولعل الذي ينصده ابن سلام من قوله : « ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء » : ما إسناده أمية بن أبي الصلت إلى الأدب الجاهل من الأساطير التي استنفدت جانباً كبيراً من شعره .

أما ابن قتيبة ، فلم يذكر عن مزاياه الشعرية شيئاً ، وكل ما ذكره عنه قوله : « إنه كان يأتي بالفاظ كثيرة لا ترميها العرب كقوله : « قر وساهور يسيل وينمد » . . . وكذا ذكره شيئاً من ذلك في الداني أيضاً . كقوله في الشمس : ليست بغالمة لهم في رسلها إلا معذبة وإلا تجهد وكقوله عن خيانة التراب للديك - في شعره الأسطوري :

بآية قام ينطق كل شيء وخان أمانة الديك التراب
وقد بالغ صاحب شعراء النصرانية ، جملة من شعراء الطبقة الثانية ثم أغرق في البالغة فقال : « وقيل من الطبقة الأولى » .

والرأي الصواب في شعر أمية بن أبي الصلت ، أن غير الدين منه يتجاوز الرتبة الوسطى من شعراء الفري يتقدار ، حيث يشتمل أمية معظمهم ولكن لا يبعد في الفضل كثيراً ، وفيلهم يلوه كحسان علواً كبيراً ، وله في هذا الضرب من شعره سهولة اللفاظ في غير ابتذال ، وروعة معان من غير تنقيد . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في الفكوى من عقوق ابنة ووصف حاله معه حيث قال :

غذوتك مولوداً وعطيك إناثا تمل بما أخنى عليك وشبهل

(١) المرجع السابق ص ٣٠٠ ، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهل ، للأستاذ محمد حاتم عليه س ٢١٠ .

إنذالية نايك والفكر لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتغفل
كأنى أنا الطروق دونك بالذى طرقت به دونى نيباى تهمل
تخاف الردى نسي عليك وإنما لتعلم أن الورت وقت مؤجل
نفسا بملت السن والناية الى إليها مدى ما كنت فيك أو مل
جمت جزأى غلظة ونظافة كأبك أنت التسم التتمل
وصيى باسم الفسدد رأبه وفى رأبك الله يدوكت نقل
فليتك إذ لم ترع حتى أبوتى فلتك كما الجسار الجاور بمل

أما شعره الهبى فقد جاء فيه من حيث للمائى طيفة وحده ، وجاء فيه من حيث اللفظ هايط التزلة ضعيف الأداء ، وبخاصة إذا وضع القرآن أمامه فقصمه أو توحده يستقى منه ويباريه ، فإن شعره حينئذ يكون أبهى للبيان ، شبه مفلوس أن يحاول لمسه بالبيان ، ولذا فإن من سقط القول وعبت المحاولات ، إن تعدد الموازنات بين شعر أمية هذا وبين القرآن ، كما فعل بعض المستشرقين البعيدين عن تذوق روح الأدب وإدراك كنه البيان .

المستشرقون وشعر أمية بن أبى الصلت :

يمرود الضلل فى إحياء تاريخ أمية بن أبى الصلت وجمع أكثر النسوب إليه من الشرق فى ديوانه : إلى أحد الثمرية من علماء الألمان وهو : « فريدريك شولتهاس » ، وقد عني بطبعه سنة ١٩١١م ، واستعان فى تصحيحه وضبطه بمراجع كثيرة بين عربية وأجنبية وبذل فى ذلك عناية وجهدا شديداً وإن كان لم يمنعه تنصيه من خطأ البحث وضاد النظر عند ما حاول أن يضع قاعدة عامة من خلالها - على حد قوله - يمكن « إخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد » ، ويتصد من ذلك محاولة موازنة شعر أمية والقرآن الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم . ولعل هذا الموضوع يجزنا إلى تلك المسألة التى عني بها الباحثون عن تاريخ القرآن من الترمج وبخاصة من المستشرقين ، وهى - على ما يزعمون - تأثير المصادر العربية الخالصة فى القرآن . فقد كان هؤلاء الباحثون يرون أن القرآن تأثر باليهودية والنصرانية ومذاهب أخرى بينما كانت

شائمة في البلاد العربية وما جاورها ، ولكنكم وأوإن يضيفوا إلى هذه المصادر مصدراً عربياً خالصاً ، وانضموا هذا المصدر من شعر الرب الجاهليين ولا سيما الذين كانوا يحفظون منهم^(١) ؛ وزعم « كايان حوار » أنه استكشف مصدراً جديداً من مصادر القرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت وأخذ يقارن بين شعره وبين آيات من القرآن ليؤكد حقيقة ما توصل إليه .

ثم يأتي دور « فردريك شولتهيس » ليترض على « كايان حوار » وإن كان يدور في فلسفة . . . فيقول : « إن إخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد تتوقف على إيجاد ديوان عربي قديم يكون جاسماً لمدار وانر من الأشعار العربية الصحيحة ، ويفرض الجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن سنانة بيت لأمية لا يمكن أن تكون كلها منسوخة أو غير صحيحة » . وينكر فردريك رأي كايان حوار في أن محمداً صلى الله عليه وسلم - استعان بشعر أمية بن أبي الصلت ، ولكنه يرى أنهما جميعاً اشتركا في تسمية واحدة وتفرقتا عن مصدر واحد . . . كما يرفض عقيدة السلفيين في أمية محمد وعدم اتصال القرآن على هذا بأساطير أدبية قديمة ، ويؤمن أن نشأة القرآن من طريق الوحى كما يعتقد السلفيون من الأساطير التي تعد من الفرابية يمكن^(٢) .

وعلى هذا النمط يأتي المستشرقون ليرد بعضهم على البعض وهم يتخذون من مسألة شعر أمية بن أبي الصلت واتصاله أو عدم اتصاله ذريعة لهم إلى أن يمدوها نرسمة ليتطرقوا منها ويتسلقوا إلى القرآن ، وهو عين ما يتصدون - ليرموه هو الآخر بالزيف والادعاء ، حتى يصل بعضهم إلى القول بأن محمداً وأمياً من بيتان تتألفان من منبع واحد . . . من أساطير الأولين . . .

ولعل أبرز الأدلة التي يسوقها أمثال هؤلاء المستشرقين ليثبتوا أوجه الشبه بين ما يأتي به محمد - صلى الله عليه وسلم - وشعر أمية . . . هو ورود قصص الأولين في كل . . . وشتان بين الحقيقة وما يزعمون . . . إذ من العلوم أن القصص في القرآن

(١) راجع في الأدب الجاهلي ٥ - طه حين ص ١٤٢ .

(٢) راجع الأدب العربي وتاريخه للأساتذة ٤٤ - هاشم ص ٢٠٦ .

الكريم وإن وجد منه شيء في الشعر عند السابقين وخاصة في شعر أمية بن أبي
الصلت ، وإن كان متفقاً كذلك مع ما وردت به تراجم القدمين ، فإن القصص
القرآني يجرى دائماً على نمط يخالف مذاهب المؤرخين في توحيهم لسرد الحوادث كما هي
من غير محاولة لزيادة أو نقص ، فهو - أي القصص في القرآن - إنما يرى إلى الحياة
الناضية وسبيلها إلى العبرة وطريقاً إلى تقرير قواعد النظام والقياس إلى مواطن الانتفاع
بأدق أساليب الاجتهاد . . والأدلة كثيرة في القصص القرآني^(١) وكلها تؤكد أن
هذا القصص لم يهدف إلى تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتب
الأساطير ، وإنما الغرض هو إثارة القول إلى النظر في حقائق الأديان وتوجيه الفكر
إلى نشأة العقيدة والتأمل في كيفية تطورها في الأحيان المناسبة ، والإشارة إلى تأليه
الإنسان قديماً لتكثير من الطواهر السكونية بسبب ما كانت تثيره في نفسه من القلق
والزعم ، حتى تبين له من تثيرها وطروء الفساد عليها عدم استحسانها للعبادة ، وهو
مسلك للناطق السليم في بلاغة الاستدلال وإلزام الحجية . وكانت الظاهرة في القصص
القرآني أيضاً والتي أثارته الانتباه ، هي كثرة تكراره ، ليتكرر معه ما يتصل به من
الغظة ، وليحكي من جديد ناحية أخرى من الحسنة مع الترقى إلى الإنسان والمخرج عن
طوق البشر بوجود الإعجاز « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .
على أن الأمر لم ينفذ بالسفشرين عند هذا الحد ، بل لقد حذا حذوم من
الشرقيين فرينان : فريق مسيحي شابههم مشايبة دفع إليها الاشتراك في التدين
والانصب للاعتقاد ، وآخر مسلم أنرم بمحاكاة السفشرين والقيام وراحم في كل
واد ، والأول قد شغل شغلا بعيداً ، والثاني شاركه في هذا الضلال وزاد . . ويكفي في
الزد على هؤلاء وهؤلاء أن ما جاء في القرآن من القصص إنما هو في صوره وإعجازه
لا تدانيه أية نصيحة أو أي بيان صدرا عن الناس . . ويكفي أن يتدبره التدبرون
ويشغلهم الفارثون والسامعون ، ليجدوه كما قال منزله: « كتاب أنزلت آياته ثم فصلت
من لحن حكيم خبير »^(٢) :

(١) راجع : الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً ص ٤٠٨ - ٤٨٠
رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية د . صلاح الدين محمد عبدالقوام . (٢) سورة هود ، الآية ١ .

القِيمُ الثَّانِي

الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذه دراسات للحياة الأدبية في عصر من أزهى عصور الأدب وأنقىها ، وهو عصر صدر الإسلام .

وكان العصر الأول - العصر الجاهل - هو العصر الذي وضع أصول الأدب العربي ومقوماته ورسومه الفنية سواء في القصيدة أم في الخطبة أم في فنون الأدب الأخرى من وسايا ومحاورات ومفاخرات ومنازعات وسجع كهان . ومن هذه الأصول تسجد مختلف مقومات القصيدة والمطربة والرسمية ، ونسب عليها ومحتفيا منذ كان الأدب حتى اليوم .

أما هذا العصر الثاني - عصر صدر الإسلام - فقد جاء بأعظم الآثار البلاغية التي عرستها العربية على الإغلاق ممثلة في هذا القرآن الكريم - رسالة السماء إلى الأرض - ثم الحديث النبوي الشريف ؛ لسكان أن أحدث هذا العصر كل مقومات حياتنا الروحية والأدبية والفنية ، حيث جاء بأعظم رسالة نزلت على أكرم وأصرف رسول ، وهو محمد بن عبد الله صل الله عليه وسلم .

وهذه الدراسات تناوالت بدورها ظواهر الأدب وسماته وعناصره وأسوه بالدراسة والتحليل ، وعرضت لأهم خصائص ومميزات هذا العصر العظيم .

الفصل الأول

عصر صدر الإسلام

— ١ —

لنة كل إمة لابد أن تتأثر عليها ظواهر الحياة، وتختصق لنواميس الوجود، وتجر بها ألوان شتى . من ضيف إلى قوة، ومن جود إلى حركة وتوئب، ومن انكسار إلى تقدم وانتعاش .

تقد يطوف بها من الأحداث الجاهدة، والذواصف القاتلة، ما يمت فيها الموت ويسلط عليها الدناء وقد تواتبها أسباب الحياة بقطعة، وعناصر القوة والنماء مشبوبة . ذلك أن اللنة ترجان القلوب وحديث النفوس، والأداة البهيرة مما تنطوي عليها الضيائر من فسكرة أو خاطرة .

ولقد تأثرت لنة العرب أعمق التأثر بالإسلام الذي بدل كل شيء، وغير السياسات وأخلقت لسكل مظهر، وقلب الحياة العربية من حال إلى حال، وحلها هي أعياء جديدة وناطقها رسالة مجيدة، فانطلقت تؤديها في سبر واستجابة وصفت نهض بها في صحاحة وبسر، مشحنة بما تستلزمه هذه الرسالة من «روح وافية وحلل برافعة، وأسلحة جديدة وستتناول الأدب العربي وتاريخه في هذا العصر بالبحث والدراسة .

— ٢ —

يفتح العصر الثاني من عصور الأدب العربي وهو عصر صدر الإسلام ببنة محمد صلوات الله عليه، ودمرته وهو بمكة فربما والعرب والناس كافة إلى الإسلام عام ٦١٠ م، وينتظم ما بعد ذلك مما أمته من عهد الرسول بمكة والمدينة وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي وينتهي بإنهاء عصر الخلفاء الراشدين وقيام دولة بني أمية على يد معاوية بن أبي سفيان عام ٥٤١ . . . ومدته ثلاثة وعشرون عاما هجريًا.

وهو من أعظم المصور في التاريخ الإسلامي آتياً ، وأكثرها في حياة العرب
والسلفين والعالم الإنسانية خطراً ، ففيه بدأت وتمت وازدهرت وانتشرت دعوة
الإسلام دين البشرية الخالد ، ومقتضاها التكريم من خلال الجمل والسفه والاستبعاد
والظلم والرق العسكري والبيروى والاجتبابى ، وعادتها الأمين إلى شاطئ الأمن
والسلام والنور والحرية والساولة ، وقادتها البر إلى حياة الدنية والعلم والتفانة
وحرية الإنسان من السبودية والخرق والتفر والجور .

وتاهيك به بعد ذلك عصرأ ازدهرت فيه الفنة ، وفيه فيه شأن الأدب ، وسار
فيه للسان البرى والشعب البرى السيادة والوز والتلبة في شق الأرجاء والأمصار .
وكيف لا وقد افتتح بأروع جهاد عرفته الإنسانية ، وبأعظم دعوة وصلت إلى
الأرض من السماء ، وبثورة لم يبرق التاريخ قط لها نظيراً ، ثورة على الجرد البشرى
واستطهاد الإنسان لأخيه الإنسان وعبودية الطوائف والشعوب للأكثرين عدداً
وعُدداً ، ثورة فتحت صفحة جديدة في حياة العالم وأحاطت ظلام الحياة شياً ونوراً ،
وظلها عدلاً وأماناً وسلاماً وحرية ، مما شهد به أممناذاً الكسرى والروميين ودعاة
الإصلاح .

ومن أولى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأن يرفع في العالم معارة السلام ،
وداية الدنية ، وأن يعل الأرض بالسيا ويسى الإنسان لينتفع ما ينتظره من حضارة
باهرة وحرية نادرة ، وحياة زاهرة ، فيها الأمن والأمل والرجاء .
سلى الله عليه ، ورفنه إلى أعلى عالين ، وأكرمه في أمته كما أكرم أمته به .

هذا وعصر سدد الإسلام مستنقل عن العصر الأموى ، لاختلاف المؤثرات التي
آثرت في الأدب البرى في هذا العصر عنهما عصر بنى أمية ، وعلى ذلك سار كثير
من الباحثين ومؤرخى الأدب ، وهو ما سرتنا نحن عليه في هذا الكتاب .
وإن كان بعض الباحثين يحمل العصرين عصرأ واحداً بحدى ، بانفتاح بطر الدعوة
البيوية ، وينتهى بانتهاء عهد الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ .

والذين شهدوا هذا العصر العظيم من الشعراء يسمون المحضرمين^(١) يقول ابن رشيقي : « طبقات الشعراء أربعة : جاهلي ، ومحضرم وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، وإسلامي ، ومحدث . ثم صار المحدثون طبقات : أولى وثانية على التصريح وهكذا في المفيوط إلى وقتنا الحاضر »^(٢) .

أما الجاهليون فأمرهم مشهور ذائع، وهم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والخطباء والبلغاء وأرباب التصانيف واللسان والبيان ، وهذه السكينة جمع لسكينة جاهلي من الجاهلية للأخوة من الجهل ضد العلم ، لما كان عليه العرب قبل الإسلام من أمية ظاهرة ، أو من الجهل ضد العلم بمعنى السفه والغبث وسرعة النضب ، لا كانوا عليه من الإسراع إلى الانتقام والأخذ بالثأر وشن الحرب لأتفه الأسباب .

وأما المحضرمون^(٣) فإذا تركنا حديث الاشتقاق القوي فإن الدال على من عاش في هذا العصر أن يكون محضرمًا ، إذ ينبغي أن يكون قد أدرك الجاهلية والإسلام .

(١) وقال أن يطلق ذلك الاسم على البقاء والأدباء والخطباء مع أن من هذه القرون الأدبية أشد الدهر وخبوية به في كثير من خصائص الأدب .

(٢) ١ / ٢٢٢ ، السنة لابن رشيقي طبع عام ١٩٢٤

(٣) من المحضرمه يقال أذن محضرمه أي مقطوعة فكان الشاعر اصطنع من الجاهلية إلى الإسلام : وقيل أسلم قوم في الجاهلية على ما قبل فلقوا آذانها فسمي كل من أدرك الجاهلية والإسلام محضرمًا ، وزعم هذا القائل أنه لا يكون محضرمًا حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبي وقد أدركه كبراً ولم يبق له من ابن رشيقي : وهذا عندي خطأ لأن الثانية الجندی وأيضاً قد وقع عليها هذا الاسم (١ / ٧٢ ، السنة ط ١٩٢٤) .

وقال أبو الحسن الأئمش : هو من قولهم ماء محضرم إذا تناهى في الكثرة والسمه فنه س من الزيل التي شبهه الجاهلية والإسلام محضرمًا لأنه استوفى الأمرين (٣٠٤ / ٢ الزهر ، ١٧٢ / ١ السنة)

وسكن : شاعر محضرم بلغاء مأخوذة من المحضرمه ومن المأخوذة لأنه نطق الجاهلية والإسلام (٣٠٥ / ٢ الزهر ، ١٧٣ / ١ السنة) .

أما الذين نشأوا في الإسلام وتأدبوا بأدابه، وقاتلوا الشر متأثرين بالموامل الجديدة التي نشأت مع الحياة الإسلامية فهؤلاء إسلاميون يناب عليهم أن يكونوا قد عاشوا في دولة بنى أمية واستظلوا بظلمها ، إذ من الثابت أن كثيراً من الشعراء الذين تأثروا بالإسلام ومبادئه قد بهرتهم بلاغة القرآن ونصيحته ، فانقطعوا عن قول الشر وعفقت ألسنتهم وبلاغتهم عن إنشاده، ولم يسعروا على سلة بيتابه الفرة ، إلا هؤلاء الذين بدوا عن روح الإسلام ولم يتأثروا به وعاشوا في عزلتهم في البادية ، فلما سكنت عنهم هذه الزوعة قليلا بالدم لهم هذه البلاغة المعجزة وبخضوعهم آثار بيتهم وحياتهم الجديدة ، بدأوا في نظم الشر ، ولم يوردوا إليه إلا وقد انتهى هذا العصر وبدأ عصر جديد هو العصر الأموي الخامل .

أثر الإسلام في حياة العرب الاجتماعية

رى الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مبلغ ما كان يسودهم من تنافر وتناحر وشفاق وخضام وحروب مدمرة مهلكة تأكل الأخضر واليابس ، وأخذاء وأخذان تسليح كل إثم وتسيب بكل جرم ، لأنفه الأسباب وأوهى الحوادث بهيج الشر وتنسف العداوة وتنهب نار الخسومة . لا يرحون لأحد حرمة ولا يرقبون في إنسان إلا ولا ذمة، يتفخرون بالأحساب ويتكاثرون بالأنساب، يفضون اللياق إذا اقتواء ويندرون باليهود إذا عاهدوا ، يأكلون الربا أشنافا مضاعفة ويستقصون بالأزلام ، ويفلمون بكل ما تملكه أيمانهم ويتمسبون بالباطل عصبية هوجاء خلبية ، تقوم ماملاتهم في غالب أمرها على البنى والظلم ، نهم : « إذا اكتفوا على الناس يستوتون وإذا كلوم أو وزنوم يحشرون » .

فما جاء الإسلام هذب الطابع ، وغير العادات ، وعما ما كان بينهم من السوء ، دعا إلى الإخاء والصداق وعلمهم كيف يحترمون اليهود ويحافظون على الرابح (وأوفوا بعهده الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بهتة تركيها) (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وحرم عليهم الربا وجهه لا يربو عند الله ، « وما آتيتم من ديار يربو في أموال الناس فلا يربو عند الله . . . لآ تأكلوا الربا أضعاف مضاعفة - يحق الله الربا ويرى الصدقات » وحذرم من الخمر لأنها تنال القبول ، وتسلب من الرء أقدس مظاهر البشرية « إنما الخمر والبسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

كذلك جبل الإسلام الأخوة في الدين أمي وأقدس من إناه النسب، حتى يستل ما في النفوس من سخائم العصبية وطبائع الجاهلية ، ويسر سدورهم بالغب والسباحة « إنما المؤمنون إخوة » وجعل الكرامة والقرعة بما يسر الغرب من القوي ويندر النفوس من صدق الإيمان « إن أكرمكم عند الله اتقاكم » « ومن أبغأ به محله

لم يسرع به نبيه « . والفاص عنده سواء ، وهم سواسية كأسنان المشط ، لا فضل
لعرى على جمى إلا بالقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، والؤمنون تسكافاً مداوم
ويسى بذمتهم أدانم وهم يد على من سواهم » .

يدلم الإسلام بحياتهم المشحمة وعيشتهم المتسككة وأخلاقهم النعثة وأنسابهم
النسوة، حياة شريفة ممتعة لا يستبد بها طيش ولا يسودها حقد ولا تنسدها حنائق،
أبدلهم بالجفاء والتفلة وخشونة القول وسوء الناملة أدياً كريماً وقولا لئباً وخلقاً
عظيماً وطباعاً تفيض بالجلال والبهاء ، إذ تمتد على طهارة النفوس وسلامة الصدور
وصفاء القلوب ، وتلك من أكبر النعم وأقدس الآلاء (واذكروا نعمة الله عليكم
إذ كذبتم أعداءه فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا وكذبتم على شفا حفرة من النار
فأعذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

ولقد حارب الإسلام الأديان الفاسدة ، والنقائذ الباطلة ، والأوهام الضارة ودعا
إلى التوحيد الخالص ، وإلى التفكير المستقل ، وبث في الناس حب المعرفة . . هذا
إلى أثره البعيد في حياتهم السياسية ، وجمه هذه القبائل العربية المتناثرة ، في ظل
دولة موحدة ، مما كان له أثره النوي في الحياة الاجتماعية .

أثر الإسلام في الأدب

وقد أثر الإسلام في الحياة الأدبية تأثيراً كبيراً، سواء في الفاظ اللغة أم في أسلوبها أم في فنون الأدب المختلفة : من شعر ونثر وخطابة وكتابة ، أم في أغراض كل فن منها ، مما سيجتهد باستقصاء في الفصول الآتية .

والتصوير ، يجرى الشعر على السنة العرب شعوراً وطبعاً وملسكة، ويحتفل نواديهم الأدبية بالبلغ للتأثر من جيد النثر: خطابة ومحاورة وسابحاً ونصائح وسواها. والعرب يهزم البيان ، وتحملهم بلاغة القول ، ولا يرون عبقرية إلا في شعر يروي أو كلام يبلخ يؤثر .

ومع ذلك فقد غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية تغييراً كبيراً وأساساً . وليس يرجع ذلك إلى ما اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافته وعلم وأدب وفن . ولا إلى آثار مدنية وحضارة ، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة ، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من فراع أعداء الدعوة ونضال خصوم الإسلام، وإنما يرجع ذلك كله إلى المصدر الأول لتقافة المسلمين الدينية والفنية والاجتماعية والأدبية ، وهو القرآن الكريم الكتاب المجيز ، الذي أسهل خشونة الطبع عذوبة وسلاسة وقوة وبدل حوشية الألسنة سهولة ووضوحاً وبلاغة، أورت العرب وضوحاً في التفكير ودقة في التعبير والتصوير وروعة في الحجية ، ودقة في الأسلوب، وجرماً في النثر ، وتبلاً في القصد .

أثر الإسلام في اللغة

وحدة اللغة وذيوعها :

أثر الإسلام في اللغة جد خطير، لا يمكن تمثيل القول فيه تمسيلاً، وإنما تكفي بهذا الإجمال :

١ - جاء الإسلام ولقرب لهجات غطفة، ولهجة قريش لها الأثرة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق وسواها الحج، ولقد وقفت قريش الروح والاقتصاد بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة ، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والتلبية. وكان من قريش ومن السلالات القرشية أبناءهم منهم رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمراءها وفوادها وفنائها وحكامها ومعلمها ، فكان ذلك أثر كبير في اتساع العرب لغة قريش بعد قليل ، أما ما توورت من لغة حير ، فلم يكن متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً سواء في التصريف أم الإعراب أم الأسلوب بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الألفاظ عن بعض في الدلالة على الساقى للتحدة فالسكك في اللغة الحيرية هو الذهب في لغة قريش ، وأبلى في لهجة حير يعني أعطى عند قريش ، والشار في كلام الحيريين هي الأسابع في لسان قريش ، وسامدون لغة حيرية وهي في لهجة قريش البناء ، وهكذا^(١) إلى غير ذلك مما له نظير في لهجات الضريين أنفسهم كالمسدة فهي الظلمة عند حيم والنوء عند قيس .

ولغة الخلاف بين الحيرية والقرشية اندمجت لغة حير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والتلبية على جميع اللغات واللهجات .

٢ - وهذه الفتوحات الإسلامية الباهرة أدت إلى انتشار العرب في شتى البلاد الفتوحة وإلى ذبوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار، وسارت هي اللغة الرسمية فيها،

(١) بلأثر اللغة حير ، وكذلك: المانيز، والرزة، والمور، والمور (وهو عندم الرأ) ،
لئ غير ذلك مما تجد منه في الإعتان (ص ٢٢٨ وما بعدها ج ١ ط ١٩٤٤) .

وأصبح يلوغ بها بعد قليل سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقيا الشمالية ، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد وسواها .

أغراض اللغة :

وزادت أغراض اللغة بتأثير الدين الجديد، وما نشأ عنه من نظام ومدنية وعمران وثقافة .

فقد استعملت في مراح التعمية الإسلامية والدعوة إليها وحجاج خصوصها وتبيين مراميها واستنباط أحكامها ، كما استعملت في حفظ نظام الملك ونشر الأمن والدل بين الناس ، ولما استدعت حياة الحضرة الجديدة وشئون الثقافة والرنة ، وفي إرشاد الناس إلى أحكام دينهم ، وتذكيرهم بأوامره وتواهيه .

إلى ما سوى ذلك من شتى الأغراض الجديدة التي تناولتها اللغة في هذا العصر زيادة مما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام ، وبعد أن كانت اللغة في الجاهلية تميز عن عقول محدودة سارت تنطق عن عقول استقصات يهدي القرآن وتأذبت بأدب الإسلام .

منايبها وأساليبها :

وظهر في منافي اللغة الذقة والتذكير والقهم والتمق ، بما أفاده السلفون من ثقافة القرآن والدين ومن خبرة وتجربة وإدراك صحيح للحياة ، كما اتسمت مادة المعاني باتساع الشاهدات والناظر والمقولات والتمويجات ، وتمددت صور الخيال في روعة وجمال تبير ، بتجدد وتمدد صور المشاهدات التي يتبرع منها والتي كانت مادة له .

أما أساليب اللغة فقد شاعت فيه العذوبة والسلاسة في جزالة ، وأخذت بأطرانه القوة والجمال والوضوح وروعة التأثير وقوة الحججة وتأنج العاطفة والتهاب للشعور ودقة الإحساس الأدبي ، وذلك لتأثرهم بالقرآن وبلاغته ، مما رقى من عوسهم القاسية حساست طباعهم والسنتهم وملكاتهم ؛ ولم تقل إلا المسح للهدب من الأساليب . ويأثير الإسلام بطل سجع السكبان وأغرابهم عن يستنبثون الحصى ويترجون

الطير ، وبطل النجر في الأسلوب فسار على كرمها صمغاً يطلق من معلقة دينية قوية
ويصور حياة روحية واسعة ، ويتم عن تأدب بأدب الإسلام وتأثر ببلغة القرآن ،
ولقد غلب عليهم الإيجاز بادي ذي بدء لمدم فرأهم من أعباء الدعوة والفتك
والفتوحات .

الفاظ التنة :

وقد كانت هناك الفاظ كره الإسلام مدولها وأحبط آثارها فبطلت مهمتها
وانتفضى عملها وأسبحت لا تلائم الحياة الجديدة ولم تلبث سفة الوجود أن لفتها في
الأكدان ، ومن تلك الفاظ : هم صبا أو عم مسا ، فقد أبدعها الإسلام بلفظ
السلام ، وفولم : آيت اللعن : أي آيت أن تنزل شيئاً تلعن به .
وكذلك هذه الفاظ التي جاءت في قول الشاعر :

لك الراج قينا والصفيا وحككك والشبيطة والفضول

فقد كانت تجري مادهم إذا غنموا أن يطورا الراج ، وهو ربح التنية للثاند
ويطوره الصفيا ، وهي ما يؤزه ويصطفيه لنفسه قبل التسة ، والشبيطة ما أخذته
الجيش في الطريق قبل أن يصل إلى قسده ، والفضول ما نزل من القسة مما لا يمكن
تسمته ، وكان قرئيس - إبطال الإسلام ساني هذه الفاظ التي تثير الحق وتفسر
الأنتان والأفقاء ، وجعل مكانها اللمس . قال تمال : « واعطوا أنا غندتم من شي »
فإن فة حسه ولرسول ولقي القرى والبقاي والساكين وابن السبيل » .

وهناك الفاظ أخرى أحبها الإسلام وأوجد لها معاني بجانب ما تحمله من معنى
وتدل عليه من سرى كالصلاة والقيام والزكاة والركوع والسجود واللؤمن والسكران
والعاسق والذائق والظهار والإيلاء . والدة والنبقة ، وهكذا ، من الفاظ السكيرة
التي ترخرها فراميس التنة وساجها . وستطالفا في هذه الماضرات الآثار الراتبة
التيمة التي أحدثها الإسلام في لغة العرب : معانيها والفاظها وأساليبها .

الفصل الثاني

القرآن الكريم بلاغته وإعجازه

ليس هناك أبلغ في وصف القرآن الكريم من قول الله سبحانه وتعالى في شأنه :
« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١) أجل . . نطالما يقرأ
الؤمن كتاب الله تعالى ، متفهماً مدانيه ، مستجاباً أنماظه ومبانيه ، مستشفاً أسرارهِ
وخفاياه ، ويدلم الله ما من مرة يدرغ فيها من تامله إلا وهو يعرف عنه ويرى فيه
ما لم يعرفه أو يره فيما سبق من مرات .

ولطالما يدرس الفارس ما شاء الله له من علوم القرآن على اختلاف أتراسها ،
وتباين سماتها ، وما من علم من علومه إلا ويقف منها على جديد لم يكن يعرفه ، أو يطلع
فيها على سر من أسرار البيان لم يكن ليدركه . . . لولا هذا القرآن العظيم .

وقد يكون المؤمن للفارس لكتاب الله ، قبل تلاوته ودراسته يستمتع إلى آي
من هذا الفكر الحكيم ، فإذا به يجد نفسه مشدوداً إليها بسمعه وبصره . . . بل
بكله حواسه ومشاهره ، فإذا بها آهت بينات ، تنساب إلى النفس انسياب النسيات
الزفيعات ، وتنفذ إلى القلب وكأنها هي همسات ، وأحبابا سرعات . . . وكل من
الهمسات والسرعات تعرف طريقها النائد إلى الأماق .

وبين التلاوة والممارسة يتمكن المؤمن الفارس من إدراك الحقيقة ، لا . . . بل
بعض هذه الحقيقة ، فما كان لمع أن يدعى الوقوف على كل أسرار القرآن العظيم . . .
تلك هي الإيجاز القاهر من القرآن ، والجزء الباجز من العرب ، الذين لم يكن يشرق
القرآن في دنياهم حتى وجدوا فيه لنة غير ما كانوا يتلفون أو يسمعون أو يبرفون ؟
لنة هي التل الأهل في البيان ، وفي روعة التعبير وعظمة التصور (٢) .

(١) سورة هود الآية ١

(٢) راجع : الأثر القرآني في الصور الأدبية : رسالة ماجستير بكتبة كلية اللغة العربية للكتوب
صلاح بقرن محمد عبد التواب من ص ١٠ إلى ص ٦

ومع أن العرب في جاهليتهم ظفروا الشعر وتغنوا فيه ، فما اشتد النفس في جيده إلى أطول من اللغات ، وظفروا الشعر ، ولم يكفهم فيه يعطى على ما أبدعوه من أشعار . . . فقد أتى القرآن ، وكان العرب - وهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان - لم يسمعوا ولم يعرفوا بيانا من قبل ، مع أن القرآن لم يخلق ممججا جديدا ، ولم يقض قضاء على الدين المتوارفة عندهم في البيان ، وكل ما سمته القرآن أنه أخرج من المادة التي ألفوها آيات هي السحر الحلال ، وإن من البيان أسحرا .^(١) فلم يلبثوا أن تحيرت منهم الألياب ، ودهشت عروسهم لهذا السحر العجيب .

ومع أن القرآن جاء بهذا اللسان العربي ، وعلى طريقة العرب في الأداء والتفسير ، لكن هيات أن ترقى أساليبهم إلى أسلوبه ، مع كثرة ما جاؤوا به من عاصم الشعر وحيون الشعر ، إذ أن لغة القرآن تدفقت بأسلوب مبدع لا عهد لأحد بمثله . فلا هو موزون مقي ، ولا هو مرصع مسجع ، ينتجزاً فيه الذي في عدد من القفر ، ولا هو مرسل بظرد أسلوبه دون تقطيع أو تنجيع ؛ وإنما هو آيات مفصلة متعاقبة ، تروح الخيال بما فيها من تصور باهر ، وتسحر الوجدان بما فيها من منطق ساحر ، وتأخذ بالأفئدة والألياب بما تحمل من إيقاع جميل ، وتلك لعمري خصائص الشعر الأساسية ، إذا نحن أخذنا الثانية والثالثة .

ومن أجل هذا لم يلبث العرب أن أبدوا دهشتهم وجبرتهم مما ، إزاء هذا البيان الرائع ، فتخبط الكثيرون منهم في الحكم عليه ، لما رأوا فيه من سحر لفظي وفلوبي ، فن قالوا إنه الشعر ، إذراءً منسجماً مناسباً ، تحسبه النظم ، ولكنكم - وهم زعماء الفريضة - ما كانوا ليجهلوا أمر النظم ، وما هو بقول شاعر^(٢) . ثم ما لبث آخرون أن قالوا: هو السحر ، وهم حقا ممنورون ، وإن كانوا في ضلالتهم مبطلين فقد رأوه مسجوراً عنه ، غير مقدور عليه ، كما أحسوا له وقتاً في تلوينهم وقرعهم في عروسهم يزيد من دينهم وجبرتهم . فإذا هم أمام البيان القرآني ، وقد أبطل قولهم ، وأمن في تجهيلهم : « أسحرا هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ »^(٣) .

(١) المائدة ٤٧ (٢) سورة الطور : الآية ١٠

ثم يشهد شاهدهم بأن له حللوة ، وإن عليه للحلوة، وإن أعلاه ثمر، وإن أسفله
لنطق ، وإنه يبلو وما يبل عليه ، وما هو بقول البشر ، والعجيب في الأمر أن هذا
التائل نفسه يتنفس رأبه والحفتد يأكل قلبه، فيقول: « إن هذا إلا قول البشر »^(١).
وهو في ذلك ليس بأحسن حالا من أولئك الذين استبدت بهم الحيرة والدهشة
وذهبوا بقولهم بيديا: « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا »^(٢)
هي حيرة والدهشة إذن ، بل هو إيجاب وإعجاز مآ . وإلا، فما الفرق بين الكلام
والكلام ، واللادة هي اللادة في حروفها والفاظها وكلماتها ؟ ؟
للادة حقا هي اللادة . ولكنها ليست هي في انشائها ، وجمال نظمها ، وحسن
عرضها ، بجانب فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها وسمو ألفاظها .
نعم . . . للادة هي اللادة . . . ولكنها ليست هي في شفائيتها وانبات الروح
العبية منها بما يروح النفوس ، ويمز الشعاع والأحاسيس: « الله نزل أحسن الحديث
كتابا مشافهاً مثاني تنشر منه جلود الذين يمشون ربه ثم تلين جلودهم وتقرهم إلى
ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن بدل الله قلبه فإنه من هاد »^(٣).
وإذا كانت آيات الله القبيبات يفروها التاري ، أو يسمها السامع وهي تؤدي
عرضها ليبرف الإنسان خالته ، ويدرك خيرة في مماشه ومماده . فإن نفس الآيات
مع ذلك تراها وقد عرضت في أمر بديعة منسمة ، في جويشع منه الجمال والجلال .
أما الجلال : فن الرض ، وقوة الأداء ، وإيقاع العبارة، وإعجاز الإشارة على نحو
لا شبيه له ولا مثيل .
وأما الجلال : فلأن الجبال الرواسي غرقت بشئ لتسير عن أماكنها ، أو
أن الأرض الصلبة سدعت بشئ حتى تنبثت منالها، أو أن اللوق فيقومم خوطبوا
بشئ فقاموا من مناجهم، لسكان هذا الشئ هو القرآن العظيم . وسبق الله قائله :
ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به النوى . بل لله الأمر
جميعاً »^(٤).

(١) للذر ٢٠ (٢) الفرقان ٠ (٣) سورة الزمر : ٢٣ (٤) الرعد ٣١

وحق الآيات التي تناولت أمر العقيدة ؛ وتواترت عرشها ، إذا نحن نظرنا إليها ، وجدناها تحاطب النمل والذئب معاً ، فلا هي بالألفاظ والبيانات الزئبية ، التي يضيق بها سامعها أو تالفيها ، ولا هي بالمادى المجرمة التامسة التي تثير اللبس والإجهام ، وإنما هي الصور الأدبية الرائجة ، التي جمعت في إطارها رونق اللفظ ورشيق المعنى وجمال الاتساق ، حتى كانت تلك الصور الحسية التابسة ، التي يتصلاها الخيال ، فسلا يكاد ينتهي عنها إلا وقد انطلمت في النفس وأثرت في الحس ، وأقنعت الخيال وأمست الوجدان وليترا أو يسمع من شاء قول الله تعالى « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلفوا دأباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلمهم الذئاب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز »^(١) .

إما الآيات الأخر التي تدل على عظمة الله وقدرته ، والتي تذكر الإنسان وتهديه بالعبادة والعبادة . فهذه وغيرها إنما يجيء عرشها بنفس التصور الأدبي الرائع ، والتعبير الفني الجليل ، وفي إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس يستثير الحس ويستحض الخيال : « فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والنمر إذا اتسق لتركين طيننا عن طين ، فالهم لا يؤمنون وإذا فرى عليهم القرآن لا يسجدون »^(٢) .
« والشمس وضحاها والنمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يشأها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها جودها وتقواها فد أنزل من رزقها وقد خاب من دساها »^(٣) .

فنحن إذن أمام آيات محكمات ، بينا هي مسوقة لأداء غرضها الديني ، إذا بنا نستشعرها وهي تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني ، وبينما هي تعبر وتصور ، إذ بهذا التعبير والتصوير يأتي بالصورة الحسية التقبيلية ، عن المعنى القهني

(١) الحج : الآيات ٢٣ ، ٢٤ (٢) الانفال الآيات من ١٦ - ٢١

(٣) سورة النمل الآيات من ١ - ١٠

والحالة النفسية ، وعن الحداث المحس والشهد المتطور وعن التوذج الإنسان والطبيعة البشرية ، ثم لا تلبث الآيات أن ترتقي بالصورة التي ترسمها تتمتعها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا التقي القهقي هيئة أو حركة ، وإذا الحساسة النفسية لوحة أو مشهد وإذا التوذج الإنسانى حى شاخص ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .
فأما الأحداث والشاهد ، وأما النصص والمناظر ، فإننا نراها هى الأخرى شاخصة حاضرة ، فيها الحياة والحركة ، فإننا أضيف إليها الحوار فقد استوت لها عندئذ كل عناصر التأثير ، فما يكاد العرض يبدأ ، حتى يتحول المستمعون ، إلى مجبود وقد انتفخوا إلى مسرح الأحداث غلاء حيث تتوالى المشاهد وتتنوع الأحداث ، ثم لا يلبث القارىء أو السامع إن ينسى أنها كلمات نقل وأمثال تضرب ، بل هى مشاهد تعرض وأحداث تقع ، فهذه شخوص تروح على مسرح الأحداث وتندو ، وهذه مظاهر الاتصال بشقى الوجدانات البهتة من الوقت ، والمتساوقة مع الأحداث ، والأمر لا يبدو بدكل هذا كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتم عن الأساس الضميرة ، وتلك هى معجزة البيان أو إيجاز القرآن .

من أجل ذلك كان حيا مقصيا أن يشغل بالقرآن منذ نزوله كل من قرع القرآن صممه ومن شفاف عليه ، إذ ليس القرآن كلاماً عادياً كثيراً من الكلام وإنما هو حقا كما قال فيه منزله « كتاب أحسكت ألبانه ثم فصلت من لحن حكيم خبير »^(١) .
لم يكن من الغريب - إذن - أن يجتذب كتاب الله الحكيم ، ذلك العدد الوفير من العلماء منذ نزوله ، وكلهم يطوفون حول القرآن وأساليبه وإيجازه وتفسيره ووجوه قراءاته . وكان من أبرز هؤلاء : أهل البيان ، الذين رأوا من روعة التصوير فى القرآن ومن دلائل الإيجاز فيه ، وما جعلهم يبتنون بدراسته واستخلاص القواعد والتفاسيس من نماذجه الرائعة . وإن كان القرآن فى مسوده وإيجازه فوق كل القواعد والتفاسيس .

(١) سورة هود : الآية ١ ، ورواها : الأثر القرآن فى الصورة الأدبية ، التصوير الفنى فى القرآن .

وكان من الذين تناولوا بدراسة القرآن وإيجازه : أبو الحسن الزماني ، الذي راعته بلاغته القرآن ، فوضع رسالته « السكت في إيجاز القرآن العظيم » وعرف فيها البلاغة بأنها : « إيصال للمنى إلى القلب في حسن سورة من اللفظ » وهو عكس تعريف ابن رشيق للبلاغة فيما بعد ، حيث كانت البلاغة عنده « إهداء للمنى إلى القلب في أحسن سورة من اللفظ » .

كما أننا رأينا عبد القاهر المرجاني قد وقف بدوره - كما وقف سابقوه - على قضية الإيجاز التي كانت الحافز الذي دفعه بفترة إلى نهاية الطريق ، يتفرس التراكيب . ليفت على وجه الحسن والجمال فيها ، ثم ليتسكن من بعد من الوقوف على بعض مظاهر الإيجاز في كتاب الله الكريم .

ومن ثم لم يكن الزماني ولا عبد القاهر المرجاني وحدهما في هذا الميدان ، ميدان البحوث والدراسات القرآنية ، فقد تعدد الباحثون قبلهما وبعدهما ، وكل أدلى بدوره في هذا الميدان النضال ؛ ينترف منه ، وكل أعل بلاء حسناً في حدود مطلقه وإمكانياته وأبعاده .

وكان لذلك القول الكبيرة فضل في تحقق أحكام البيان القرآني عن مسائل ولطائف في فنون القول وجماله ، وما زالت دراسات إيجاز القرآن تؤتي أكلها وتزاد على مر الزمان حيوية وإنتاجاً ، إلى أن توصل علماء الإيجاز إلى دقائق ولطائف كثيرة في أسلوب القرآن ، وبلغت مقدرة بعضهم درجة طيبة ، وأصبحت بعض دراساتهم في شرح وتحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لسكل متطوع في فن القول ، ومرجعاً لسكل باحث في خلفا التصير القرني .

ولقد كان من العجيب حقا في آيات الله البينات أنها جاءت في أسلوب لا مطمع لطامع في مثله ، ثم يكن في قلب شمرى ، وليس هو بالثر المهمود وإنما أدى هذا الأسلوب بشكل خاص به مقصور عليه ، ومذهب متفرد لم يسبق إليه ، فلا هسو موزون متقن ، ولا هو مسجع يتجزأ فيه للمنى في عدد من الفقر ، ولا هو مرسل

يعطد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيل، وإذنا هو أسلوبه مزاجه الخاص في الاتصال والاتصال ، وفي الطول والقصر ، تنافر بعض سورته ، فإذا أنت منظر في تلاوتها إلى الأمانة والتمهل ، لأنها فصلت في ريث ومهل ، لأداء صان محتاج إلى البسط والريث ، كالشريح مثلا . وكوسف ما كان يثار بين السليين والتركين من الحروب ، وتنافر بعض سورته الأخرى ، فإذا أنت منظر إلى هي من الإسراع ، لأنها تؤدي صان محتاج أداؤها إلى القوة والنف ، قد فصلت آياتها فصارا ، مشتقة الدواصل ، تفرؤها فسكاننا تنحدر من حل ، وذلك حين يخوف الله عباده ويشقه في تحويرهم ، يأخذهم من جميع أقطارهم ويطلع عليهم طريق الجدال والمجاد .

ولما كانت الصورة الأدبية^(١) في القرآن موجهة أول ما توجه إلى النفوس البشرية لتحدث فيها تأثيرها الفعال ، فإن هذه الصورة اعتمدت .. فيما تنقد على عنصر الصوت . وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الاتصال النفسي ، وأن هذا الاتصال بطبيعته إنا هو سبب في تنويع الصوت بما يخرج منه مدأ أو نغمة . أو لينا أو شدة . وما يجي . له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتناوبه على مقادير تناسب ما في النفس من أسوها . من أجل ذلك سينتج سجع القرآن ونواضله ، وسولا بصورته إلى أعماق النفوس ، ولعل تلك الخامة الصوتية للصورة القرآنية ، والتي أخذت لها من الوسائل ما عمدت بها عن غيرها . لعل تلك الخامة هي إحدى ظواهر الإبهاز في كتاب الله ، والتي من أجلها سمى قرآنا دون غيره من الكلام ، لأنه مقروء ، ولا يصل إلى مشناه في الروعة والتأثير إلا بتلاوته وسامعه ، ومن أجل ذلك كان قول الله سبحانه : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »^(٢) ، بل كان الحك على ترتيبه ترتيبا ، لا قرآنا كغيرها . وما ذلك إلا ليتم حسن إيقاعه ووقعه في النفوس ، فيعظم أثره ، قال تعالى : « ودتل القرآن ترتيبا »^(٣) .

(١) راجع : الأثر القرآني في الصورة الأدبية من ٨٣-٩٩ رسالة ماجستير د . صلاح الدين محمد عبد الصواب . (٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ (٣) سورة الزمل الآية ٤

وكان من أبرز المصانص التي تميزت بها الصورة الأدبية في القرآن : ذلك التناسق الهني البديع ، الذي جمع في إطار الصورة ، وفي وقت واحد مما . بين رشاقة اللفظ ، ودقة اللفظ ، وجمال الانساق بين اللفظ واللفظ ، في الوقت الذي يبرز فيه أن مجتمع هذا الجمال ويكتمل في تصور أدبي غير القرآن ، ومن خلال هذا التناسق وجدنا القرآن يستخدم كل ما يمكن أن يتخذه من الوسائل الثيرة للخيال - وهو الحق كله - لفعل ضلها في النفوس . والسكى تنسق الصورة وثبتت في الإدراك والوجدان رأينا القرآن يستعمل صور البيان المختلفة - من تشبيه وتمثيل واستمارة وكتابة وغيرها من أبواب المجاز .

وربما يقول القائل هنا : إن العرب قد استعملوا أيضاً هذه الوجوه لإثارة الخيال وتحريك العواطف وإثاب الوجدانات والشاعر ، فسا هو الجديد إذن في تصور القرآن ؟

ولكنه فرق . وأي فرق . فرق بين تصور وتصوير ، وفرق بين تأثير وتأثير . إن الصورة الأدبية عند أبلغ البلاغة لم تخرج من نطاق كونها من تصور البشر محدودى الأفق . فهم على قدر وقوفهم على مظاهر الحياة والأحياء يكون تصويرهم ، ويعتقد عليهم بدخائل النفوس وطبائع الأشياء يكون تعبیرهم . فضلا عن أن البلاغ مهما عظم بيانه فإنه يبدو على كلماته مسحة الانفعال بأغراضه ، ولذا يكون تأثيره في السامع أو القارى على قدر تأثيره هو ، طبياً أو تعبيرياً .

أما التصور القرآنى . فإننا نحس من خلاله أن وراء الكلام قوة أهل من أن تنفعل بهذا الفرض أو ذلك . قوة تؤثر حين تصور ولا تتأثر . قوة العالم بخلاف النفوس وطبائع الأشياء ، فهو يسوق لها من الزان التأثيرات ما يتناسب وطبيعتها وينفذ منها إلى الأحماق : « إلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١) ؟

ومن هنا يبدو الفرق أيضاً بين التأثير والتأثير . فتأثير الصورة في نبر القرآن

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٤

لا يندى سلطانة على النفوس حد إطرابها والحصول على إيجابها ، ثم لا يلبث هذا الإطراب والإعجاب أن يتغنيا بانقضاء معالم هذا التصور ، ويجرد الانتهاء من التعبير . أما تأثير الصورة القرآنية فإنما يسرى في النفوس سرعان الروح في الأجساد ، فلا يزال يحركها ، ويتساقط على مشاهرها ، نسلا تلك النفس إلا أن تتابع بجبالها ووجدانها تلك الصورة ، فأهبة وراءها كل مذهب .

ولنتقل - على سبيل المثال - قول الله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا حينما لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك يجزيهم الجحيم »^(١) .

فهذه الصورة الشمة الروحية النبوة ، تثير الخيال ، وتجمله عما كذا على تمثل تلك الحركة العجيبة التي لا تتم ولا تنفذ ما تابها الخيال ، هذه الحركة هي ولوج الجمل في سم الخياط - الوعد الغروب لدخول الكافرين الجنة - بعد مر طويل .

فهذه صورة ليس فيها استعارة ولا كناية ولا تشبيه ، ولكنها فقط تعبر عن معنى التحيل غيبا بصورة التحيل حساً ومشاهدة . ومع هذا التحيل الرائع في التصور فإن الآية تعبر عن الحق الذي لا شك فيه . وذلك سر من أسرار الإعجاز في بيان القرآن الكريم . كذلك كان من خصائص الصور الأدبي في القرآن الكريم تلك الزوطة الفنية . التي تجلت في الآيات المحسنة حين استعرضت كلا من مؤلف الدنيا والآخرة ، استمرائياً لم يبد له عالم النبي موسوفاً غضب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيا متحركاً . جميل الناس يبشون في هذا العالم عيشة كاملة - وهو لها يأت بعد - فرأوا مظاهره ، وتأثروا بها ، وخلفت قلوبهم تارة ، والقشمت جلودهم تارة ، وسرى في عوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولعصهم من النار شواطئ ، ووف إليهم من الجنة نسيم ، ومن ثم باتوا يبرنون هذا السلام تمام الترة قبل مجي اليوم الموعود ، بعد أن عرضت عليهم موافقه في صورته ، تراهي في عشرات من الأوضاع

(١) الأعراف . ٥٠

والأشكال والسيات وتؤلف بذلك ملاحم نبية رائحة ، تشملها النفس ويهاجمها الخيال ، ويستغرق فيها الحس والوجدان ، وهي بذلك تنسحب إلى الثروة الأدبية القدية سفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال .

وخاتمة أخرى تطالنا بها الآيات الملهمة ، في ظاهرة كانت سمة من سمات القرآن البارزة ، تلك هي ظاهرة التناوب بين سورته ، وليس للتصود هنا تناوب جزئيات الصورة بحسب ، بل التناوب بين سورة كاملة في شكلها ومضمونها ، وتناوبها من إيقاع موسيقى وأعمال نفس ، وبين ما يتناوبها في سورة أخرى بكامل شكلها ومضمونها كذلك . وما أروع هذه المقابلة - في الشكل وفي المضمون معاً - في قول الله تعالى :

«كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يندب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد»^(١) .

فق وسط هذا الأروع ، ومن خلال المحول الذي ترسم سورته هذه الآيات . وهي تبرز لنا تلك الغرض الرهيب الذي تشارك في تجسيده جهنم « وجىء يومئذ بجهنم » ، وتلك الإيقاعات القوية الصاخبة ، والانتفاضة مع الرفض في رهبة وروعته ، واللبنة من البناء المنطل للشديد الأسر « كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفا صفا » .

في وسط هذا المذاب الروح والمحول اللزج ، نجد الصورة المقابلة تماماً في الآية التالية مباشرة ، حيث يقال لمن آمن :

« يا أيها النفس الطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »^(٢) .

هكذا في عطف ولطف : « يا أيها النفس » . هكذا في روحية وتكريم . و « اللطيفة » وسط هذا الروح العظيم ، و « ارجعي إلى ربك » في وسط هذا الشد والجذب والرفق الهين لهؤلاء الآخرين .

(١) سورة النجم ٢٦ - ٢٦ (٢) النجم ٢٧ - ٣٠ ورواج التصور التي في القرآن .

ودرج النفس للعلنة إلى ربها ، بينها وبينه من سعة وتكريم ، و « راضية مرضية » . بهذا الانسجام الذي ينمرا الجو كله بالرضى والتماثل « فادخل في عبادي » مخرجة بهم منتظمة في سلكهم ، « وادخل جني » هكذا في إجاز وإكرام وتمثيل^(١) .

وهكذا نفس الإيحاءات المناسبة مع كل موقف ، وهذا من عظمة التعبير وجمال التصوير وروعة التأثير التي تناسب دائما من خلال آيات الله المحكمات . والتي يشهد لها كل من قرأها أو سمعها وانقلبها بأنها تجمع في إطارها كل منافع الحق والخير والجمال . وإذا كانت الصورة القرآنية قد عبت عبادة كبيرة بأشكال هذه المقابلات الواضحة القوية . فبرزت تلك كاملة الرضوح دقيقة العالم قوية التأثير ، فإناك إلا لأن القرآن قد عرض في تصويره نماذج للحياة والأحياء ، والطبيعة كلها صور متقابلة: أرض وصماء ، ليل ونهار ، خصب وجذب ، مرتعات ومنخفضات ، سلاية ولينة ، استقامة والتواء ، إلى آخر هذه الصور المتقابلة في الحياة والأحياء ، وما يتصاف على هذه الظاهر من تبدل وتغيير وتحول من القبيض إلى القفيض ، ومن ثم فإن سماع القرآن أو تاليه لم يكن تعرض له سورة من سورته الزائلة إلا وينتهي بعدها لاستقبال الصورة التالية التوفيقية . وهذا يشكل في نفسه التصوير ثم يعظم التأثير .

كذلك من الخصائص التي تميزت بها آيات القرآن الكريم : أنها جاءت في إطار واحد موجه للامة والناسمة سماً ، فلم ترتفع لتتخاطب الخاصة ، ولم تنزل لتتخاطب العامة ، بل كانت على مستواها الرميح الواضح ، شأنها شأن الشمس في عليانها يستمتع بها الصغير والكبير على السواء ، وبراهم كل مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته . وسبق الله العظيم حيث يقول : « ولقد يسرنا القرآن للذکر نهل من مذکر »^(٢) .

(١) راجع الأثر القرآني في الصورة الأدبية ١٥٠ - ١٥٥ . والتصوير الفني في القرآن ٢٩ - ٨٠ (٢) سورة القمر ١٧

وما انحصر به الأسلوب القرآني أيضاً : روعة انتقاله من معنى إلى معنى أو من حالة إلى حالة ، انتقالاً يحرك النفس ويزيد من متعة الخيال لهذه الصور المتتابعة وهي تنتقل من الدنيا إلى الآخرة ، وترتفع من الأرض إلى السماء ، وتتحول من خطاب الإنسان العاقل إلى خطاب الجاهل الذي لا يفهم ولا يبصر ، والأجيب من هذا ، أن التصوير القرآني مع كونه في أروع السكاكات اختصاراً وتوفيقاً في الموضوعات ، هو أروع اختصاراً وتوفيقاً في الموضوع الواحد ، مع أن هذه التحولات السريعة السريعة والفتنات السريعة التنوع مقلدة الاضطراب ، ولكنه التصوير القرآني الذي يحتفظ دائماً بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وروعة التأليف وجودة السبك ، حتى ساء من هذه الألفاظ الكثيرة منظراً مؤثلاً متناسلاً ، يشهد لهذه القدرة الباهرة بالعلمة والإبداع والإيجاز .

على أنه مهما كانت تلك الخصائص المصورة الأدبية القرآنية . فإن النفس لا تزال تتطلع إلى هذا التصوير الذي يتحد فيه مما إلتصق العقل وإمتاع الوجدان ، وإلا . فن لهذا الكلام الواحد الذي يبيّن من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يشبع بهم الفلاسفة المتدينين ، وفي ذات الوقت له من التهمة الوجدانية ما يأسر قلوب ذوي الحس الرفيع والعامّة الجياشة فينمّر منهم بكلماته الحس والوجدان ؟

إنه لتصور رب العالمين ، فهو - وحده - الذي لا يشتهه شأن عن شأن ، وهو - وحده - القادر على أن يخاطب العقل والقلب ممّا بلسان ، وأن يخرج الحق والجمال ممّا ، يلتقيان ولا يبتعدان .

فليس بهجيب - إذن - أن توضع الصور البيانية في القرآن نصب الأعين أمام الأدياء والفتاد على السواء .

أما الأورون : فقد جعلها اللون البياض الذي منه يتبرقون ، وإن كانوا لم يدركوا كل السر في هذه الخلاوة ، وفي هذا السحر الخلال .

وأما الآخرون : فقد حاولوا جاهدين من أجل أن يكون التصوير القرآني مقياساً
لشكل تصوير أدبي رائع جميل، ولكن هيهات أن تبنى أي مقياس من مجال التصوير
في القرآن الكريم . اللهم إلا إذا أدرك الناس كنه الروح التي أمتاعها الله على الكلام
فحركتها وسورتها .
« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »^{١٥} .
وسدق الله العظيم

(١) الإسراء ، ٨٠ . وراجع : الأثر القرآني في الصورة الأدبية من ٢٢٠ - ٢٨٤ ومائة
ما بيننا ، الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً من ٤٩٨ - ٥٢٠ ومائة
دكتوراه للدكتور صلاح الدين محمد عبد الوهاب ، الرسائل بكتبة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

الصورة الأدبية في القرآن الكريم

- ١ -

زيد من هذه الدراسة أن تترسح لجهة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية ؛ فضلا عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية ، التي كانت جديتها حدثا كبيرا ضخما من أهم الأحداث العالمية ، وأكبرها إثارة وجليل أثر ، وكبير خطر في الحياة .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحية الروحية والفكرية قد أدى بكل جديد ، وبأكثر وأكبر مما أتى وبأبى به أي جديد ، وأن جنة القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم ، ومع كل ما وصل إليه الفكر الإنساني من تطورات مذهلة ، ونتائج جديدة في نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة ؛ وجنة القرآن الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور إنساني وبشرى ، وأمام كل تقدم فكري بلقته الحياة حتى اليوم ، والقرآن الحكيم كما كان جديدا على عقل إنسان القرون الأولى لزوبه ، فإنه يفكره الفرق القوي ، وما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على الفهم الأصول وأرسنخ المعالم ، هو جديد أبدا ، وسيظل هو الجديد دائما على مر العصور والأجيال والأحزاب .

إن تفيض في الحديث إذن عن الجنة في القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره العينية والفنية والسياسية والاجتماعية ، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن جنة الصورة الأدبية في القرآن الكريم . . . ويدفعنا إلى ذلك أمران :

الأول : جانب السجزة في القرآن الكريم .

والثاني : جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمه من الناحية الأدبية ، فضلا عما يجمع عليه كل المصنفين من أهميته وقيمه وأثره في الناحيتين الروحية والفكرية .

ولا يستعين للباحث أهمية أي نص من نصوص الأدب ، أو أثر من آثاره الزئبية ، إلا إذا أدرك إدراكاً حقيقياً مدى الجدة في هذا الأثر ، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والثور والزيادة التي يضيف بها إلى الفكر الإنساني شيئاً لم يضنه إليه السابقون .

ومن حيث كانت جدة القرآن في جوانبه الروحية والفكرية أمراً مسلطاً به ، فإن الذي سيبحثه بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة في الصورة الأدبية للقرآن الكريم أيضاً ، لأن تقريرها أساسى للتقرير أى أثر ولهذه ومعرفة قيمته .
ولذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة في الصورة الأدبية للقرآن ؟ ولا نطلق البحث إطلاقاً ليصبح الترض منه البحث عن مدى ما في القرآن من الجانب الأدبي عامة من جديد ؟ .

نم نريد أن نبحث عن الجديد في الصورة الأدبية في القرآن الكريم وحدها ، لأن الصورة الأدبية هي الإطار العام للأدب ، وهي التي تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته وتختلف وظائمه ؛ وهي التي تستثير الباحث أول ما يستثيره في النص الأدبي من خصائص ومميزات على أن الصورة الأدبية في النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآراء الأدبية ، ولا تختلف عنهم كبير اختلاف إلا نادراً جداً ، وفي أقل حدود الاختلاف والموافق الفينة للأدب .

والصورة الأدبية لها معنيان عند تعاد الأدب :

الأول : أنها تسمى التهج وطريقة الأداء ؛ وتساوى بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبي من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة .. الخ .

والثاني : أن الصورة هي الشكل في النص الأدبي ، وتقابل المضمون الذي هو الفكر أو المعنى ، أو الترض أيضاً (مع بعض التجاوز) في النص ، فكل هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الأدبي شاملة للبيان - أي الأسلوب - والفعال

التي بلون عاطفة الأديب ويسورها . وعندئذ تنف في النص بين الشكل والمضمون ، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة ، فلا يطنى أحدهما على الآخر ، فلا يطنى للمضمون على الشكل أي الصورة . وإلا خرج الكلام من باب الأدب إلى الملم ، ولا يطنى الصورة على المضمون ، وإلا كان الكلام أدبا لفظيا إنشائيا لا وزن له في باب الفكر ، بل في مجال الأدب أيضا ؟ وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة ، كما يهتم بالصورة أو الشكل .

وسوف نتحدث هنا عن جنة الصورة الأدبية في القرآن الكريم بالنسبة لأولئك التي هو طريقة الأداء ، ونتحدث بعد ذلك عن جنة الصورة الأدبية بالنسبة لتلك التي هو الشكل أو النظم أو الأسلوب .

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد آتت إلى جاسين كبيرين هما النثر والشعر ، فوقف النثر عند التلمذة والرسمية والتصبيح والتلذذ والحسنة والناثرة والفاخرة والمجاورة وسجع السكبان والأسطورة والقصة الشعبية القصيرة ، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكائها للبروف المألوف .

ولم يكن للنثر وقوته وأجتناسه في المجتمع العربي كبير خطر ، ولا عظيم شأن ؟ وكان أكثره أراجالا والفضايا ، وليس فيه ثقافة واسعة ، ولا فكر مضي . وأكثره يذهب في الشتات والاختلاف وتمتلك الوحدة الفنية (أو المصنوية) مذهبها بعيدا ، فضلا عن أن النثر لم يجعل به المجتمع الجاهل احتفالا يذكره ، ولم يوله عناية ما ولا أهمية منزلة خاصة ، ووفق ذلك كله فقد نعت النثر الجاهل قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين ، ولتنباع أكثره للذة الطولية التي عاشها هذا النثر ممتدا في بقائه على المحافظة وحدها ، والمحافظة بند منها النثر ولا يبقى طويلا فيها يسكن الشعر لأنه مفيد والنثر مطلق ، والنبيد يبقى في التذاكرة أكثر مما يبقى الطلق . ومع ذلك كله فهذا النثر الأثور عن الصبر الجاهل قد رفضه كثير من النوايين والنفساد ؟ ومن بينهم قريظ من

٣ - وأنها تحتل منجها يدويا في التعبير والأسلوب واللفظ والتجالي ، وليس هو كل هي . في مناهج التعبير الأدبي .

٤ - وأنها كذلك تكثر أخطاء الشاعر القوية فيها أكثر من مائة .
ولسنا نقول نحن ذلك نجما على التصيد العربية القديمة ، بل قد سبنا إلى ذلك الإمام أبو بكر الباقلي في كتابه المشهور « إيجاز القرآن » الذي درس مسألة امرئ القيس المشهورة في صفحات عديدة من كتابه ، وابن ما اشتملت عليه من أخطاء قوية وغنية وغيرها .

ومن نرف أهمية قصائد اللغات معرنة وثيقة فهي التي وضت كل الأصول الفنية للتصيد العربية وهي التي تحتل فيها البلاغة العربية بجميع شعباتها مثلا كالملا وهي التي استقيمت منها أحكام اللغة العربية وقواعدها في بيانها ونحوها وسرورها واشتقاقها وأحكام مفرداتها ونظام مسجدها وغير ذلك .

وهي كذلك التي أمدتنا بالشاهد والمثل على كل شيء في لغتنا العربية ، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول : إذا مرّ عليك فهم هي من كتاب الله تعالى فأنسوه من شعر العرب^(١) ، فمن لا يزيد أن ننس من قيمة التصيد الشعرية الجاهلية أو نقر منها ، ولكننا نضمها في موضعها الذي وضع فيها الإمام الباقلي في مقام حديثه عن إيجاز القرآن الكريم .

هذه التصيد الشعرية إذن كانت أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين ، ومع ذلك فإنها لا تزن شيئا في مقام الحديث عن الصورة الأدبية من القرآن الكريم .

فأهي إذن الصورة الأدبية في القرآن الكريم والجديد فيها ، والظروف منها ، والتي لم يمره الجاهليون من أجناسها وفنونها وأركانها وطرق أدائها ؟

(١) راجع ما كتبه من ذلك في كتابنا المبدأ الأدبية في العصر الجاهلي ، وكتابنا موقف القاد من العصر الجاهلي .

لأول وهله نجد أنفسنا أمام أشياء جديدة كل الجدة ، فقرآن وقرآن وآيات
وسور أسماء جديدة لسميات جديدة كذلك .

« وقرأنا فرقاء لنقرأ على الناس على مكث وتزلنا نزيلا »^(١) .

« تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذرا »^(٢)

« ألم نزلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا ، لعلكم تتقون »^(٣) .

« عله ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »^(٤) .

« سورة أنزلناها وقرئناها ، وأنزلنا فيها آيات بيّنات ، لعلكم تذكرون »^(٥) .

ولم ينزل القرآن الكريم على الخط الألف من كلام العرب ، لم يتخذ شكل
التصنية - الجاعلية خطأ له . ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا التوسية ولا التل
المسكنة ولا المفارقة ولا المناصرة ولا الماورة .

واسكتنا نجد فيه الفصحة في أرفع أشكالها وأروع غلالها ، ونجد فيه الخيال الرفيع
في ألوان بديعة من التمثيل والتشبيه والجاز والكناية والاستشارة ، ونجد فيه البشارة
والإنذار والوعيد والوعيد ، ونجد أرفع الأوصاف وأجل الصور .

لم يكن القرآن شرا ولا سجعاً ولا مزاجية ولا ترا مرسلًا ولا خطابة ، بل
جاء على مذهب خارج عن النهود من نظام كلام العرب ، ومبادئ للمأثور من مباحث
كلامهم ، يتصرف على وجوه مختلفة ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأمثال ،
وإعذار وإنذار ووعيد ونبيير ونحوه ، وأوصاف وتعليم ، وسير مأثورة ،
ويتردد بين طرق الإيجاز والإطناب ، كلمة يضيء ، كما يضيء النجم ، ويختر كما
يختر البحر ، كالروح في البدن ، والأمن في الوطن ، وكالتبث الشامل ، والمصاحب
المماثل ، وكأنشياء الباهر ، والبحر الزاخر .

(١) آية ١٠٦ سورة الأسماء .

(٢) آية ١ من سورة القصص .

(٣) آية ١ و ٢ من سورة طه .

(٤) آية ١ من سورة النور .

(٥) آية ١ من سورة الفرقان .

وإن تعجب تعجب تصور القرآن الكريم للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها وللنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها وألها وأملها ، وكفرها وإيمانها ، ويمثل العليا في الحياة الهذبية السكرية ، التي يسي إليها إنسان الإسلام ، وتسير لشاغلها الأمين إنسانية الحياة في ظلال الدين ؛ لأنه خلاصة لكل ما في الحياة من تفاعل وحقائق ، والنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة .

وفي القرآن الكريم من سمو وصفاء الحكمة ؛ وإتمام مطابقة التل ، ما جمع به البلاغة من مختلف أنظماها . وفيه من الحجبة الدائنة ، والروحانية الصافية ، والحديث عن العقيدة ، والإفاضة في بيان الشرك والإيمان ، والشر والخير ما يوقظ الضائر ، ويحرك العقول ، ويشير النفوس .

وفيه من أخبار الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، والشرائع البائسة ، والأديان السالفة ، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن الإخبار بالنبوءات ، ومن الإفاضة في شرح الدعوة ، وبيان التفرع ، والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار للشاهدة في خلق السموات والأرض ، ونبشاس الناب على الشاهد ، ويضرب الأمثال ، وإبراهيم العقلة الجردة ، وفيه من حسن التفسير ، وجمال الفاية ، وروعة الطباق ، وبتدع الجناس ، ورتبع الفواصل ، ما يهز القلوب ويحك على عقل الإنسان كل منانته وأبوأيه .

ومع ذلك كله فهو ليس كتاب قصص ، وليس كتاب متنة وتسلية ، وليس شعر أو أدب أو حكمة أو تاريخ أو اجتماع ؛ وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلم وحقائق ، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، فهو كتاب الإنسانية كلها ، وصحيفة البشرية قاطبة . وما أروع القرآن في تروأحه ومقاسده وخواتمه ، وفي مبادئ آياته ونواصلها ، وفي حديثه عن الماني الدقيقة ، والأفكار العميقة ، والأغراض النبيلة ، وفيما اشتمل

حلية من دقة التصوير ، وجمال الوصف ، مع سمو التعبير وعظمة التأثير ، وروعة الإيجاز ، وسحر الجاز وبلاغة التكرار ، وقصاحة التبريز ، يصور نعيم المؤمنين ، وسعادة الفتن ، فيدعك تشمر بإراحة والنشوة ، وبالسمامة والفرحة ، وبالسرور والميور ، وبثرة الجن ، وانتلاج الصدر ، وبالحب والطارب . ثم يصور هلاك العاصين وشقاء الجاحدين وعذاب الكافرين ، فيتركك حليف الهم والحزن ، والتذكرة والاعتبار ، والتفكير والتدبر ، والألم والدمع ، والبكاء والبيرة للسكينة ، والأمة الردة .

والسورة القرآنية ، فسيرة أو طوية ، نجوى . ممثلة للسكر ، ومصورة للرض ، ومؤدية لمنى ، وتسير في جوها العبق ، وأنها الساحر ، وجوانبها الشرفة ، تسير مع الفكرة الفصودة خطوة خطوة ، وتجدك تمشي مع الترض القرآني ، غاية نهاية ، في وحدة واتساق ، وفي نظام عجيب ، وترتيب غريب ، وفي منطلق ملسق ، وحجج متدافعة متدفقة ؛ وتجد الآيات تتحرك في مرض الاستدلال كأنها موكب من نور ، ومهرجان مصور لأدق خلايا الشمور ، وحنايا الصدور ، وتجد في هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التي تتلها السورة الأخرى ، وغرضا واضحا غير الترض الذي ترى إليه السورة السابقة أو التلاحفة .

وتجد افتتاحات السور العجيبة ، مثل من ، ن ، ق ، طه ، طسم ، طسن ، حم ، الز ، ألم ، إلى غير ذلك .

وتجد الآيات تتوالى في السورة ، وكأنها البحر الهادر ، والوج العاصف ، وتجد التواصل في السورة ، موقفة الخطأ ، متنفة الحروف ، وتجد النصبة والبيرة ، والوعظة والحسنة في قلب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت ؛ وفي طابع من الحسن والجمال ، ولا كحسن يوسف وإخوته .

وتجد لسلك سورة اسما عجيبا : البقرة ، والزعد ، والطور ، والمائدة ، والكهف ، ويونس ، ويوسف ، وإبراهيم ، وهود ، والنور ، والمؤمنين ، والمغاثين ، والنضحى ، والشمس ، والفتال ، والفتح ، والحشر ، والصف ، والنساء ، والطلاق ، والصحريم ،

والأحزاب ، والثالثة ، والأعمال ، والثوبه ، وآل عمران ، والجمه ، والصبر إلى غير ذلك ؛ وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة ، ولكل قصة حدثا وعبرة . وكل ذلك نخط مخالف لأخاط البيان عند الجاهلين ، وسورة مبانة لصورة البلاغة عند العرب الذين نزلت عليهم هذه المعجزة الإلهية الحكيمه . . إنها سورة أديسة جديدة لا نجد لها مثلا ولا شبيها بها ، ولا تجد لها نفسها ، إلا في القرآن الكريم . سبحانه ربى ، أزلت القرآن ، ونسخت القرآن ، وأسكت البرهان ، وأنت رب العالمين ، ومنزل الكتاب المبين ، ورأى العرب الكتاب شيئا عجبا ، ومنطقا جديرا ، ومنطقا نديجا من الحكمة الإلهية الجليله ، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب قاصداً إلى محمد بنو آيات الكتاب : «لقد كلفه فأجابني بشىء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شمر» إنما هو الوحى ، الوحى المنزل على محمد بن عبدالله ؛ الوحى الذى نرى بعض العرب على محمد أن ينزل عليه ، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الأحنس بن قيس يقول له : ما تقول فيما سمعت من محمد ، فقال الأحنس : ماذا أقول : قال بنو عبد المطلب : فيها الحجابة ، قلنا : نعم ، وقالوا : فيها السقاية ، قلنا : نعم ، ثم عادوا يقولون : فيها نبي ينزل عليه الوحى ، والله لا آمنت به أبدا . إنه الوحى المنزل من السماء ، المشتمل على الزوجه والجمال والجلال والبهاء ؛ وكفاه ذلك نفرا على نقر ، وسناء على سناء .

وتحدث الآن عن الجودة فى الصورة الأدبية القرآنية ، التى تريد منها الشكل وما يتقابل للضمون ، ببدان محدثنا عن الجودة فى الصورة الأدبية القرآنية التى يراد منها الجنس الأدبى وطريقة الأداء والنوع الذى ينتهى إليه التشكلم فى التعبير . والصورة التى تريد أن نتحدث هنا عنها ، ونزيد بها الشكل فى النص القرآنى ، لا يترى أحد ، ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام فى أنها والجودة سنوان ، وفى أنها تملر ببلانها على كل بيان .

تتكون عناصر الصورة من الدلالة السوية للألفاظ والبيانات ، ويضاف إليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفني ، من الإيقاع والمحسن للكلمات والبيانات ومن الصور والظلال التي يشتملها التعبير ، ثم هناك طريقة تناول الموضوع ، أي الأسلوب الذي تعرض به التجربة الأدبية .

والصورة الثيرة للالفاظ هي القاعدة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب التكلم ومشامره ، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والتم ووحدة العمل الأدبي وتظهر فيها شخصية الأديب وتخييره للألفاظ تخيرا دقيقا .

ويجف البليغ أمام اللفظ طويلا ، يؤثر لفظه على لفظه ، ويفضل كلمة على كلمة ، ويقول كثير من النقاد : إننا نغكر الألفاظ ، أي إن الألفاظ هي مظهر إدراكنا الفكري ، وعمل الأديب سميته الجو التي للألفاظ لتتبع على لسانها وسامعها الظلال والإيقاع وترسم الصور ، وتؤدي الشأن في رشافة وحركة ، وتتابع وعذوبة ؛ نقرأ قوله تعالى كتابه العزيز في سورة « والضحي ، والليل إذا سجا » فنجد جوا من الهدوء والطأنية والنسمة ؛ ونقرأ قوله تعالى : « فأصبح في الدابة خائما يتربب » ، فنجد كل لفظ في التعبير قد رسم صورة مذكور يتشقق كل جانب خوفاً وطلباً لموضع الأمن ؛ ونقرأ قوله تعالى « فقل بئذ ذلك ذنبهم » فنجد البلاغة في أروع منازلها ، ولا نجد لفظا يمثل الجفوة والظلمة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة . . وهكذا نجد الألفاظ القرآن الكريم تمثل التي تمثيلا دقيقا رائدا كمالا غير منقوص . . .

والخيال في الصورة الأدبية يبدو في مظاهره المديدة من التشبيه والمجاز والكتابة والامتداده وحسن التمثيل . . .

والإيقاع أو المصنوع في الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال . وموجبة البليغ تجعل أساطيره مملوفا بالبارونية واللغة والخيال ، ويجعله لا يفتقد أحدا في لفظه ولا في عبارته ؛ وليس الأسلوب حشدا من الألفاظ الرسومية ، ولكنه تسيير عن تجربة شمولية ، وترتيب الكلمات فيه وفق ترتيب التي في القمن .

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مفاسد الكلام وأحسوال بلاغته ،
توضيح الجزالة في موضعها، والزفة والمذوية في موضعها ، ويزنح التقديم والتأخير،
والذكر والحذف ، أو الوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، كل في موضعه، وبذلك
تسكل الصورة ، وترتفع منزلة الأسلوب في البلاغة ، ومن البدهى أن أبلغ الكلام
هو ما لا يلقى فيه بالأحكام المكررة جزافا ، وإنما يجب أن يصور الأسلوب الراحل
المختلفة لاهتمام المتكلم وإحساسه بالتجربة الشعرية التي يصورها .

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح التقدي كله هي كل شيء في البلاغة ، أو أم
شيء فيها ولو أردنا أن نقول إن الصورة الأدبية بهذا المعنى ، وهو ما يرادف الشكل
أو النظم أو الأسلوب جاءت على أبلغ ما يكون الأداء في القرآن الكريم ، وعلى
أروع ما يكون التصوير في أسلوب الذكر الحكيم ، لا أننا نجد في الموضوع .

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة ، مما ألت العرب في بلاغتهم
وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج في أسلوبه وصوره عن النطاق الذي كان
العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والنصر والوصل
والفصل ، والإيجاز والإطناب ، والتشبيه والتشليل ، والمجاز والإيجاز ، والاستتارة
والكتابة ، والتشليل والتفويض ، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية إلى مستوى
القمة ، وحد الإيجاز ، ومثالة السحر والروعة ؛ ولو أردنا أن نلخص نوازل بين تشبيه
قرأت وبين نظائره من كلام العرب لوجدنا البون شاسعا ، والفرق بعيدا ، ويطول
بنا الأمر لو وازنا بين أساليب القرآن وأساليب العرب ، فإن النتيجة التي سنخرج بها
من هذه المزاينة هي عظلة القرآن وجلاله وسموه وروعة الأسلوب والسحر فيه .

والعناصر الأخرى الجديدة في الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها ،
ولا تزال علوم البلاغة والتقد تفسر في طريقتها محاولة الكشف عنها ، من مثل الوحدة
المعنوية في الصورة الأدبية ومن مثل التجربة الأدبية التي يؤديها البليغ وبمعلمها
كلامه ، ومن مثل العاطفة والمسكرة والتخيال في الصورة ، ومن مثل النظم والشكل

في النص ، ومن مثل أثر الإلهام أو الصنعة في الصورة الأدبية ، ومن مثل الرمزية في الأسلوب أو الفكرة ، ومن مثل الرضوح والجمال والتأثير في الأسلوب ؛ وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تنصل بالصورة الأدبية ، كالزخرفة والجزالة ، والكتيريض والسكاية ، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك .

والناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجودة ، كل الجودة ، في كل جوانبها وأركانها ، سواء منها الناصر القديمة التي تعود استعمالها في الأسلوب ، أو الناصر الجديدة التي كشفت عنها النقاد المحدثون ، أو القضايا البيانية المتمثلة بالصورة التي كشفت عنها النقاد القدامى ، ولو حاولت أن أبين كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن يظل ماء البحر كله في ساعة أو بعض ساعة ، ولكن يظن أن في قدرته الإحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد في أسرار بلاغة القرآن الكريم وإيجازه .

وحسبك أن أسلوب القرآن تمتع فريد من البلاغة والزخرفة وهو الروح وجلالها ، ومن إضراق البيان وجمال الفيض ، وعبقرية التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزلة والسلاسة ، وبين القوة والنعومة ، وبين حرارة الإيمان وتدقيق البيان ، فهو السحر الساحر والقور الباهر ، والملق الساطع والمدقق المين . نظم رائع والألفاظ عذبة ، وشيخا سادق ، وعاطفة حارة ، وفكر رفيع ، تمتع على الفأرى والسامع له وجدانه ، وطقه وبيانه ؛ ولا سمحه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع آيات من أول سورة « طه » وما فرح عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع « فصلت » ، وما تردد باناء العرب على الأماكن التي كان يتمد فيها محمد ليلا ، ليسموا هذه البلاغة الباهرة خفية ، إلا دليل السحر القرآني الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم : إنه هو إلا سحر مبین ، وقولهم : إن هذا إلا سحر يؤثره السحر القرآني

الذي يمثل نيا يتنثل في صدق الشور ، وحرارة العاطفة ، وجمال النظم ، وإحكام البيان ، وروعة التصوير .

إلى وري ، وهل نجد أنصح ولا أجزل ولا أسنن من الفاتحة ، وهل ترى نظا أحسن تأليفا ، وأشد تشاكلا وروعة من نظمه العجيب ، وأسويبه التريب ، الآخذ بمجامع التلوب ، والشاعر ، والندوس .

إن بلاغة الصورة الأدبية وجدتها في القرآن الكريم لا يجمعها وصف واصف ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها وأسرار مجازها باحث أو ناقد .

وحديثك روعة القرآن وجدته وحيوته وأشد الأثمة ، والأصاح والشاعر ، والمواطف والندوس ، وحديثك خلوه على مر الأيام ، واختلاف البيئات والمصور .

هذه البساطة في الأسلوب ، والوضوح والجمال والدفقة والقوة فيه ، والمجازة والعدوية في أطرافه ونواحيه تمثل نيا تمثل جانبا من جوانب عظمة التصوير في القرآن الكريم .

وهذا أمر إلى سمع قوله تعالى : « قاسدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » ، تسجد وقال : سجدت لصفاحته ! وهذا آخر سمع قوله تعالى : « فلما استقيسوا منه خلصوا نجيا » فقال : أتمهد إن علقوا لا يقدر على هذا الكلام .

ومادا تقول في حسن التأليف وتخيير الألفاظ ، والقشام للكلمات ، وإحكام الصنعة ، وجودة السبك ، وكال البيان ، وجمال الرواق ، ومثانة التسج ؟ ومادا تقول في هذا النظم الفريد ، والتسقي التريب ، وفي هذه الحضارة والجلالة ومن ذلك الإمبراق والبهاء ودفقة الصوغ ؟

ألفاظ كأنها الشعر ، وكأنها الدر ، تشع نورا كما يشع الحجر ، وتهدر حركة وحياء ونورا وتجهدا كما يهدر البحر ، وتهدأ وتغذب وتسلمس كأنها صفحة النهر . ومور توجج كأنه موج التوامف ، وتتحرك كأنه تتحرك الأشباح لراكب مسرع في السير .

وبلاغة من حديث الأيام ، والتي سلم بها تحول الفناء والبناء على توالى الأحوال ؛ وما هي إلا الضوء السائر ، والهدى الباهر ، والرحى السادق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أو رأيت وصحت ما قاله الوليد بن النيرة ، وقد تردد على الرسول وسمع منه ، فقال لقومه : والله ما نيكتم رجل أحم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيدته ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هنا ، والله إن لقوله الذي يقول حلوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لم يثر أسفله ، متدق أسفله ، وإنه ليلو ولا يعل عليه .
والسورة الترائية تطول وقد تقصر ، وهي مع ذلك سلسلة محكمة متصلة الحلقات ، مشرفة الصور والصفات والصفحات ؛ نسق هو السحر ، وتآخ وسفاء وتماقب في الترتيب كأنه الوحدة الإلهية التي دعا إليها القرآن ؛ عملة في كلمات .

التي عند العربي كان يتم بنام الجلة ، وهذه الجلة أصيرة في نظمهم ، ولكل جلة معنى ، وتتوالى للماني دون ترتيب ولا نظام ؛ وجاء القرآن الكريم ، فصارت الجلة تمثل أرفع المعاني وأدقها ، وسار نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر ، وقد تطول الجلة الترائية ، وتتركب فيها الصور ، وتتوالى الشاهد ، وتتماقب الماني ، وقد لا يؤدي الذي الترائية آية أو آيات ، بل عشرات الآيات ، ومع ذلك فلن نجد إلا تكراراً هادياً ، ونظاماً محكمة ، وتصويراً منمناً ، ووشياً منمناً ، وإحكاماً في الصياغة ، ودقة في الصناعة ، ولن نجد إلا وشياً يهرك جهاته ، ويسحرك جلالة ، ولن نجد إلا الذؤبنة والرشاقة والسلاسة والوضوح .

والصورة الترائية تتميز بالحركة ودقة التصوير ، وإبراز معالم للمني جزءاً جزءاً ، وحركة بعد حركة ، وإن شئت فقل قاصع لقوله تعالى : « ونشمت الأسوات لمرحن فلا تسمع إلا همساً » ، وقوله تعالى : « وعفت الرجوه للحى القيوم وقد غاب من حمل غلباً » ، وقوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض وثقى في السور جثماناً جماً » ولو قلنا عند هذه الآية الأخيرة وهي من سورة الكهف رأينا فيها

هذه الحركة النبوية للتدافعة ممثلة في أروع بيان ، وأبسط تعبير ، ولأبنا فيما هذا الإيجاز الرقيق اليليع من أداء المني كالملا غير منقوص ، ولأبنا بها هذه الصورة البديعة لأروع تصوير للترض القصور ، الآية ثلاث جل قصار :

١ - وتركنا بضمهم يومئذ بموج في بعض .

٢ - وتنتج في الصور .

٣ - لجماعهم جما .

ورى في الجنة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة ، والسر في ذلك حركة موج التي أدت لك الصورة كاملة ، والشهد رائنا ، والملي مبتلا ألق تنثيل ، وأدت لك الحركة والحياة ، ومشتبك إلى ألق رحيبة من جلال الأداء وروعة التنظيم ودقة المني وممو التصوير . وفي الجنة الثانية لا نجد أبلغ من هذا التمثيل الذي يصور لك قدرة الله مطلقة بأروع مظاهر هيبتها وسيطرتها إلى الناس أن قد جاء أمر الله ، وأن نهاية الأمر لا بد أن توسع ، وأن الناس وهم في أمر مرجح لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد ، وأمر عتيد ، وقد شديد .

ونحي ، الجنة الثالثة نلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعا إلى ساحته العظيمة ليصل بينهم يوم القيامة بالحق والبران ، وأن قدرته لا تسجز عن جميع مع هول كبرتهم ، وشدة شغبتهم ، ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر « جما » ليدلك على عظمة القدرة ، وروعة الشهد ، وجلال اليد العزرة لأمر الخلق في هذا الوقت المصيب . وتر أن بلينا من أبلغ الناس ، ومن أذكاهم وأحذتهم بصناعة البيان ، حاول أن يؤدي هذا الشهد العظيم ويمسوره ، وأن يمثل هذا الحدث الجليل وبرحه ، لا استطاع أن يقول ، ولنا قدر أن يتكلم ، ولا أمكنه أن يؤدي هذا المني ق حمه ودقته يمثل هذا الأسلوب الساحر بجهاه وجلاله وروعته .

إي وري ؛ إنه القرآن الحكيم ، إنه الذكر البين ، إنه الجلال والعلية ، والإيجاز
والإيجاز ، وروعة التصور التي لا تنف عند حد ، ولا تنهي إلى بيان .
وماذا أقول ، وأنا مهملت فتن أقول شيئا ولن أبلغ بكلامي ميثا ما .
يا كتاب الله ، يا معجزة القرآن ، يا آية البيان ، يا روعة الدهور ، يا عظيمة التصور ،
يا جلال السماء ، يا حكمة الأنبياء ، يا وحيا نزل على محمد بن عبد الله . . . يا كتاب الله
حسي ، فإن الإنسان لأعجز عن أن يحيط بما احتوت عليه من أسرار البيان ،
ودقائق الفرقان ، وروائع التصور والتهيان .

أثر القرآن في اللغة والأدب

كان للقرآن الكريم في لغة العرب وآدابهم أبلغ الآثار وأروع النتائج ، وإذا كان قد قلب حياتهم وهذب أوضاعهم ونوثر تفكيرهم ووسع آفاقهم ، فلا بد أن يعقل لغتهم ويقوم أساليبهم ، ويعطس اللغتهم بطلايع جديد .
وأى هي في حياة هؤلاء الناس لم يلقه القرآن ، ولم يخلع عليه جمالا وحسن سميت وبها رونق ؟

وكان من مطايع تأثير القرآن في اللغة ما يلي :

- ١ - مجسر وحشها ، وتوجيه مستترتها ، والزيادة بناؤها ، والزيادة عليها زيادة أعت روتها وأثارت صفحاتها ، وأسفت عليها حلا واثمة من الزينة والحسن .
- ٢ - وكان للقرآن فضل عظيم ، إذ جمع الرب على هسة اللغة ، وظل على اختلاف الحقب ، وتناول الزمن ، كما أوشك الناس أن يتفرقوا في الألسنة وينابضوا في اللهجات ، جهم القرآن تحت لواء واحد ووحد فطرم اللغوية .
- ٣ - حفظ القرآن اللغة من الغناء والانقراض كما انقضت من قبل لغات كثيرة .

٤ - والقرآن أول عامل في ذبوع اللغة العربية وانتشارها في شتى البلاد وأسبغت لغة الدين والسياسة والأدب في أرجاء العالم .

أما أثره في الأدب فينبغي فيما يلي :

- ١ - اكتسب الشعراء والمطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومعانيه في سوق الآراء ، وسياغة الحجج ، ما جعلهم يحذون حسنوه ، ويشبون نهجه ، فإذا كنا نقرأ في آي الذكر الحكيم قوله تعالى : « وإنا أو ياكم لمل هدى أو في ضلال مبين » . أو قوله : « يقولون لن رجسا إلى المدينة ليخرجن الأمر منها الأذل » أو قوله : « أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

فلما زى هذا الأسلوب البياني الرائع يتمثل كذلك في قول حسان بن ثابت في الرد على أبي سفيان بن الحارث حين هما النبي صلى الله عليه وسلم :
أتهجوه ولست له يكتفـ^١ دشركا غيركـ^٢ الداء
وإذا قرأنا قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » رأينا كذلك حسانا يتبس هذا الأسلوب البارع
في قوله :

عزيز عليه أن يجيدوا من الهدى حريص على أن يستقيبوا ويبتدوا
وإذا قرأنا قوله تعالى : « وانخفض لها جناح الغل من الرحمة » رأينا من ين
أوس يقول متأثراً بأدب القرآن :

فما زلت في لبي له ولطفي عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفضي له من الجناح نالها لتدنيه من القرابة والرحم
وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تكبيرهم حتى لقد رأينا الحظيعة
وهو أقرب إلى جناء البدو وخشونة الأعراب يقول :

ولست أرى السادة جمع مال ولكن التقى هو السميد
وتعوى الله خبير الواد ذخرأ وعند الله لأنتي مزيد
والحق إن القرآن الكريم هو الذي شرح أعلام البلاغة وغزل البيان والأدب
والشعر .

٢ — رفع القرآن من شأن الشعر بعد أن كان الغمام الأول للشعر وحده من بين
فنون الأدب .

٣ — أحيى القرآن فنونا أدبية جديدة: كالنمص، وأدب الزهد، وأدب الفنايح..
وأبطل سجع الكهان ، والمجاء الكاذب ، والفنخر الباطن فيه ، وسوى ذلك من
الأعراض الرذولة .

٤ - ويبين القرآن كيف الرواة على جمع المنة وآدابها ، ووضعت علوم القند
والبلغة لمرمة إيجازه ، وعلى السلون بشق العلم الدينية والقرية التي سارت
أساس مرخ الدينية الإسلامية الزاهرة^(١) .

(١) راجع الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبدالقادر خفايي ص ٣٦-٣٩ ،
وراجع : الأدب العربي بين الجامعة والإسلام - د . عبد الحميد المنون ص ٢٥٤ - ٢٤٤ ،
وراجع : الأمر القرآني في الصورة الأدبية رسالة ماجستير د . صلاح الدين محمد عبد التوابي .

الفصل الثالث

الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب

- ١ -

انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة إلى حياة ، وتبدلت أوضاع الكلام وسمت القول من مظهر إلى مظهر ومن حال إلى حال ، وأخذت ثوباً قشياً تنفذت به من الأصماع إلى اللغوب ، واستطاعت أن تماذج الأشدة ففؤثر فيها تأثيراً عجيباً ؛ ذلك بما ألقته عليها القرآن من طرائق التفسير وحسن صوغ الكلام ، وبراعة التصدي إلى الهدف ، والاحتياج إلى التوضيح حتى تدخل على القلوب والقول والأحاديث دخول الأثرى به الرغوب فيه ؛ ثم بما كسبه من أسلوب الرسول صلوات الله عليه ، وبيانه الساحر ، وحكمه البالغة ، وبلانته الثيرة ، وقدرته القائمة على الاختراع والتشويق من الألفاظ ، وتصوير الماني بأروع الصور ، وابتداع الأجيال التي لم تعرف في كلام العرب ؛ وظلت بعده من الحسنة التي ينسج الناس على منوالها ، ويدمجون كلامهم على مثالها ، دون أن يتفروا من حدها .

أجل ؛ كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب القتل وحديث الناس وموضع الفحص ، وعمل الإعجاب من كل من سمعه ، وأصمت إلى ألفاظه تفيض عذوبة وتنفطر رفة ، وأصغ إلى معانيه تغل منها أروع الحكيم وتنبس من خلالها أجمع الأمثال ؛ حتى لندعج من ذلك البلوغ اللطيق ، الساحر البياض ، الذب اللسان ؛ عليّ بن أبي طالب ، قال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد وزناك تسكلم ونود العرب بما لا نعرفه ، فن علمك ؟ فقال صلوات الله عليه : أذبي ربي فأحسن تأديبي ، وقال له سفيه وسديته أبو بكر : لند علمت في العرب وصمت فصحاءم فما صمت الذي هو إنصح منك ، فن أدبك ؟

وكان النبي صل الله عليه وسلم يستر بما منححه الله من سفاء التريجة ، وتمام الفطرة ،
وخلافة للطلق ، ورجاحة الفسك ، وسجاجة الأسلوب ، ويقول : « إنا أنصح العرب
بيد آلى من قريش ونشأت في سمد بن بكر » .

والحسكة البالنة ، والبيرة الكريمة في ذلك ، أن الله تعالى قد اختاره لسائه ،
واسطفاه لدعوته ، وأرسله إلى الناس كافة مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً
منيراً ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم
النجاسات ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه
وتصروه ، وانصروا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

وسفارة بين الخائين والخلفين لا جرم تمتد على البيان المطلب والطلب الملتاب ،
والقول للتخير الثابت ، والسكلام المذب الذي تحك به النفوس وتؤمر الألباب .

وهذا هو موسى ، أرسله ربه إلى بني إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويتوى
ظهره ويبلغ حجته ويسدد دعوته بأخيه هرون : « وأخي هرون هو أنصح مني لساناً
فأرسله مني رداً يصدقني إلى أخف أن يكذبون » وتبني على ربه وهو سفيته وكليمه
أن يطلق لسانه ويتفق بيانه ويحل عقده ويترك حيسه ، فقال : « واحلل عقدة من
لساني يعقها قول » .

وهذا نبي الله داود ، أفاض الله عليه الحسكة ومنحه فصل الخطاب ، وامتق عليه
بذلك فقال : « وشددنا ملكه وآتينا الحسكة وصل الخطاب » .

وإذا كان العرب أمة البلاغة وأمة الفصاحة ، لتبوا لهم أزمة القول ، وتصلح
أفنة السكلام ، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيته ، ويروض شامسه ، ويستقل
أبيته ، وإذا كان السكلام صناعتهم بها يفاخرون ويتباهون ، فلا بد أن الرسول الذي
يرسل إليهم يبتهم عن دينهم ، ويهدم عقائهم الجاثمة ومذاهبهم الزائفة ، ويترى ما ألفوا
من عادات ، وما ورثوا من تقاليد ، لا بد أن يكون بيانه أصمى من بيانهم ، ومنطقه
أروع من منطقهم ، وخطابه أجمل أترا وأعلم قدرأ وأعلى شأنأ من خطابهم .

ومن هنا كان تأييد الله لبيه ومعطاه محمد صلى الله عليه وسلم بحجزة القرآن
ومحجزة البيان .

أما بيانه سائر الله عليه وسلامه فكان السجرا لخلال والنبيا اللامع ، بشرق من طبع
مهدب مصقول ، وخلق في البلاغة هربق أسبل ، وفطرت قوية موهوبة تسادت في بيانها
أقوى الوسائل ، وتماوت على إذكاتها أبلغ الوترات ، إذ نشأ وتقلب في أفصح القبائل ،
وأصحها لحجة ، وأخلصها مطلقا ، وأعذبها بيانا ، وأرهدها جنانا ، وأقومها سليقة .
كان مولده في بني هاشم ، وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسباحة بيان ، وأخواله
من بني زهرة ، ورضاعه في سد بن بكر ، ونشأته في قريش ، وتزوج خديجة وهي من
بني أسد ، وكل هذه قبائل خصها الله برفق فصاحة الكلام هربق ، وسبب من
أسباب البلاغة وثيق . وكان هذا التوافق المصيب التريب ، وهذا التماثل في الميلاد
والاسترضاع والنشأ ، إعدادا من الله لبيه ، وغورا من ملكته ، وتهديبا لسليقته ،
وتدعيا لطهرته ، حتى يفتخروا قوله ويقولوا دعوته .

كان صلى الله عليه وسلم فصيح اللطق ، صريح البيان ، سلس الأسلوب ، قوي
العبارة ، لامع الونق ، رائع الحكمة ، موثق اللؤلؤ ، موثق اللغز ، مشرق السرى ،
بحس الرء لسكلامه حلوة السلس ، ويعد فيسه لنة ، إذا تكلم خفت الأصوات
وأصنت الأذان وخشت الجوارح وامتلات القلوب بجلال العبوة وسحر الوعظة .
وهذه أول خلية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله ،
يهدم ويشرم ، ويحذرم وينذرم ، ويدعوم إلى نهد الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،
قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبكم ، ولو غررت
الناس ما غررتكم : والله الذي لا إله إلا هو إن رسول الله إليكم عامة وإلى الناس
كافة ، والله أثمون كما تظنون ، ولبيتم كاتسيفظون ، ولتعاين عا تصدون ، ولتجزون
بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدأ أو تنار أبدأ ، وإنكم لأول من
أنذر بين يدي عذاب شديد » .

فهذه كلمة الخبير بأسرار النفوس التي يعرف كيف يمتلكها بحسبته ، ويستولى عليها بموعظته ، ويوجهها إلى الخير الذي يريده ، والسعادة الأبدية التي يدعو إليها . واستمتع أيها القارئ الكريم إلى هذا الحديث الشريف ، فإنك ستحس من حلاوة وقبه وجمال لفظه ودقة بنيانه ، وسدق تصويره وحسن تحديده للغمي ، ما يملأ نفسك طرباً ، ويتم قلبك نشوة .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثل البخيل والفقير كمثل رجلين عليهما جيتان من حديد من تديهما إلى ترابيهما فأما الفقير فلا ينفق إلا سببت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه ، وتفقر آزره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا فرقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسمها فلا تنسع » .

فهذا تصور محكم رائع لحال الفقير وحال البخيل لا تكاد النفوس تنتهي منه عجباً؛ تصور لقوة الطبيعة لدى السخى التي تسهون بكل طيبة ، وتقلب على كل مسوية ، وتثور ثورتها الثابتة على التبور والحدود والمواجز حتى تجعلها أهداف تحطم ، ثم لا يزال صاحبها يسخو ويذل وينفق ويتصدق حتى تلسس الطبيعة وتنفاد وتناد البذل والبطاء وتلبس صاحبها فتخفى كل ما فيه من عيب وتحو كل ما يند عنه من سيئة : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » .

أما البخيل فسكلاً أراد أن يخرج من طبيعته كزبت وضافت ، وأحضرته كل أسباب الشح والكثود ، فلا يستطيع أن يقدم خيراً ، أو يطالع المجتمع القى يعيش فيه بحسنة .

فهل هناك تصور أروع وأمتع وأهدع من هذا التصور ؟

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف حالة من حالات الناس تنشور في مجتمعاتهم وتشجع بينهم في بعض الأحيان كما يشجع الرباء الفانك والمرض القاتل : حالة الاستهتار بمحدود الله ، والاستهانة بأداب الدين ، والخروج على الأوامر الصحيحة ، والتبجح بما يسمونه حرية ، فيقول :

« مثل التأم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة بأساب
بعضهم أعلما وبعضهم أسفها ، فكان الذين في أسفلها إذا استنقوا من الماء مروا
على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرفنا في تصيبنا خرفا ولم نؤذ من فوقنا ! إن تركوهم
وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

فهل هناك أبلغ من هذا في الدعوة إلى الضرب على أيدي العابثين بالحدود ،
المتشككين للحرمان العاشقين أعراض المصنعات التافلات ؟
ولو أردنا أن نستعرض أروانا أخرى من كلامه صلى الله عليه وسلم لما اتسعت لها
هذه الصفحات ، ولكننا نسكتي بما قلنا من أمثلة حية راثمة على بلاغته وإساحته
ودفته .

يقول الرحوم الأستاذ الزاوي : « لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل
لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللفظ ، فالناية فيها بالمفاتيح ، ثم الحقائق هي مختار الفاعل
اللتوية على منازلتها ، وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة البير عنها ، ومعلوم أنه
صلى الله عليه وسلم لا يشكك ولا يتسول ، ولم يكتب ولم يؤلف ومع هذا لا نجد
في بلاغته موشماً يتبل التفتيح ، أو تعرف له رقة من الشغل ، كأنما بين الألفاظ
ومنازلتها في كل بلاغته مقياس وميزان » .

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلوبه وقوة بيانه وشدة
إتقانه وعلو شأنه في اللغة ، هي للبح التي يهبها خالق الإنسانية لن يفتاره ويؤثره في
سفارة إلى الإنسانية ، وكما عصمه الله من لذن مقلوته من الرجس والذنس ، وحفظه
من ضرور الجاهلية وسوأآنها ، كذلك عدل لسانه وقسوم بيانه وأرعب منطقته ،
وأغض عليه من لفته قوة بيانية يستطيع بها أن يتأمل عن دهرته ويتابع دون
رسالته : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ، « وكان فضل الله عليك عظيما » .

أثر الحديث النبوي في الفنة والأدب؟

يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وصحتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحته يقول : مات حنظلة أخته وما سمعتها من عربي قبله ، يريد مات علي فراشه ، قال في التاموس : وخص الأنث لأنه أراد أن روحه تخرج من أعنه بتتابع نفسه ، وقال في النهاية : كانوا يتعجبون أن روح الريض تخرج من أعنه فإن جرح خرجت من جراحته .

ويقول الروم الزاني^(١) : إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال ولا أمر يؤرخ به في الألسنة مما كانوا يفتنون له . والحلف الملاك فكان صاحب هذه اليتيمة إنما مات أعته وكبرياؤه فم يرفع الموت أعته في القوم بل أنه وأرغمه فكان به هلاكه لأن حياته كانت في عزته ، وهزته كانت في أعته وأعته هو الذي كره على الموت . وإنما مجاز التبارك كما يقال في السكر: ورم أعته، وفي العزة: حي أعته وكما يقال غضبه على طرف الأنف إذا كان سريع الغضب وجعل أعته في قتله إذا مثل . ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: الآن حي الوطيس؛ للدلالة على شدة الحرب . واستمرار نارها والتهاب سرورها ، فإن الوطيس الثنود ويجمع الثيران استنير لشدة الحرب . . وقوله صلى الله عليه وسلم : بهت في عس الساعة أي قريباً منها أحسبها كما يحس الإنسان انقاس من يقاربه .

وإذا كان لعرب تصرف والسماح في الفنة بالجاز والاشتقاق واختراع لفظ من لفظ أو ابتعاد معنى من معنى أو اختراع فكرة من فكرة فإن ذلك كله كان في حدود الوجود الهارف لا يمازونه إلى المدوم بخلاف الآثور عنه صلى الله عليه وسلم فهو كثير من بناء على الوجود واختراع لما لم يوجد ، ومن المماثلة المماثل كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويستجيبون لاقراده بها وهم عرب مثله ، كما عجبوا للمصاحفة التي اختص بها وهو باقي بين أظهرهم لم يدارقهم ولم ينتقل عن بلدهم .

(١) ص ٤١١ إجاز القرآن .

وقد روى أنه سئل الله عليه وسلم قال لأي نجمة: إليك والنجمة فقال: يا رسول الله نحن قوم عرب فما النجمة؟ فقال سئل الله عليه وسلم: سئل الإزارأي الكبير، فقال أي نجمة نحن قوم عرب دلالة على أن النبي سئل الله عليه وسلم اخترع هذا اللفظ اختراعاً ولم يسبق إليه . . . وقوله سئل الله عليه وسلم: هدنة على سخن، يريد أن السامع لم يذهب حفاظ الصدور وأمنان القلوب فبق منها كما يبق من النار تحت الرماد، لا يزال يصحفر للاشتعال . وقوله لأنجشة الببد وهو يمدد الإبل ويطرب في سوته فتسرع الإبل وتتأبل المرداح بالنساء: وفقاً بالتواريخ . . . وقوله: يا خيل الله اركبي، لا يتطلع عزان . وقوله: « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » قاله لأي عزة الشاعر وكان يحرص عليه ويؤلف الناس منه فأمره يوم بدر ثم من عليه وأخطه نساد إلى سيرته فأمر يوم أحد وسأل النبي أن يثنى عليه فقال له: « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » . وقوله: إياكم وعقراء النمن . قلوا: وما ذلك يا رسول الله؟ فقال: المرأة الحسنة في البيت سوء، تشبهها هذه المرأة بالشجرة الناضرة توسط النمن . وقوله: حلق سوطك حيث يراه أهلك، الناس بأزمانهم أشبه منهم بأهلهم، وعد المؤمن كأخذ باليد، قد جمع الحلال أنف الثيرة، وقوله: من أطلع من سبر باب فقد دمر أي دخل . قال أبو عبيدة: لم يسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث .

وهذا كله مما كان بشرق في لنته ويلتصق في أسنوبه من ابتداع اللماي واختراع الألفاظ المناسبة لها ومن أوضاع وأخيلة بيانية تلبس حلاها وتأخذ زينها وتدعو الأدياء دعوة قوية إلى اختفائها وإنباع طرائفها وأخذها مثلًا يسرون على نهجه ويتشون على هدها .

ذلك كله يعتبر الهاما من الله لئيبه وتأييداً بمجيزة البيان ودلت مجيزة القرآن، ولذلك كان مجاباً من النبي في أمره سئل الله عليه وسلم إن ترد إليه وتورد العرب فيخاطب كل وفد بما يند من أسرار لنته ونحوها لوجهه؟ يخاطبهم بلجاتهم مما تجهله قريش ويجهله بعض العرب عن بعض، ويهتهم عنهم كذلك ما يدلون به من كلام وما يفصل عنهم

من خطاب ، حتى يجب من ذلك على من أتى طالب حين سمع بخطاب وقد بين نهد .
فقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد وتركنا تسكلم ونود العرب بما لا نعلم أكثره
فقال صلى الله عليه وسلم : « آذني رب فأحسن تأديبي » .

ومن ذلك كتبه التريبة التي كان يعلبها ويست بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها
بلحوتهم ويباري الفاظهم وتمايزهم فيما يريد أن يلقه إليهم وهي الفاظ خاصة بهم
ومن يدخلهم ويتأريهم ولا يجوز في غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم
ولا تأتلف مع أوساخ اللغة الفرشية .

قال الرازي : فما تدري أي ذلك أنجب أن يفرد الرسول بمعرفة هذا التريب من
ألسنة العرب دون قومه وغير قومه من ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين
ولا رواية أو أن يكون قومه من قريش قد شربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق
اسمهم منها وغالطوا العرب وسموا «مخاطبهم حين يتوأمون إليهم في موسم الحج» وم
مع ذلك لا يظنون من هذا التريب بعض ما يظن . ولا يدرونه في ألسنتهم ولا يورثونه
أعقابهم فيما يتشأن عليه من السماع والمحاكاة حتى كان هذا الباب فيه صلى الله عليه وسلم
باباً على حدة وهكذا كان رسول الله يتميز بالعمارة القوية والعلوية المهمة واللوية البيانية
المدعة واللسان الذوب والقول النحل واللفظ النصل مما لا يتم سره ولا يعرف أمره
إلا على أنه معجزة وإمام من الله لبيبه وخطاره ومسطناه .

وبعد فيمكننا أن نلخص أثر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في اللغة فيما يلي :
١ - أدخل الرسول صلى الله عليه كثيراً من التراكيب البيانية الجديدة في اللغة
العربية مما سبق ذكره .

وزاد فيها ألفاظاً جديدة كتسميته « سفراً الأول » محرماً ، وكلفظ « الزمارة »
لقرانية ، التي وردت في حديث أبي هريرة « إن النبي نهى عن كسب الزمارة »
وككلمة « الصير » بمعنى الشق في قوله صلى الله عليه وسلم : « من أطلع من صير باب
فقد دمر » .

وللحديث الشريف أثر في توسيع سائر بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعي للإطناف فيه .

٢ - وساعد على توحيد لهجات العربية وعلى ذوبها وخلودها ثم متمم لقرآن الكريم في هذا السبيل .

٣ - وكان محوراً للعلم دلبية وعربية كثيرة توشحت لدراسة الحديث النبوي الشريف . وهذه العلوم اكتسبت اللغة العربية ثروة كبيرة .

أما أثر الحديث في الأدب فيمكننا إيجازه بما يلي :

١ - ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة ، وتنقيف الطباع ، والنضاء على عهد الخوشية والقرابة والمأطلة والتنقيف في البيان ، وأحل عمل ذلك السلاسة والسهولة والرواق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان .

٢ - قضى على سجع الكهان ، ورفع منزلة الفخر ، وهذب أعراض الأدب ورفوته .

٣ - وقد خلد الحديث على مر الأيام والأجيال وأصبح مورداً هدياً من الثقافة الأدبية على توالى المنصور^(١) .

خطبة نبوية في يدو الكبري :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم بدر فقال :

١ - « إنا بعد ، فإن الحُتُنكم على ما سئسكم الله عليه ، وأنها كم مما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالخير ، ويحبُّ الصدق ، ويُبطل الخيرِ إعماله على منازلهم عند .

٢ - وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يتبدل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه .

(١) راجعة الميعة الأدبية في عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبد الله بن عفاص من ٤٠-٤٦ ، عاصرات في الأدب القرن للدكتور عبد الحميد السلولت من ١٤٥ - ١٥٣ .

٣ - وإن الصبر في مواطن الأمان مما يفرج الله به الهم ، ويتجنى به من الهم وتذكر به الصلابة في الآخرة .

٤ - فيسكن نبي الله محمدكم ويأمركم ، واستحبوا اليوم أن يطليح الله على نبي من أمركم يعفكم عليه ، فإن الله يقول : « كُنْتُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْسِكُمْ أَنْتُمْ كُمْ » .

٥ - وأبثوا رؤسكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به القى وعدكم من رحمة ومنفرتة ، فإن وعدة حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديدة .

٦ - وإنما أنا والله الحق القيوم ، إليه ألقنا ظهورنا ، وبه اعتمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه الصبر ، ينادي الله في والمسلمين » .

مضمون هذه الخطبة النبوية الشريفة :

١ - الأمر بالمعاشل الإنسانية التي أمر الله عز وجل ورسوله بها ، وفي هذا الأمر - والوقت وقت معركة - ما فيه من دلالة قوية على أن السلم يجب أن يلتزم بأداب دينه في كل وقت ، وبخاصة في أوقات الشدائد والشارك ، لأن النصر لا يتزل من السماء إلا على المؤمنين الصادق الإيمان بدينهم وكتابهم ورسولهم .

٢ - الوقوف في ميدان المعركة - ابتداء وجه الله لمقاومة أعداء السلام والإنسانية والتوحيد - منزل كرم من منازل الحق التي يرغى الله ورسوله عنها .

٣ - الصبر في الحرب أهم شيء - يجب أن يجعل به الجندى ، لأنه سلاح النصر ، وهو أساس الصمود والنضال والاستبسال في قتال أعداء الله والحق .

٤ - تحذير رسول الله للجهاديين من عمل شيء يعظم الله وينعيب عليهم ويمنع عنهم نصره بسببه ، والقت أشد البئس - وفي ذلك ما فيه من تأكيد وجوب اتباع تعاليم الدين في كل وقت ، وفي أيام الحروب على وجه الخصوص .

٥ - الدعوة إلى البطولة والشجاعة والإقدام في المعركة ، وذلك هو سبب رحمة الله ومنفرتة ورضوانه ، ووعد الحق ، وقوله الصدق ، وعقابه شديد ، ولتذكر أن البلاد في المعركة هو سبب رضوان الله ورحمته للجهاديين الصادقين .

٦ - إعلان مزيد التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه .
وذلك هو أساس الفوز العظيم .
والشؤون الباهظة المحطبة هو الدعوة إلى السمود والصبر والاستبسال في المركة،
وعند زوال الأعداء .

الفردات :

- ١ - الحث على الشيء : الحث عليه . مدانهم : أى درجاتهم .
- ٢ - يتزل : أى يتكلم وموضع .
- ٣ - مواطن اليأس : كتابة عن المروء والشهائد .
- ٤ - الفت : شدة البنس .
- ٥ - أبلرا : من أبل في المركة بلا حسنا : أى بذل غاية الجهد وكل الطاقة فيها .

الأسباب :

- ١ - أساليب المحطبة من أروع الأساليب جمالا وبيانا وبلاغة وإيجازا وإيجازا ،
وبلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التروتمن الفصاحة بمد بلاغة القرآن الكريم .
فأعطية يجمع إلى الإيجاز الروعة والمحر ودقة الناق وكثرتها .
- ٢ - وفيها من سمو الروح الإنسانية ما فيها . ومن نيل النفس والالتزام بالفضائل
والآداب الإسلامية وبخاصة وقت المركة ، ما يندأساسا للفرس ، وسببا من أقوى
أسبابه .
- ٣ - وهي معلومة بروح الإيمان العميق، والتوكل على الله ، ويطلب النصر منه ،
وتفويض الأمور إليه ، وذلك كله ضرورى للمسلم ، وهو يناقل أعداء الله والحق
والسلام .
- ٤ - وطى الجلة فإن هذه المحطبة تتل ربيع من أمثلة البلاغة النادرة ، والفصاحة
الباهرة ، والبيان الساحر ، والقول الحكيم ، والنتطق الصادق، والكلمة الباسمة . .
وهذه كلها هي خصائص البلاغة النبوية الشريفة .

إلى ما تتعلل به الخليفة من الوشوح والسهولة والجمال والجلال ، والحلاوة والروعة .

وما أروع الكفاية في قوله صلى الله عليه وسلم : مواعين البأس ، عن الحرب والفرقة .

وانظر إلى بلاغة رسول الله في قوله : إنما أنا وأنتم بالله المولى العظيم ، أي كنت ولست شيئاً إلا بغير الله المولى العظيم ، العظيم القيام بتدبير أمور هذا الكون العظيم ، و (العظيم) اسم من أسماء الله عز وجل .

وقوله صلى الله عليه وسلم : إليه ألقانا ظهورنا : أي أسندنا ظهورنا إلى سنده تعالى وماجئاً حصين هو الله عز وجل وحده .

الفصل الرابع

النثر الإسلامي

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الإسلام تبدلا ملحوسا ، وتغير أعظم التغيير مظهرها ، واقتلب انقلابا شديدا جوهرها ، وأصبح السمت غير السمت ، والسلوك غير السلوك . والملائق والشيم غير تلك التي كانت تشيع في الجاهلية ، وتسيطر على مناحس الفسك .

كانت الحياة العسكرية في الجاهلية تمتد على الشمر ، به مفاخراتهم ومنازلهم ، وعليه تقوم خصوماتهم ، فكان لسائهم البير عن كل ما يضرهم في سدووم من أسكاره ويحتلج في أقدنهم من أسيس .

فما جاء الإسلام طوى ذلك البساط بما عليه من تنافر وتناحر ، وما يضم من أخطاد نادرة ، وأضنان ثائرة ، وخصومات منسكرة ، وتقضى على تلك الحياة : حياة الجاهلية ، وينضى إلى الناس التناحر بالآباء والأنساب ، وادئ على أتباعه وأوليائه بأن الله أذهب عنهم غمزة الجاهلية ، وتناخرها بالآباء . فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن الله أذهب عنكم غمزة الجاهلية وتنظفها بالآباء ، كلكنم لآدم ، وآدم من تراب . لا فضل لسرى على عيسى إلا بالتقوى » .

ولما كان شمر الجاهلية يحمل بين أطوائه كل الناس التي حرماها الإسلام ، وأزرى بها ، فقد كرهه الإسلام وينهه ، وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لأن يحتل . جوف أحدكم فيجا نيره^(١) خير له من أن يحتل . شعرا » .

لم تتم للشمر في خلال الإسلام الدولة التي كانت له إبان الجاهلية؛ لأن الإسلام دين النعة والإخاء والرفاء ، وسدق الحديث . إنما انتقلت راية السلام للنثر ، الذي حل

(١) براه أي يفسده . وورى الشيخ الجوف كرم : لئسده .

أعياء الفكر ، ونهض وحده نالبا بالدعوة الجديدة بين مزاجها ، ويكشف أسرارها ، ويحاج خصوما « ويمجادهم بالنبي هو أحسن » .
دعا به النبي صلى الله عليه وسلم نومه إلى الله ، وبصرم بمحاسن الإسلام ، وحذرم وأنذرهم ووعدهم وبشرهم ، وكتب به إلى أمراءهم وأتباعهم . ثم كان هذا الفتر لسان الدولة التي أحدثها الإسلام ، فكانت تكتب به اليهود ، وتماغ الرسل ، وتدون دساتير الولاة ، وتماهج الرؤساء ، وسياسة الحكام .
وعلى مقدار تنوع الحياة الإسلامية ، وتعدد أرائها ، وتشتب مظاهرها ، عظمت رسالة الفتر ، واتسعت مهمته ، فكان لسان الخلفاء والأمراء والولاة .
والواقع أنه حيث يكون الملك ، وتكون الدولة بما يستلزمها من أمر ونهي وحث وجزر وأخذ ورد ، ورسم سياسة وتبريرها ، وإقامة حدود ومعالم وتبيينها يكون السكان الأول في هذه الدولة للفتر ، ولا يستطيع البشر أن ينهض بما تقوم به من أعياء ، وما تؤدي من رسالات متعددة متنوعة .
ولما كان الفتر يصعد مظهر الخطابة أحيانا ، ومظهر الرسائل أحيانا أخرى ، فقد أكثرنا هنا أن نتحدث عن كل بذاته .
ونبدأ بالكلام عن الخطابة :

الخطابة الإسلامية

كانت الخطابة في الجاهلية شينة الحدود قصيرة الآفاق محدودة العالم والظاهر أو كانت على الأقل هكذا نيا المحذر إلينا من آثارها وتناهي إلينا من ترانها، وكان يشاركها القشر في التعبير عن ماضي السكر ونحو الخ النفس بل كان القشر في إهم اللوائف وأعلم الأحداث اللسان الناطق الذي يؤثرت ناز الحرب أو يمنح لينات السلم أو يلفت الناس إلى قضية من القضايا أو يبيهم على أمر من الأمور .

ولأن الخطابة لم تكن مما تدون في صحف أو تكتب في وقاع أو يسجل على الذاكرة اختزانها لم يكن اهتمام القوم بها كاهتمامهم بالشعر . إنما يبعث عليها عندم حدث طارىء أو أمر مفاجئ . ربما لم يتكوتوا قد أعدوا له عدته أو اتخذوا له أجهته .

دوام الخطابة الإسلامية :

ثم جاء الإسلام شنباً للخطابة في ظل من نباعة الشأن وارتفاع الذكر وعلو السكابة ما لم يتبها لها من قبل .

كانت أداة الدعوة واللسان الناطق بمحاضتها تشرح للناس أسرارها وتبين مزاياها وتوضح خفاياها وتجبب الناس فيها وتعلم على الهدى والخير والرشد والصلاح . وتجادل خصومها وتمتد آراء الخالفين لها .

وإذا علمنا أن السكابة لم تكن قد شاعت ولا نشت وأن الإسلام قد كرم الشعر لما يجعل من الفانرات والفاخرات وشدة الحجة أدركنا رسالة الخطابة في الإسلام وجسامه مومنها وعظم شأنها وقيامها بكل أمر جل أو ستر .

اعتده عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن قام بأمر ديه يدعو عشيرته الآخرين ، ثم كان يذهب إلى أحياء العرب يمرض عليهم دعوته ويشرح في كل موقف عقيدته وكان يلقى الناس في الأسواق العامة وفي مواسم الحج ويتخطبهم ، ويقول لهم ، قولوا :

لا إله إلا الله تملحوا . ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم بيانه ، وينص عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه . وكانت تحيته وفرد العرب فيخطب في كل وفد يدعوهم إلى الدين أو يبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الدينية كما أمره رب العالمين بقوله : « وأزانا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » وكان يقول لهم صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأحكمكم إلى وأحرهم مني محسباً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً للوفاؤن أكفأنا الذين يلقون ويؤفون » . وكانت الخطابة تلقاه من بعده أداة يرمون بها سياستهم في رعاياهم ومحمدون وصايرهم التي يذرمونها في حكم الناس وماملاتهم أو يحضون فيها على غزوة أو جهاد.

أسباب قوتها :

ولعل الذي مكن للخطابة وجعلها منشورة الرابة لرفوعة القدي ، يسرع إليها كل من واجهته مشكلة أو اختلطت في نفسه فكرة أو نغم من السلطان أمراً أو داخلته من التوال رية فيبض تصرفاته . لعل الذي مكن لها ما أسبته الإسلام على هذا المجتمع من سراحة وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطع بها الإنسان أن يراجع ويناقش ويجادل ويخاض ويحج السلطان أو ينبله ويؤيده أو يخذله وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد ألقها حتى شملت النساء ، فلم تكن المرأة تسكت عما تلقن أنه حق لها بل تخطب في ذلك وتنتقد وتجادل ، لقد ذهبت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت يا رسول الله إني وائنة النساء إليك ثم ذكرت ما للرجال من المهاد والأجر ثم تساءلت: فما لنا من ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أبني من لنتت من النساء أن طاعة للزوج واعترافاً بحقه يبدل ذلك وقابل مقنن من يعله . وقالت أخرى: يا رسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً نحدثنا فيه ، ولهم كذلك .

وكانت المرأة تنترض مر بن الخطاب وهو يخطب فتواجهه حتى لقد يرجع عن رأيه ويقول : أسابت امرأة وأخطأ مر ، وكانت أم المؤمنين عائشة تخطب لقره على خصوم أيها وتبين مآثره وتذكر مفاخره . وكانت أم الخير بنت الحريش الباروقية

تؤيد هلياً كرم الله وجهه في سياسته وتخطب في ذلك الخطب التي تطلب النفوس وتثير الحماس وتدفع الناس دفقاً إلى مقابلة أعدائهم والسكر عليهم بسيرتهم ورماتهم ، حتى لقد أوفقت إلى مساوية بعد أن استقر له الأمر واستتب السلطان فسألها عن كلامها حين قتل حمار بن ياسر فقالت : لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد وإنما كانت كلمات تشين لساني حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فقلت قتال مساوية : لا إنشاء ذلك .

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة في ظلال الإسلام .
ثم كان الجهاد في سبيل الله وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه ، وكذلك جعل أمور الدعوة شوري بين المسلمين .
كان ذلك كله داعياً إلى نهضة الخطابة بامتداد على رقيها ولارتفاع شأنها .
هذا إلى ما في النوم من مأساة أسيرة في البيان ومطوعة سهبة في أئمة السلام حتى لم يكن يصعب عليهم قول أوييد عن انفعالهم خطاب .

موضوعاتها :

والندرس لأطوار الخطابة في هذه الفترة يلمس في وضوح كيف كانت تؤدي رسالتها في قوة وجاب لا يوقها ضعف ولا يولي بها تنور أو إنباء حتى نهضت بهذه الموضوعات .

- ١ - دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والتدبر خيره وعمره ، بدلا من الفناخرات والمناورات التي كانت تهدف إليها الخطب في الجاهلية .
- ٢ - التحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وإثارة الإيمان والقدرة في النفوس حتى تقبل على الحرب بزيمة سادقة وهمة متفانية ، بدلا من الخطب التي كانت تدعو في الجاهلية إلى الساب والنهب والأخذ بالنار والتعريض على النار .
- ٣ - طرح آداب الدين وفضائله وتبيان أسرارها ومزاياها ولقت الناس إلى ما يصالحهم في دنياهم ويسددهم في أخراهم .

٤ - وليس أدل على صرف الخطابة ودرعها الإسلاميا حتى الرعاية من أنه جعلها جزءاً من العبادة في كل أسبوع وفي كل الأعياد وفي ما ينوب السفين من أحداث ومفاتيح .

٥ - وأخيراً لقد استمدت الخطابة في كل ما جاشت به صدورهم ، من دفاع عن رأي ، أو تحمس لبداً ، أو طرح لبعج سياسي ، ونحو ذلك مما استقرته الخلافة الإسلامية ونظامها الجديد .

مميزات الخطابة الإسلامية :

وتنقسم الخطابة الإسلامية :

١ - بأنها كانت تقدم على الإقناع والتأثير في الدوس ، بالأدلة الساحمة ، والبراهين القاسمة ، وكثرة الاستنباط بالقرآن الكريم ، وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل .

٢ - وبأنها كانت تنظم في مبدئها سمناً واحداً . هو حمد الله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله ، وقد ينضم إلى ذلك الصلاة على رسول الله وأتباعه ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على بدء الخطبة بالحمد ، حتى عابوا على زياد خطبته التي خلت منه . وصحوا « البتر » ، وكانوا يمتصون الخطبة بمنزل « أهول قول هذا واستغفر الله لي ولكم » ، وكان أبو بكر يحمّ خطبه بقوله : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أباى يومئذ ، وكان عمر يلزم في الآخر قوله : اللهم لا تدعى في غمرة . ولا تأخذنى في غرة ، ولا تجعلنى من التافلين » .

٣ - أما أسلوب الخطابة في هذا العصر فهو الأسلوب العبرى الذى يساوق الطبع ويراثم الصابغة ولا يمتسك في لفظ أو فكر أو خيال . فهو لين هادى أو تائر حاسف على حسب التفتنجات ووفقاً للأحوال مع وضوح اللفظ وسهولة الأسلوب والانسجام التام في بناء الكلمات وترك النجج الرذول وهرج الوحى والحمد عن التوسكف والإيجاز في موضع الإيجاز والإطناب فيما يستدعى الإطناب والإكثار .

هيئة الخطيب :

أما ما بقى للخطابة من سماتها القديمة فهو القيام على نثر من الأرض؛ ولعل ذلك للإصراف على السامعين؛ أو لئلا ذلك أيضا أسل سنة المنبر في المساجد. وكان الخطيب إذا قام للخطابة اعتمد على يديه ككيب أو قوس أو عصا وقد يجمع بين السيف أو القوس في يساره والسماء في يمينه، وكانوا يحرصون على احتجاز المهمة والأشغال بالرداء وإصابة الإشارة وحسن السموت وجهازة الصوت وتعام الوقار وكل ما يدهو إلى التأثير في نفوس السامعين.

أصهر الخطباء :

وقد امتاز هذا العصر بكثرة الخطباء البلقاء كثرة رائمة وفي صدر الخطباء الخطيب الأول الزعيم الروحي الأعظم محمد سادات الله وسلامه عليه. ومن الخطباء: أبو بكر ومحمد وعثمان وعلى وعائشة وعلاء وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو عبيدة عامر ابن الجراح، وسابوية، وسواهم من أعلام الخطباء والبلقاء، رضوان الله عليهم أجمعين. ومن الخطباء المشهورين: عطارد بن حاجب بن زبارة وكان الخطيب عند النبي ﷺ كما يقول الجاحظ^(١).

تأريخ الخطابة الإسلامية :

١ - لما كانت أول جمعة للنبي الكريم بالدينة خطب السليخ فقال : الحمد لله ؛ أحده واستنبيه ، واستغفره ، وأستهدبه ، وأومن به . ولا أكرهه وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أرسله بالهدى والنور والوعظة ، على فطرة من الرسل وخلق من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودفن من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطلع الله ورسوله فقد رشد . ومن يمسه فقد غوى وفرط وشل سلالا بيدا ، وأوسيكم بقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به السلم المسلم : أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله ،
(١) ٢١٤ ج ١ البيان والبيان .

فاحترقوا ما حذركم الله من نفسه ، ولا إضل من ذلك نصيحة ، ولا أضلل من ذلك ذكراً ، وإن تقوى الله يوق مخته ، ويرق عرقه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خسنوا بحفظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونوح لكم سبيله ، ليتم الدين سدقوا وطمع السالكين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، جاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما لكم اللين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، فأكثروا من ذكر الله ، واحملوا أسا بند اليوم ، فإنه من صالح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس .

وذلك بأن الله يفضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويعتق من الناس ولا يعسكرون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله .

٣ - ومن الخطب النبوية الزينة خطبة حجة الوداع وهي مشهورة ، وتعد بند القرآن الكريم أهدم وثيقة عالية بحق الإنسان .

٣ - ولأمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه التفوق سنة ١٣ هـ .

قال بند إن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إلى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسدقوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم : ألا إني أقرأكم عندي الصيغ حتى آخذ الحق له ، وأستغنى عندي القوي حتى آخذ الحق منه ؛ أقول قول هذا واستغنى الله لي ولكم .

٤ - ومن خطبة أبي بكر رضي الله عنه يوم المدينة^(١) : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وصهرواً على أمته ، ليبدوا الله ويوحدهم وهم يبدون من دونه آفة شتى ، ويؤمنون أنها لهم عندة شائفة ، وإنما هي من حجر

(١) هي ستينية سامعة ، وقد اجتمع الأنصار فيها يوم تبس النبي صلى الله عليه وسلم وفلوا: نوى هذا الأمر بند حمد عليه الصلاة والسلام سيد بن عبادة .

منحوت، وخشب منجور^(١) ثم قرأ: «ويستبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقرنون هؤلاء شعاثنا عند الله»، «ما نبيدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»^(٢) فظلم على العرب إن يتركوا دين آبائهم .

○ - وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ ول الحلافة لعبد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس: إني داع فأستدأ، اللهم إني غليظ قلبى لأهل طاعتك بموافقتهم، اجتناء وجهك والدار الآخرة . وارزقنى التوفقة والشفقة على أعدائك وأهل العقائد والفتاى من غير ظلم من لهم ، ولا اعتداء عليهم .

اللهم إني شحيح فسحقى في نواصب البروف ، تصدأ من غير صرف ولا تذبذب ولا رياء ولا حمية ، واجعلنى أجتنب بذلك وجهك والدار الآخرة .

اللهم ارزقنى خفص الجناح ولين الجانب للمؤمنين .
اللهم إني كثير التقله والسيان ، فألمحنى ذكرك على كل حال ، وذاكر للوث في كل حين .

اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فأرزقنى النشاط فيها، والتندرة عليها بالنية الحسنة التي لا تسكون إلا بهزتك وتوحيبك .

اللهم تبني باليقين والبر والتقوى، وذاكر القام بين يديك والحياء منك، وارزقنى المشروع بما يرشيك عن ، والحامية للنسى ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات .

اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، واللهم له والفرقة بما فيه ، والنظر في مجائبه ، والعمل بذلك ما بعيت ، إنك على كل شيء قدير » .

(١) الحجر : تحت الخشب .

(٢) الزلزل : القرية .

٦ - وكانت آخر خطبة خطبها عثمان بن عفان رضي الله عنه :

« إن الله عز وجل إنما جعلكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يجعلها لتركوا إليها . إن الدنيا حق والآخرة باقية ، فلا تبطلوا الدنيا ، ولا تشغلوا عن الآخرة ، فإن الدنيا مقطعة ، وإن الصبر إلى الله . اتقوا الله جل وعز ، فإن تنزه الجنة^(١) من بأسه ، ووسيلة عنده واحذروا من الله النير^(٢) ، والزموا جماعتكم . لا تصيروا أحزاباً ، « وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخواناً » .

٧ - وخطب الإمام علي كرم الله وجهه بعد التحكيم فقال :

« الحمد لله وإن إلى الدهر بالطلب الفادح ، والحديث الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد ، فإن مصيبة الناصب الشقيق العالم الحرب تورث الحسرة وتغيب القدامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، ونحلت لكم غزوة رأيي ، لو كان يطاع لعصير أمر^(٣) ، فأقيم على إياه المخالفين الجفأة ، والنايذين المسادة حتى ارتاب الناصب بصلحه . وشن الرند بدمه ، فكنت وإياكم كالآخر مؤازر^(٤) :
أمرتكم أمرى بمرج الثرى
ثم استبينوا الصبح إلا نضح الند

(١) آتروا : فقلوا وهموا . (٢) جنة : واحة .

(٣) غير الفجر : أمهاته القليلة .

(٤) عصير : هو بولي حفية الأرض ، وكان قد أشار على سيده لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة وقد دعت إليها ليتزوجها ، طائفة وقصد إليها فقتله ، فقال عصير : « لا يطاع لعصير أمر » فنجبت مثلاً .

(٥) هو حريد بن الصمة .

الكتابة في صدر الإسلام

تجويد :

١ - انتقلت الكتابة من الأتار والحبرة على يد بشر بن عبد الله أخى أكيده ابن عبد الله الكندي صاحب دومة الجندل ، فإن بشرأ خرج إلى مكة وتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، فلم جامعة من أهل مكة ، فسكتر من يكتب بها من قريش .

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يفتخر على قريش بذلك :
فلا تجحدوا نسبها ، بشر عليكوا فقد كان ميمون النقية أزهرها
إتاكم بمسقط الجزم حتى حفظوه من المال ما نسد كان شئ مبعثها
فأجرتم الأعلام عسودا وبأداء وضاهيتو كتاب كسرى وقبعرها
وغير خط أهل الحجاز بالحجازى ، ولما نشأت الكوفة أدخل عليه كتابها
شيئا من الزخرف والتحصين تسمى الخط الكوفى .

٢ - والكتابة على إى حال أكد أسباب الحضارة ، وأوتق وسائل العمران وكذا ازدادت شئون الحضارة واتسعت مذاهب اللك ، وتعددت مناحى التصكير ومناهج الكتابة ، ازدادت الحاجة إليها وازداد الكتاب إقبال عليها وانتشأ في مناحيها وتجويدا في لغتها وممايتها وتنويها في موضوعاتها وأغراضها .

حالة الكتابة في عصر النبوة :

ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمسكة نقر بمن يحسنون الكتابة ويلتقون نحو العيبة عشر ، ثم لما هاجر إلى المدينة ووقعت غزوة بدر وأسر السلون نحو سبعين إرجلا من قريش ونيرم ، جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فداء كل من يجيز عن دفع المال لتعليم الكتابة لعشرة من قبيان المدينة فلا يطلق سراجه إلا بد

تعليمهم فسكرت الكتابة في المدينة . وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول ويده .

ويبلغ عدد كتابه عليه السلام ثلاثة وأربعين كتاباً منهم زيد بن ثابت وسأوية ، واختلف في كونه من الله عليه وسلم بطلاً وبسكتب ، فمن قال بذلك استدل بقوله تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » ، ويحدث البخاري أنه عليه الصلاة والسلام في غزوة المدينة أخذ الكتاب ليسكتب فسكتب ، ومن قال إنه أمي استدل بقوله تعالى : « وما كنت تنظر من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك » ، ويحدث البخاري : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، وليس ما يمنع من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان أمياً قبل بعثته فتم له العجزة ، ثم بعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك مسجرتة ، تعلم الكتابة وعرفها .

وكان على كرم الله وجهه ، وعاشقة وصفية من أمهات المؤمنين ومحسنون الكتابة . ولم يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالزريق الأمل إلا وقد أتاه الكتاب على حسنة ، بين رجل وامرأة وهي .

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم ، ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأعيال والأمراء والملوك ، وكتبت جهود الصالح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين .

وكان كتابه صلى الله عليه وسلم نوعين : كتاب وحى ، وكتاب أعمال . ومن بين كتاب الأعمال : الزبير بن العوام ، وجعل بن الصلت ، وكانا يكتبان الصدقات ، والغيرة بن شعبة والحسين بن نعيم وكانا يكتبان التداين والمعاملات ، وحذيفة ابن اليمان ، وكانت يكتب غرض النخل .

الكتابة بعد عهد النبوة :

ولما توفى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وانست الفتوحات الإسلامية ، كثرت الحاجة إلى الكتابة ، وقام الكتاب بأعمال الدعوة والقوله ، فكثروا القرآن

واستخدمهم الخلفاء في كتابة رسائلهم إلى الهال والولاة والقوادق وسأياهم إلى
مخاضهم ، ورسائلهم إلى أهل الأعمار ، وفي كتابة وثائق الصالح ونصائح الخليفة
وتوجيهاته في الحرب والسلم .

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده أو يعل على بعض الكتاب ، ولم تكن قد
سارت بعد صناعة قنية كما حدث في عهد بني أمية وبني العباس .

بواعث الكتابة في هذا العصر :

وكانت الحاجة إلى الكتابة كثيرة :

١ - فقد كان السلفون في حاجة إليها لتدوين القرآن ولكتابة رسائل الدعوة
إلى الإسلام .

٢ - كما كانوا في حاجة إليها في شئون الفاك والسياسة ، والحرب والسلم وفي
كتابة اليهود والمسلمات والنقود والرسايا والنصائح .

٣ - الحاجة إليها في تدوين الدواوين وتنظيمها .

٤ - وساعد على ذلك معرفة الخط وانتشار الكتابة في مكة والدينة وسواهما من
الأعمار . وروى أن زيد بن أرقم بن نبوت ، والملاء بن عقبة كانا يكتبان بين القوم
في قبائلهم ومياهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء .

تدوين الدواوين :

لما اتسعت الفتوحات في عهد عمر وكثرت موارد الدولة ووفرت النتائج احتاجت
الدولة إلى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارمها وضبط أعطيات السلفين .
ويقول القفري :

« كان السلفون هم الجنود وكان تعالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا وكان لا يزال
فيهم دلتان من يندل شطر ماله في وجسوه البر والتقى وكانوا لا يريدون على نصرم
إسلامهم ونصرم للدينم جزاء إلا من عند الله تسال ولم يفرض النبي سلى الله عليه
وسلم ولا أبو بكر رضي الله عنه عطاء مفرراً ولكن كانوا إذا نزلوا وغنموا أخذوا
نصيلاً من النتائج ففرته الشريعة لهم وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد أحضر

إلى مسجد رسول الله وقرئ فيهم حسب ما يراه وجرى الأمر على ذلك مسعة خلافة أبي بكر فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر رأى أن التثويح قد تواتر وأن كدور الأكرسة قد ملكت وأن الخول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والخياب الفاخرة قد تناهت فرأى التوسيع على المسلمين وتعميق تلك الأموال فيهم - ولم يكن يعرف كيف يستعمل وكيف يشبط ذلك ، وكان بالدينة بعض مرزبية الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له يا أمير المؤمنين إن الأكرسة شيئاً يسمونه ديواناً ، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء ، وأهسل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يلاحظ عليها خلل ، ففقه عمر وقال : سنة في . فوسعه الرزيان فظلمه عمر فلك ذلك ودون الدواوين .

وفسد عهد الخلفاء بالكتابة في الدواوين إلى العرب والوالي والتمرين وظلت كتابة أطراج في الأقاليم يئنة أهسل العسر في العراق وفارس والفارسية وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقطبية ، حتى حسدتها من العرب طائفة فقولت بعد ذلك الكتابة في الدواوين إلى اللغة العربية وذلك في عصر بني أمية .

أسلوب الكتابة في صدر الإسلام :

ويمتاز أسلوب الكتابة في هذا العصر بما يأتي :

١ - سهولتها ووضوحها وقصدها إلى الترض ويدها عن التكلف وخلوها من عبارات التضخيم .

٢ - ميلها إلى الإيجاز - حتى لقد كتب خالد بن الوليد إلى عياض رسالة وهو محاصر بدومة الجندل يقول فيها :

« من خالد إلى عياض : إياك أريد » .

٣ - وكانت الرسائل تبدأ بإسلك اللهم ثم يقول من فلان إلى فلان ثم يلي ذلك قاليا قولهم : السلام عليكم أو السلام على من أتبع الهدى ، ثم ينتون بقولهم « إلى أحمد الله إليك » ، ثم يأتي الكاتب قاليا بأما بعد ، ويذكر غرضه الذي يكتب لأجله ، ويختمها بقوله : « والسلام عليك ورحمة الله » .

تماذج الكتابة :

١ - كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل : -

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من أتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يؤتاك الله أجره مرتين . فإن توليت فإنا عالمك بأثم الإرسين^(١) . « وإهل الكتاب تاملوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ؛ ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فتنوا الصمدوا بأنا مسلمون » .

٢ - ولما ادعى مسيحية النبوذة وكتب إلى رسول صلى الله عليه وسلم : « من مسيحية رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك . أما بعد فإني قد أمرت في الأمر ملك وإنش لنا نصف الأرض . ولقرين نصفها ولكن قريننا قوم يمددون » .

كتب إليه صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيحية الكذاب ، السلام على من أتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

٣ - وهذه وصاة أبي بكر لسر رضى الله عنهما :

« إلى مستخلفك من يدي ، وموسيك بتوى الله ، إن لله عملا بالليل لا يبيته بالنهار ، وعملا بالنهار لا يبيته بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما نفلت موازين من نفلت موازينه يوم القيامة أتباعهم الحق في الدنيا وتقله عليهم ، وحق ليزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون تبيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة أتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق ليزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيبا ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أفعالهم ، وبجواز عن سبائهم فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم

(١) م التبار والفلاحون لأنهم تبع لاداتهم .

بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم فإذا ذكرتهم قلت إلى لأرجو ألا أكون من هؤلاء،
وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون البعد رغبةً ورهبةً ولا يفتى على الله غير الحق
ولا يلقى بيده إلى التهلكة فإذا حفظت وسبقت هذه فلا يكن غائب أحب إليك من الموت
وهو آتيك ، وإن شئت وسبقت فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ، ولست
بمجزئ الله .

٤ - وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعري وقد
ولاه القضاء: «بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله
ابن عباس :

سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، قائم إذا أدى
إليك ، فإنه لا يطلع نسككم بحق لا تقاض له ، آس^(١) بين الناس في وجهك ، وعدلك
ومجلسك ، حتى لا يطلع كبريت في حيفك^(٢) ولا يأس ضعيف من عدلك . البيعة
على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً . أو حرم حلالاً ، لا يمسك
قضاء قضيته اليوم ، فراجعت به نفسك ، وهديت فيه لشكك ، أن ترجع إلى الحق فإن
الحق قديم ، ومهاجرة الحق خير من اتخاذه في الباطل ، اللهم نيا تلجج في صدرك
بما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال نفس الأمور عند ذلك . واعد
إلى أقرها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل إن ادعى حفا غائباً أو بيعة أمدا ينتهى إليه
فإن أحضر بيته وإلا استحلقت عليه التندية فإنه أنى لشك وأجل للمنى . والسفون
عدول يفتهم على بعض إلا عجلوا في حده أو مجرباً عليه فمهاة زوره أو ظليفاً في ولاه
أو نسب . فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبيئات والأيمان ، إليك والفاق^(٣)
والعنجر والتأذى بالظنوم والفتكر عند انظصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يظلم

(١) آس : أى سوين الناس . (٢) الحيف : الظلم .

(٣) سوء الخلق ، وذلك من شين العنان والندام الرؤية وانهم الصحيح .

الله به الأجر ، ويحسن القدر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كماء الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلف الناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فاطمأنك يتوابع في عاجل وزله ، وخزائن رحمته والسلام . »

٥ - وكعب عتيان رضي الله عنه إلى ماله حين ولي الخلافة : « أما بعد . فإن الله أمر الأمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم^(١) إليهم أن يكونوا جباة ، وإن سدر هذه الأمة خلفوا رعاة ولم يخلفوا جباة ، وليوشكن ألتسكنم أن يصيروا جباة فإننا عادوا كذلك انتطع الحياء والأمانة والوفاء . الا وإن أعدل السيرة أن نتظروا في أمور السلفين وفيما عليهم فتصطروم سالم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تمتنوا بالقمة^(٢) فتصطروم الذي لهم ، وتأخذوهم بالقي عليهم ، ثم العدو الذي تتابرون فاستفتحوا عليهم بالرفاء . »

٦ - وكعب مساوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب حين اشتد بينهما

الخلل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من مساوية بن سخر إلى علي بن أبي طالب :

أما بعد ، فلتسرى لو بأمك القوم الذين يابسونك وأنت برى من عتيان ، لست كنت كأي بكر وعمر وعتيان رضي الله عنهم أجمعين ، ولست كنت أنزيت بدم عتيان المهاجرين وشذلت عنه الأنصار ، فأطاعتك الجاهل ، وقوى بك الضيف ، وقد أتى أهل الشام إلا فتاك حتى تدفع إليهم فتلة عتيان ، فإن فلتك كانت^(٣) شوى بين السلفين ، وإنما كان الميلازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولتسرى ما حجتك على كجنتك على طلحة والزبير ، لأنهما بأمك ولم أبامك ، وما حجتك على أهل الشام كجنتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أماعوك ، ولم يطعك أهل الشام ، فأما سرناك في الإسلام ، وقرايتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموسلك من فريش فلتست أدفعه . »

(١) جدم نايه : أمر . - (٢) أي أهل القمة .

(٣) كانت أي الخلافة .

فكذب إليه الإمام علي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن سفيان :
أما بعد ، فقد أتاني كتابك كتاب امرئ ليس له بصير يهديه ، ولا قائد يرشده
دعاه الهوى فأجابته ، وقاده فأتبعته ، زعمت أنه إنما أتى علي بن أبي طالب^(١) ،
ولدمري ما كنت إلا رجسلاً من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا . وأسدت كما
أسدوا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالنسي ، وما أمرت فزمتي
خطيئة الأمر ، ولا كنت فأخاف على نفسي فصاحم القاتل . وأما قولك إن أهل الشام
هم حكام أهل الحجاز ، فهات رجلاً من فريش الشام في الشورى أو تحمل له الخلاة ،
فإن سميت كذبتك المهاجرون والأنصار ، ونحن أتيناك به من فريش الحجاز » .

(١) سفيان بن يحيى كعرب خيراً وعلواً : نفس عبده وذرعه .

وصف النثر الإسلامى

كان للعرب في جاهليتهم نثر فنى ، بقى ليا روى لنا من أمثالهم وحكمهم ووسايلهم وخطبهم ومناظراتهم ومفاخراتهم وعاوداتهم ونثر كهانهم ، ثم نزل القرآن الكريم وجاءت الدعوة النبوية الكريمة واختلاف العرب حيالها بين مكذب ومصدق ، فسكرت دواهي الحجاج والكلام والخطابة ، وأخذ النثر يندو ويذهر ويسمو ويقوى . وتلغذ على القرآن والحديث أعلام من البناء والخطباء والقصاصه فهجوا نهجيهما في تأييد الدعوة ونشر الرسالة والإرشاد إلى الحق والخير والإسلام ، ونعميس الجنود والتبشير بالنصر ، فكانت لك أثر في نهضة النثر الذى يمد عصر النبوة .

ولقد كان في كلام الله وحديث رسوله إزوان رائعة كثيرة من اللامى الشرعية والأساليب الرقيقة والألفاظ الساحرة ؛ فلقدى العرب بهما ، ونهلوا من موردها ، وأخذوا يصوغون أدبهم على مثاليها .

فانست أعراض النثر واستحكمت أساليبه وعذبت الفاظه ، وعمت معانيه . ومن الجدير بالذكر هنا أن القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف جلا لنثر دولة ووضاه في منزلة أسمى من منزلة الشعر ، فأصبح هو أم ألوان الأدب في ذلك العصر الكريم .

موضوعات النثر الذى :

شملت موضوعات النثر الذى في هذا العصر ما يأتى :

١ - الدعوة إلى العقيدة الإسلامية وبيان مبادئها وثابتها وأهدائها للناس الكريمة .

٢ - بيان السباسة الشرعية والاجتماعية في عهد الخلفاء إلى ولائهم وفنائهم

وترواحم : كعهد على رضى الله عنه إلى الأثر النضى ، وعهد عمر إلى أبى موسى الأشعري .

- ٣ - النظافة في الأمور الجامعة والمواضع الناجحة وفي المناسبات الكثيرة .
 - ٤ - وكتبت به الرسائل الدينية والسياسية التي تصدر عن الخليفة أو عن ولاته .
 - ٥ - وأسبغ أداة الدعوة والفدوة ولسان الدنية الإسلامية كافة .
- وهذه أغراض لم يكن للعرب من قبل إلف . يها إنفا هي أغراض جديدة وجتة الدين الجديد العرب إليها .

معاني النثر الإسلامى :

ومعاني النثر الإسلامى في هذا العصر كانت :

- ١ - تليق من ميعن النبوة وأدب القرآن الكريم ، من الدعوة إلى التوحيد والتلقن والتمنيية والحق والتخير والإنهاء الإنسانى وتقرير الإيمان بالله وأنبياؤه وكتبه وملائكته واليوم الآخر .
- ٢ - وكانت تصدر عن عقل خصب وذهن متوقد وتحكيم منظم ، وملسكات حميفة كتفت بثقافة الإسلام وكتابه الحكيم .
- ٣ - وسارت التالى منظمة والأفكار مرتبة بد الخلط الذى كانت عليه في الجمالية .

- ٤ - وتمتاز بظهور حرارة الإيمان وقوة العقيدة فيها وبثقل الروح الدينى عليها .
- ٥ - وهي فوق ذلك كله سبور للعبارة الإسلامية في هذا العصر الكريم بما اشتمل عليه من فتوحات وانتصارات وأحداث سياسية وثورات فكرية واجتماعية .

أسلوب النثر الإسلامى :

- ١ - ويتمتاز أسلوب النثر الإسلامى بحسن سبك وجمال رسمه وقسوة نظمه وإحكام فصوه والتتام أجزاءه وذلك من تأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبوى الجليل .

- ٢- كما يمتاز بيده عن الترابية والاستكراء والمصحح الشكف والخطاً في معامات الكلام ومقتضيات الأحوال .
- ٣- ويكثر ما فيه من اقتباس من القرآن وكلام الرسول صلوات الله عليه .
- ٤- وبقرته ووشوحه وجلاله وسلاسته ، مما تجده واضحاً في الآثار الفنية الأدبية التي حفل بها أدب هذا العصر .

الفاظه :

وقد بدت الفاظ القتر الإسلامي عن الترابية والروحانية والابتدال ، وانتشرت اختياراً جيداً ، ووضعت في مواضعها الثلاثة ووشيت بالبلانة والذوبة والسحر وهدت عن الخطأ وسلت من العيب والحنن والنصور .
وهذا كله من آثر بلاغة القرآن والحديث في ألسنة السليخ في هذا العهد .

الفصل الخامس الشعر الإسلامي

للشعر في صدر الإسلام
وما طرأ عليه في أفراسه وألفاظه وأساليبه ومعانيه

- ١ -

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تسامها منزلة ، ومكانة لا تدانيها مكانة ، فهو ديوان مآثرهم وسجل مناقهم ، واللسان الناطق بهم من فضل ومأم عليه من مجد أثيل وعز شامخ ، مامن حرب تقوم بينهم إلا كان الذي هاج نارها وأوقد سيرها وشب لظاها هو الشعر .

ولا تصح متألق الأتس ، ولا تلين قساوة الغروب ، ولا تنال الطالبا والهبات ، ولا تجزل النج إلا بالقول القاتن ، والشعر المدافع ، الذي يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغبة ، ويحتال به على ما يبغى من غرض . ولا تتمرر مجالس الشعر ومجامل العلية إلا بما يندد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد .

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، كانت قد تحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية للهذبة العاقلة والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع . فكان يصف المرأة أفتح وصف ، ويهتك الحرمات ، ويحرق الحجب والأستار؛ ويثير العمية ، ويوقد الحياة ، ويحرض الناس على الاعتقال والتناحر ، ويشتتهم على التنازع والتدابير والتناظر . فكان بهذا سمت وهذا الروح من مداول المدم وأسباب العمار التي منبت بها الحياة البرية .

ثم جاء الإسلام يدعو الإناء والمساواة ، دعوة البقة في التور والتمل والأدب الذي يليق بالعلم ، فحرم على الناس التواضع ما ظهر منها وما بطن ، وحذرم من يامل التور وزوره ، ومن سبى العفن وخداهه ونزوره ، ودعا أوليائه وأتباعه إلى أن يعضدوا عن كل رذيلة ويمتنعوا من كل موبقة ، وأن يكفوا عن التور والتمل إذا كان في ذلك ما يؤذي نفس مسلم .

أمات الإسلام فيهم روح الحميية ، وأخذ في عروسهم حية الجاهلية ، وحظر عليهم أن يلقوا بما يثير الفس أو يذكر بالخصومات أو يحرث كمن الأختاء ومستور الضمائن .

حرم عليهم ضرب الحجر ، لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب عليهم حفظ الفروج ونقض البصر وكف الأذى وسياة الحرمات . من هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام وأضربوا روحه واعتدوا بهديه ، وجدوا أدباً غير الأدب وروما غير الزوج وأسلوباً في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها ، وطرائق غير الطرائق التي ألفوها ، ونحواً من بلاغة الكلام السامع العفيف تتدق أعتاقهم وتتقطع نياط فلوبهم دون أن ييلتوا مداه أو يفتربوا من حده .

وجد الشعراء أن أدابهم تطلت ، وأن سبيلهم إلى ما كانوا يتناولون من اللافي والصور قد قطعت ، وأن ما كانوا يهوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو نحرع ، قد حظر عليهم الإسلام أن يلوا منه إلا بتألف لفظه وعرف منشاءه . من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التي أجادوها ، وأبدعوا فيها إلى اللافي التي يقرها الذين الجديد ويرتضيها ، بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر في الإسلام ، لأن الله أبدله به خيراً منه . فإن لبيداً لم يؤثر عنه في الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتي أجسلسل حتى اكتسبت من الإسلام سربالا
ثم امتنع بد ذلك عن الشعر إلى أن والله آجته ؛ وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدثت من الشعر في الإسلام ، فقال : أبداني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران .

والواقع أن تحول الشعر من روحه ومثريه في الجاهلية إلى روح جديدة ، وحياة جديدة وسمان ربما ضاعت بها شراطين الشعر ، وتخلقت فيها أخيلة الشعراء . هذا التحول قد عاد على الشعر بشيء من الضيق وانقباض الألق . وجعل شعراء الإسلام يجهلون عن كل معنى يشتم بسمة جاهلية أو تفر منه التماثيل الإسلامية ، وترفق بين شاعر ينهب كل معنى يمن له ، ويتنصص كل تسكرة تنهياً أمامه في أي موضوع وفي أي ناحية ، وبين شاعر يستولى عليه التخرج من كل ما يخالف «بته ولا يأنس مع عتيده .

فهذا الخطيئة لم يرفق الإسلام له طيباً . ولم يهذب له نفساً ، ولم يهذب له من سمته ، ولم يعدل له من سلوكه ، فبق شعره على ما كان عليه جعل التزعة زاخراً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو مجاهل متذبح ، حتى لقد حيسه عمر بن الخطاب ولم يطلق مرأحه إلا بعد أن عدهم يقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض السفهين . وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه وطهه ، فترك ما كان يصاحبه شعراء الجاهلية ، ولم تر له بعد ذلك شعراً قريباً إلا قوله في مناقحة أعداء الإسلام وسكافة خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها عدا ذلك فقد تحول شعره مما كان عليه في الجاهلية من القوة إلى الضعف .

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا ما يحمله من اللبائى التي لا تلتحق وجلاله ولا تناسب وفاره وكاله ، ولم ينفذ من الشعراء إلا ما يبدو منهم من سمات وخلاتق لا يرضاهم الدين ولا ترتاح إليها الأخلق الكريمة « والشعراء بابهم النابون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟ وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

أما ما عدا ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدست للشعر ، ويستمع إلى الشعراء ويقول : « إن من الشعر لحكمة » . وكان يأمر حساداً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه .

ولقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني تميم - بعد فتح مكة -

ودخلوا المسجد وقالوا: يا محمد جئناك نفاخر بك فأتدّن لشاعرنا وخطيبنا فأذن لخطيبهم،
فقام عطارد بن حاجب بن زبارة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن ثابت،
فرد عليه، ثم قام شاعرهم الزبير بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حين يبادلنا منا السلوك وفينا يقسم الزرع
ونحن نعلم عند التحمد مطمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع^(١)
ثم ترى الناس تأتينا سراهم من كل أرض هربا ثم تصطنع
فما فرغ الزبير بن بدر، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسانا بالرد عليه
فأرجل حسان قصيدته:

إن القلوب من غير وإخوانهم فسدد بيتوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره تنوى الإله والأمر الذي سرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوم أو طولوا النعم في أشياهم تقموا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم سرها البدع

فما فرغ حسان من قصيدته، قال الأروع بن حابس أحد رجال الرد:
والله إن هذا الرجل (بني محمداً) لثوى له^(٢) خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره
أشهر من شاعرنا، ولأسوأهم أهل من أسواننا... ثم أسفوا. فنحن نرى أن الشعر
حين أخلص في وجهته، وسلح مما كان يدنس من هتك الأعراس، وكشفت الأستار،
كان من أسلحة الدعوة الجديدة، والألسنة الجاهدة السكاغة في سبيل تثبيت دعائمها
واستقرار قوائمها، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر في هذه الفترة التي سلحت
فيها الأخلاق، وتطهرت القلوب، واستنارت الأئدة، وأطال الناس عهد وادع
بجمله حسن الأدب، وجمال الخلق، وعة اللسان، وصحابة القال.

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة لا تعرف الفجس، ولا تحب الجهر بالسوء،
ولأنها لم تلغوا نيا حرم الله. فهي رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة
وآدابه القوية، ودعوته الحقة إلى معاملة الناس أكرم معاملة.

(١) القزع: السحاب. (٢) لى سبون له في أمره.

أما من بنى على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فبا يقول ويشد ، فقد نسي عليه الرسول عليه السلام سلوكه وحاربه السفون أعنف حرب ، لأن أسانه ظل سادراً فيغيه ممناً في كدوره لم يدخل فيها دخل فيه الناس أنواجاً من دين رب العالمين وعصية أحكم الحاكمين . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن سفة ورهطاً من الأنصار ، فكتبوا كتب بن الأديف من شعراء المدينة اليهود لأنه شيب بنساء المسلمين وهذا ضايء بن الحارث البرقي مما بعض بني جدول بن نهشل فأخس في جهائم ، حتى روى أمهم بالكعب فاستمدوا عليه عثمان بن عفان فحسه وقال : لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لأحسبه نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً روى قوماً يكسب قبلك . ولقد حبس عمر التيمي الشاعر الذي هما بني النجلان رهط ابن مقبل بقوله :

وما سمى النجلان إلا يتسولم : خذ القتب واحلب أيها البعد والمجل
وكذلك حبس الخطيئة حين أخس في هو الزرقان بن بدر وهذه يتعلم لسانه
لولا أنه فرغ إليه ، وتلطف فيه واستشفق بأفراح زغب الخواصل ليس لهم ما ولا شجر .
وهكذا أسلم الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة ، ووجه رسالة الشعر إلى أمسى الأهداف وأبيل التايات .

أعراض الشعر في صدر الإسلام :

هجر الشعراء الأعراس التي تتناقى والدين وتناهي الإسلام : كالنزول الفاحش والهنجر الكاذب والمجاء الفذح . ومن استمر منهم على المجاء الخطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين ، وموقف عمر من الخطيئة معروف . . كذلك بطل الكلام في الجمر ووسلها واليسر وفتياته والجزور التي ينحرونها عليه ، وفي تعلق الناس بالذبح ، وفي سيد الوحش وطرده . . مما كان يسه السمع التآثر بالفتيدة الإسلامية بيتاً وهوأ . وكان كثير من هذه الأعراس شديد الصلة بميائهم في الجاهلية كالظفر واليسر

وحياة البطالة والصراع والأخذ بالقار والزينة في الاعتناء والديب والاستهتار والنجور في الحب - ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشجارهم وأملؤها بالقوة والروعة والماحة ، وهذا ينسب لك بعض الحق فيما يقال من إن الشمر ضيف في صدر الإسلام .

وانتصروا في نظم الشمر على الأفراس الآتية :

١ - الدعوة إلى الإسلام ومبادئه ومناخه خصومه - وكان من أشهر القائلين عن الدعوة ووسولها الكرم : حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشمرهم : ابن الزهري ، وشرار ابن الخطاب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب ، وأبو عزة الجهمي .

٢ - هجم أعداء الدعوة في عصر النبوة ، وهجم أصحاب الفيلانيات الثلاثة بعد عصر النبوة .

٣ - رثاء من استشهدوا في غزوات الرسول وفي الفتوحات الإسلامية الكبيرة، ومن قتل ظلمًا من خلفائه وكبار أصحابه .

٤ - الفخر والفتاوى بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمجيد بشجاعة المسلمين وأبطالهم ووسف المنافق والحفصون وآلات القتال التي لم يكونوا عرفوها وأنواع الخيول التي لم يشاهدوها، ومنه النبلة التي حارب الفرس عليها العرب، ووسف جبال الثلج والأنهار النظام بوسفان البحر، وسوى ذلك مما مثلته كتب النثر والفتوح، ويكثر في هذا النوع الأراجيز .

٥ - الحسكة ، وقد كثرت في الشمر في هذا العصر بتأثير تملأه القرآن والمدن وفتجارب الكبيرة التي أخذوها في الحياة ، يقول حسان أو حنيفة سعيد :

وإن امرأ يمس ويصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
ويقول الخطيب :

من يسل الخير لا يدم جوازيه لا يذهب الرفيقين الله والناس
ويقول كعب بن زهير :

ومن دعا الناس إلى ذمسه ذموه بالحق وبالباطل

٦ - المدح وأشهر شعرائه حسان والثابتة الجدي وكعب بن زهير والحطيئة وفي هذا الفن يدعو أثر الإسلام في مبادئه وألفاظه .

٧ - كما نفلوه في الرعظ والزهيد في الدنيا والدمعة إلى تنوير الله ، متأثرين في ذلك بالإسلام .

مبادئ الشعر في صدر الإسلام :

وقد تأثرت مبادئ الشعر في هذا العصر تأثراً واضحاً بالإسلام والقرآن الكريم فقلب على مبادئه :

- ١ - السبق والقدرة والفهم والاستقصاء وترتيب المادى والأشعار ،
- ٢ - ظهور المادى الإسلامية والباطلة الدينية في الشعر وغلبتها عليه وتوليدها من المفاهيم الإسلامية .
- ٣ - الرضوخ والبساطة في المادى والأشعار والأخيلة .

أسلوب الشعر وألفاظه :

تأثر الشعراء في عصر النبوة وبمناهج القرآن الكريم وحديث رسول الله تأثراً ظاهراً في الأسلوب والأداء مما أحدث تغييراً واضحاً في أسلوب الشعر في هذا العصر .

١ - فقد هجروا المحوى والتعريف والبيئيل والساقط والنحو ، وزدوا في شعرهم كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإسلام .

٢ - وأمنوا في مجال السبك وعذوبته وإحكامه وتلاوته .

٣ - وكثروا في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق .

٤ - جزالة الأسلوب وقوته ، وكثرة دوائمه وسوره الأدبية والبيانية .

وبعد فلاأدسون بتسمون الشعراء المنضمين إلى طائفتين متميزتين : شعراء الوبى من أعراب نجد والحجازية وبنو أمية ، وشعراء الدر وهم أهل القرى كالدببة ومكة والطائف ، وقرى عبد القيس في البحرين ، والحيرة بسواد العراق .

ويرون أن شعر أهل نجد والحجازية والبوادى أغل من شعر أهل القرى وأجزل

لفظاً وأشتم إداه وأوسع مذهباً في تنوع أساليب الكلام . . وإن كان شرم لا يمتد
من حوشية في البارة ، ومنهم كان يقول الشعراء .

ويرون أن شعراء المذاهب الأربعة وأرقى لفظاً وألطف كتابة وأدب أسلوباً ،
وأن اشتمهم جميعاً أهل الذممة ، ومنهم كان شعراء النبي الذين تأخروا عنه الشعراء
الناشئين في فريضة بعد أن لم يكن لمساحة شعر يذكر ، وأن شعر الأتصار في الأوس
وانتزوح في هذا العصر لأن في اللفظ وهان في النبي مما كان عليه في الجاهلية وحلوا
ذلك بأن الإسلام نسخ كثيراً من براعت الشعر التي تثير النفوس وتشمل الأحقاد .
كالمسبية الجاهلية ، وحب الانتقام ، والأخذ بالثأر ، والشوة بالخر والمجاء للكاتب ،
وأكثر ما يبيح بالطواغر عند احتدام الشرور وتسكن إليه النفس عند الرضا والسرور
وأمر آخر ذكره ، وهو أن كثرة تلتهم آيات هذا القرآن للمعجز وتزوله بينهم كل
حين بما يبرمهم ويأخذهم بجماع قلوبهم من ترثمة شرم في أعينهم ، واستخسوا
منايهم وأساليبهم بالإضافة إلى منايه وأساقبه ، فهبطت قوة شرم مما كانت عليه ،
ومتوا لتلك بقوة شعر حسان في الجاهلية وليته في الإسلام وشيوخ شعر أمية بن
الصلت في الجاهلية واستغذائه في الإسلام : لسكان حسده لرسول الله .

قال الثعالبي^(١) : كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جيداً ، ويفتر في
تواصي الفحول ، ويدي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كمادة الشعراء ، ويقول
مثل قوله في بني جلفة ملوك غسان :

أولاد جلفة حول قسبر أيهم قير بن ماوية الكرمي الفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم هم الأتوف من الطراز الأول
فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكاً تراجع شعره وكاد يرق في قوله ، ليهلم
أن الشيطان أسلح للشعر وألقى به وأذهب في طريقه من الملك .
وأكبر من ذلك إن لبيداً الباسري وهو من أقل شعراء الجاهلية ، عندما انتطح

(١) ٨٠ - ٨١ - تاريخ الخلفاء ص ١٩٠ - ١٩١

إلى حفظ القرآن ومدراسته انتطع عن قول الشر في الإسلام . ويقولون : إن من لم يتعرض لهذا الإقام والانتباه من أهراق البوادي بقى شره إلا قليلا على غرار شعر الجاهلية من أمثال الخطيبنة وكب بن زهير ، وكل هسنا كلام مقبول في مجلته ، ولكن كثيراً من أهل العلم والتقدم من المتقدمين وللتأخرين يرون أمث بعض ما يستعصف من شعر شعراء مكة والمدينة والطائف مدهوس عليهم .

وبعد ، فقد كان السلفون الخلفاء يرون الشر والشراء . وكان أبرز عمل قاموا به هو الدعوة إلى المحافظة على الشعر الجاهل وروايته وكتابته خوفاً من أن يندثر بكثرة من قتل من العرب في الفتوحات ولا شاهدوه من لغة الرثية في الشعر عند الناس بتأثير التمرد الديني الجديد ، وعاقبة على لغة القرآن ولهم بلانته وإيجازه . . . ولهذا قال عمر بن الخطاب : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، فقلوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم . . . وكانوا يبتزون الشعر ويقدمون رسالته ويمسكون لحسنه ويتوهون بأثره قال عمر : أضل سناعات الزجل الآيات من الشعر يقدمها في حاجاته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب القبيح . وسئل مالك بن أنس من أين شاعر ابن الخطاب مما له قال : أسوال كثيرة ظهرت عليهم وأن شاعراً كتب إليه يقول :

نحج ونزرو كل عام إذا غزوا فآي لهم وفر ولستا يذى وفر
إذا التاجر الهندي جاء بقسرة من السك راحت في مفارقهم بحرى
فدوبك مال الله حيث وجدته سيرضون إن شاطرهم منك بالشطر
قال : فشاطرهم عمر أموالهم .

وقال ابن عباس : قال عمر بن الخطاب ، أنشدت قول زهير فأنشدته فوله في حرم ابن سنان حيث يقول :

قوم أروم سنان حين تعسبهم طابوا وطاب من الأملأ ما ولعوا

لو كان يصد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قدموا
فقال له مر : ما كان أحب إلي لو كان هذا الشمر في أهل بيت رسول الله .
ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن
هرم بن سنان . قال : صاحب زهير ، قال : نعم ، قال : أما إنه كان يقول فيسكن فيحسن
قال : كذلك كنا نعلمه تنجزل ، قال : ذهب ما أصليتموه وبقى ما أعطاكم .
وكان كثير من الخلاء والمصاحبة تفاقاً بتطرتهم وذوقهم : فأبريكر * يتدم الثانية
ويقول : هو أحسنهم شمرأ وأعذبهم بحرأ وأهدم قرأ *^(١) ، وكان عمر يتذوق
الشمر ويتقدم^(٢) ، وقدم زهيراً ولم يحسب بذلك غضب بل فرح سبب حكومته بأنه
كان * لا يباطل في الكلام وكان يتجنب وحشى الشمر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه^(٣) *
وكان يرى أنه أشمر الناس^(٤) ، وكان يجلس هو وأصحابه فيبدأ كرون الشمر والشمرأ
وأبهم أشمر^(٥) .
وقال^(٦) عمر بن الخطاب للورد الذين قدموا عليه من غطفان : من الذي يقول :
حلفت فلم أترك لفساك ربية وليس وراء الله الفرء مطلب
قالوا : نابتة بنى ذبيان قال : هو أشمر شمرائكم ؟ وكذلك كان علي بن أبي
طالب ، وكان يتقدم امرأ القيس على الشعراء ويقول : هو أحسنهم نادرة وأستقيم بادرة^(٧) .

(١) ٧٨ ج ١ السنة .

(٢) راجع : ٩٩ إجاز القرآن ، ١٩٦ و ١٧٠ ج ١ و ٢٢٤ و ٢٢٥ ج ٢ البيان
والخيبة ، ٣٨ و ٥٦ و ٦٠ و ٧٦ ج ١ السنة .

(٣) ١٣٠ الرواية ، ٨٠ ج ١ السنة ، ٣٢ جرة أشعار العرب ، وس ١٠٥ لله
الشمز . (٤) ٣٧٩ وما بعدها ج ٢ القدر .

(٥) ٢٢ الجيزة . (٦) ٣٤ الجيزة .

(٧) ٢٢ و ٢٨ ج ١ السنة .

أشهر الشعراء المخضرمين

مزود بن شرار الديلمي - زيد الخليل وفد على الرسول عام ٨٩ هـ وتوفي في هذا العام - الخليل السدي مات في خلافة عمر .
عمرو بن الأهمم القرني - ربيعة بن مقروم - عبد الله بن عمدة الضبي .
سويد بن أبي كاهل البشكري وتوفي بعد عام ٦٠ من الهجرة .
عوف بن عطية بن الخرج التيمي من تيم الرباب .
قيس بن الخطيم وفد لاقى رسول الله ولم يسلم - كعب بن زهير - حسان - مالك ابن الرباب .

شعراء الجاهلية المخضرمون :

عمرو بن الأهمم - النخلاء - عمرو بن أحر - ذرة بن عمرو - عامر بن الطفيل وفد على رسول الله - قيس بن الخطيم أدرك النبي - الحارث بن هشام توفي عام ١٥ هـ - الضرار السلمي - عمرو بن شاس - سلم بن دارة - حسان بن وهلة - عبد الله بن عمدة الضبي - قبيصة بن جابر - عائشة بنت عبد المطلب - أمية بنت أبي الصلت - أبو خراش المذلي - عبدة بن الطبيب - حديد بن الصمة - الأسود بن يثوث - قتيبة - النابغة الجعدي - سلمة الجعفي - الشباخ - مرة بنت النخلاء - معن بن أوس - حسان - أبو العديان التيمي .

صور من الشعر الإسلامي

- ١ -

قال أبو ذؤيب المذلي - وكان له أولاد سبعة فأتوا كلهم - يرثيهم :

أمن اللون وريسه تتلجج والدهر ليس بحبيب من يجرع
قالت إمامة ما لجسك شاحبا منذ أيدت ومثل مالك يضح
أو ما لجسك لا يلائم مضجعا إلا أفض عليك ذاك الضجج
فأجبتنا أما لجسك إنسه أودي بني من البلاد فودعوا
أودي بني وأعتبوني حسرة بعد الرقاد وعسيرة ما تلجج
سبتوا هوى وأعتلوا لهوام فخرموا ولكل جب مصرع
فبقيت بدمم بيتي ناسب وإنخل أني لأحسق مستلجج
ولقد حرصت بأن أدفع عنهم وإذا اللبنة أملك لا تسدفع
وإذا اللبنة أنشيت أشقارها القيت كل تيمة لا تلجج
فالبين بدمم كأن حسدالها حملت يشوك فهي عود تدمع
حتى كأنى للحوادث مروة بسنا للشر كل يوم تفرج
وتجهدى للشاميين أريهم أني لرب الدهر لا أنضمع
والنفس رائية إذا رعبتها وإذا ترد إلى الخيل تلجج

- ٢ -

وقال مقيم بن توبة يرثي أئمة مالكا :

لندري وما دهري بتأبين مالك ولا جزما مما ألم فأوجعا
نبي هلا تبيكان لمالك إذا هزت الريح الكتيب المرعا
وما كان وفاة إذا الخيل أحجبت ولا طالبا من خشية الموت مزعا
ولا يكفاهم سيفه من عدوه إذا هز لاق حاسرا أو مقتسعا

أبي العبر آيات أراها وأنى
أرى كل جبل بسد جيتك أظنا
وأنى متى ما أوع بصلك لم تحب
وكنت حريا أن تحبب وتسمنا
نحيته متى وإن كان نالنا
وأسى زايا فوقه الأرض بالنا
غان تسكن الأيام فرغن بيتنا
فقد بان محوداً أمى حسين ودعا
غشنا بحجر في الحياة وقيلنا
إسباب اللابا رهط كسرى وتبنا
وكنا كندمانى جسدفة حبة
من المعرحى قبل أن يتصدنا
ظنا ترفها كائن ومالكنا
لعلول اجتباع لم تبت لبسة منا
سقى الله أرضنا حلها فسير مالك
دهام التوادى الرجيات فأمرنا

قصة عربى كريم للحطيطه :

وطاوى ثلاثاً^(١) ميسب البطن مرزوبل^(٢) يتيداه^(٣) لم يترقا بها ساكن^(٤) كرسنا
أبى جفوك^(٥) فيومين الإسير وششة^(٦) ترى النؤس فيها من مراضيه نسمي
واقسرد في شيب^(٧) عشوزا لإدها ثلاثة أشباير تعالهم بهم^(٨)
لحماء ، عركه ، ما اتندوا الحز مالى^(٩) ولا عزموا غير من حلقوا فكتنا
رأى شبحاً وسط الظلام مرآته فلما رأى شبحاً تشمر واحتنا
فقال : هيا ربك شيفت ولا يرمى اا بمحك لا تحزونه نا اللية اللخا
خال ابنه لسا رأه بحسيرة : إلا أبتن أذبحسى ويسر له كسا
ولا تحفز بالندم عسل القى ترى يظن لسا مالا فيوسينا ذنا
فروى قايلا ، ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح ننا ففذهما
فيينا جا عنت على البند عانة قد انظقت بين خلفي وشحلها نظنا

(١) أى عجم ثلاث ليل على الطوى : أى المرح . (٢) الرقى : القى لله زاده .
(٣) صحراء . (٤) رسم الدار ما كان من آثارها لاسما بالأرض .
(٥) الملقبة : الوحشة . (٦) النسب : طريق لى الجبل .
(٧) جمع بيهة : الصغير من أولاد الغدان والمز . (٨) اللها : الزماد الحار .
(٩) جمع بيهة : الصغير من أولاد الغدان والمز .

عطاشاً تُرِيدُ الماءَ فأنسابَ نَحْوِها هل أنه مِنها إلى ديارِها أظنَّها
فأمهلها حتى تروى عطاشها فأرسل إليها من كتافه سَهْمًا
ظفرتُ محوسمٌ ذات جفثٍ سمينَةٌ قد اُكْتَرَتْ لها وقد طُبِّتْ شعْماً^(١)
تيا بشره إذ جرَّما نَحْوِ أهله وبأبشرم لها راودا كَلَمَها يَدَمِي
وباتوا كراماً قد لَمَّوا حقَّ منيهم وما تَرموا نُرْماً ، وقد غنموا غنْماً
وباتَ أبوهم من بقاته أباً لفضيهم والأُمُّ من بشرها أُمًّا

- ٤ -

وقال مالك بن الزرب اللزلي ، برقي غسه ويصف تيره وكان خرج مع سعيد بن عفان
أخي عفان بن عفان لما ولي خراسان ، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس غفه
فلحنه أمي فلما أحس بالوت أنشأ يقول :

دعاني الهوى من أهل ودِّي وصحبي بذى الطيبين فالتفت ورائيها
فأراعي إلا سوابق هجرتي تنمت منها إن الأم ردايها
إلى ترى بنت الضلالة بالمسدي وأصبحت في جيش بن عفان غزاي^(٢)
فله دوى حين أترك طائفا بي بأهل الرقصين ومالها
تقول ابني لما رأيت وشك رحلي سفارك هذا تارك لا أجالها
ألا ليت شمري هل بكت أم مالك كما كنت لو نادى نيك يا كيا
إذا مت فقتادى القبور وسلي عليهن ، أسفين السحاب التوايها
ترى جدنا قد جرت الريح نوله ترابا كلوت التسلطان هايها^(٣)
تيا ساحبي رحل دنا الموت فأفرا براية إلى مقم لياليا

(١) المحوسم : الأمان السينة . الجفث : ولي الخبز . اُكْتَرَتْ : استلأت .
(٢) مالته : حاسر عاتقه كان يعلم الطريق وكان من أحسن الناس وجها وأرقم حديثا ،
فر به سعيد في طريقه إلى خراسان وثأفه وألقفه في ساعته .
(٣) التسلطان : نسبة إلى تسلطان ، وهو الديار الساطع ، والمجان : الثياب القليل .

وخطا بأطراف الأسمه منجسي وردا على عيني فضل ودائسا
ولا تحسناى برك الله فيسكا من الأرض ذات المرض أن توسعا ليا
خنداي بخراني يبردي إليسكا فقد كفت بمثل اليوم سنيا عباديا
تعدت من بيك على سلم أجسد سوى السيف والرمح الزديني يا كيا
ويارسل لو يفتن على نسوة يسكين ودفين العلييب الداويا
عجوزى وأختاي القنات أسيتا بقرى وبلت لي تهيج البرا كيا
لمرى لئن عالت خراسان هامى فقد كفت عن ياني خراسان نايا
تعمل اصحاب عشاء ونادروا أنا ثقة في مرسة الدار ثاويا
يتولون لا تبس وم يفتونى وأين مكان البعد إلا مكاليا

- • -

وقال أبو دهيل أجلس بدمع النبي صلى الله عليه وسلم :

إن البيوت معادن فنجساره ذهب وكل يسوته منضم^(١)
علم النساء فا يلدن شيبه إن النساء بمشله علم
شهل بنم ، بلا متباعد سيان منه الزفر والسدم^(٢)

(١) البيوت: المراد بها القبائل . اللادن : جم معدن وهو منبت الجواهر ، الجوار : الأصل ،
وكل بيوت منضم : أى أن القبائل إلى اكتنته من أشرفه وأمامه شريعة عظيمة مثل عاتم وآبىة
وعزوم .

(٢) شهل بنم : أى فرح بقولهم . بلا متباعد : أى بعيد من قول لا : وسيان : شلان ،
الزفر : لال الكثير ، السدم : نة لال .

شعراء المدينة ومناظرتهم لشعراء مكة دفاعاً عن الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم

كان أبرز الشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية ورسولها عليه الصلاة والسلام ، ووجهوا في مواجهة قريش ، ثلاثة من الأنصار : هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، وكان حسان أشعرهم ، ولم يكن شرمهم شراً أناة قورف على النبي الذي ألفوا أن يتولوه في الجاهلية، وإنما كان شعر مناجاة ودفاع عن الإسلام ورسوله والذين اتبعوه يلعبان ، كما كان مبادرة لقريش بمخازنها ، فقد كان الأولي بها أن تكون أول الواعين تحت راية الإسلام وفي صفوف المسلمين .

ولقد كان مما قاله أحد الصحابة عمرتاً ومستعجلاً للأنصار ما يجمع القوم الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بملاحهم أن يصروه بالسنهم ؟ وكان الأنصار في أول الأمر يمشون أن يهيجوا مشرك مكة من قريش لأنهم أقرؤ الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أذن لهم الرسول بأن يهيجوم قال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ يظرف لسانه ويقول : والله ما يرسن به مقول بين بعري وسنماء ، فقال له الرسول : كيف تهيجوم وأنا منهم ، قال : إني أسلك كما تسلك الشجرة من السجين . . قال الزواة : فكان يهيجوم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يبارضانهم بتل الرقائق والأهيم والمآثر ويعترانهم بالثالب وكان عبد الله بن رواحة يعترهم بالسكفر ، فكان هاء حسان وكعب لقريش قبل إسلامهم من أشد القول عليهم ، وأهونه عليهم هاء عبد الله بن رواحة ، فلما أسلموا وفتحوا الإسلام كان أشد القول عليهم هاء ابن رواحة^(١) .

ويدعو إن حسان بن ثابت قد انفرد من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الشاعر البين لهجوة ديبسة شاملة ، ندبه رسول الله صلى الله عليه وسلم للذود عنها

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول . ص ١٥٠ . سيد حتى حسين .

ومن أمراض أنصارها ، فنانح ما شاء الله أن ينانح ، وخذ مواهبها في غرر شمره ،
وخلع عليه صاحبها من التكرم ما تنقطع دونه اعتناق النظراء ، حيث نصب له متبراً
في مسجده ياتي من توفه شمره ، ودعا له أن يؤيده روح القدس ، ووهب له «سيرين»
أخت مارية القبطية ، ووعده أبلجة جزاء إجابته عن الرسول عليه الصلاة والسلام .
وقد احتل حسان اللير في يوم انتصاره الأدبي العظيم على شمراء بن عجم في
ولودهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قدموا عليه بعد فتح مكة ، وكانوا
سبعين أو ثمانين رجلاً فيهم وجوه القوم وصادقهم ، وكانوا غسلاً جفاة ، فنادوا
الرسول من وراء الحجرات وقالوا : يا محمد جئتك لتفأخرك فأثدن لخطيبنا وشاعرنا ،
فأذن لهم ، وخطب منهم عطارد بن حاجب بن زرارة ، فقال في وصف قومه ، وزعم
علم الفك والنبي والسكنة واللغة والسيادة والقوة على العرب جميعاً ، فأشار الرسول
صلى الله عليه وسلم إلى ثابت بن قيس الأنصاري ففاخر بالرسول وأتباعه من المهاجرين
والأنصار ، فدمغ بمخه بالملهم وعامن من غرورهم وكبرياتهم ، وفند دعاوهم ومزاحمهم .
ثم قام شاعرهم الزرطان بن بدر فأثد شمراً جمع فيه التكلم والحمد لقومه ، فأومأ
الرسول إلى حسان ، فأثد قصيدته البيئية ، التي أزال بها التشاؤم عن أعين القوم ،
وجلا الصدا الذي ران على قلوبهم ، حتى قال الأفرح بن حابس : والله إن هذا الرجل
(ويقصد محمداً صلى الله عليه وسلم) لمؤق له ، والله لشاعره أشمر الناس ، وخطيبه
أخطب من خطيبنا ، ولأسواتهم أرفع من أسواننا ، ثم قال : أعطى يا محمد ، فأصلاه
عليه الصلاة والسلام ، فقال : اللهم إنه سيد الناس . . . ثم أسلم الرقد . . .

وكان من أبيات القصيدة التي أنشدتها حسان قوله :

إن التواكب من غير وإخوانهم قد بينوا سفة للتسلسل تتبع^(١)
يرضى بها كل من كانت سريره تنوى الإله وبالأسرافى فرعوا^(٢)

(١) التواكب : جمع ذؤابة وهي أملا النسي . واهر : اسم البلد الأعلى الفريش ، وأمه
حجر سلب .

(٢) السريرة والسر : ما يكنه الإنسان في صدره ورفيقه عن غيره .

سجية نك نهم غير معدسة	إن الخلائق ما علم سرها البيع ^(١)
إن كان في الناس سباقون بدم	فكسل سبق لأذى سبقهم تبع ^(٢)
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم	ففضل أحلامهم من ذلك متبع ^(٣)
أعنة ذكرت في الوحى عنهم	لا يطلبون ولا يردبهم الطمع ^(٤)
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم	فا ونى نصرهم عنه وما زعموا ^(٥)
إن قال سيروا وأجدوا السير جهدم	أو قال عوجوا علينا ساعة ترموا ^(٦)
ما زال سيرهم حتى استفاد لهم	أهل الصليب ومن كانت له البيع ^(٧)
لا تخز إن هم أساءوا من عدوم	وإن أسبوا فلا خور ولا جزع ^(٨)
كانهم في الوحى والوث مكنتهم	أسد بيضة في أرسافها فدمع ^(٩)
أكرم بقوم رسول الله شيتهم	إذا تعرفت الأهواء والشيع ^(١٠)
أهدى لهم مدعى قلب يؤزره	فبأ يحب - لسان حائك صنع ^(١١)
فيلهم أفضل الأحياء كلهم	إن جد بالناس جد القول أو شجوا ^(١٢)

- (١) سجية : الغريزة . (٢) أى هم أسبق الناس وغيرهم لهم تبع .
(٣) القصد بأهلونا هنا : العيش والحق ، والأعلام : جمع حلم والقصد منه : الأذى والنقل : أى أنهم لئمة عقولهم لا يتسرعون في الفضب بلنا استدارهم أسد .
(٤) لا يطلبون : لا يتبعون في الدنس والفتنة ، ولا يردبهم الطمع : لا يهاكهم ويدغمهم لك القناعة . (٥) ونى : أبطأ وتأخر ، وما زعموا : ما اصرقوا من أيمانهم واصرته .
(٦) عوجوا : انزلوا ، رجموا : وقفوا وأهملوا - كتابة من كاله القسوق والاستسلام .
(٧) استفاد : خضع وأسلم الفياء ، أصحاب البيع : اليهود .
(٨) الخور : الضعف واللين ، والجزع والجازع : الخائف للفتور .
(٩) اللوت مكنتهم : أى دان قريب ، وبيضة : بأسدة في واد بطريق اليابسة اشتهرت أسودها بقوة البطن ، والرسم : للفصل ما بين السامد والكف وما بين الساق والرجل ، والهدع : انواج الرسم ، وهو في الأسود دليل الصلاة والقوة .
(١٠) شيتهم : حزيهم وملازم .
(١١) يؤزره : يحاوله ويصانده ، والصنع والصناع : الخائف في صنعه .
(١٢) صنع : لب ودرج ، حتى أن فضل رسول الله صل الله عليه وسلم ، وقومه على سائر الأحياء لا يمانان فيه أسد سواء كانوا في مرض البند أو الغزل .

وهكذا كان لهذه التصديفة أثرها في اعتراف « نعيم » أولاً بأن محمداً عليه الصلاة والسلام - مؤقلاً ، وثانياً بهذا الدين الذي يدعو إليه .

والحق أن حسان كان آية من الآيات التي أبد الله بها رسوله - صلى الله عليه وسلم ، فقد كان للشركون أهل لسن وغير وجهاء وقد حلزوا الرسول بهذا السلاح ، فكان لا بد له أن يمد لهم شاعراً سليط اللسان قوي البيان مربع العارضة ، وقد كان لشكر السليبي شراؤه ، ولا بد أن يكون الكثير منهم قد تطلع لهذا الشرف السامى ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتألف نظره ، ندب حسان لهذا الشتر من نورد الدعوة ، حسان أنصاري ، والأنصار قد نصروا رسول الله بسببهم ، فهم أجدر أن ينصروه بالسلم ، وهو من بني النجار - ذؤابة الخزرج - وهو شاعر تاضع معروف المسكاة ، وقد كل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناحية القمص في عدته الهجائية ، فهدى إلى أبي بكر أن يمدته حديث التوم واليامهم وأحسابهم ، وقد ظهر أثر ذلك كله في شعر حسان ظهوراً لم يخف على فطالة فريش ، فنالت بمدحهم شعر حسان : « إن هذا الشتر ما تلب عنه ابن أبي فحالة » .

وقد سر النبي صلى الله عليه وسلم لهذا التوفيق الذي أساب شاعره ، فكان يستعشده ويطلب الاستماع إليه ثم يقول : « لهذا أشد عليهم من وقع البيل » وروى أنه قال « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشق واشتق »^(١) .

وواضح من الواصف التي وقفها حسان وأمثاله ، أنه كما كان للدعوة شراؤها المؤمنون بها للناقرن منها ، فقد كان لها كذلك أعداؤها ممن أخذوا بكيدون لها شراً مثل أمية بن أبي الصلت وكعب بن الأضراف وعبد الله بن الزبير والحارث بن هشام ، وغيرهم .

(١) راجع : دراسات في الأدب الإسلامي للاستاد محمد خلف الله أحمد ص ٣٠ ، نسيت من غير الأدب المذكور محمد مرسان ص ١٠٠ ط ٢ .

وإذا كان هؤلاء وأولئك موافقهم الشرعية بعد فتح مكة ، فقد كان لهم كذلك موافقتهم قبل الفتح .

فقى وفتة بدر الكبرى - مثلاً - حيث كان نصر السلفين راضياً مؤزراً يقول حسان ابن ثابت :

مرتا ، وساروا إلى بدر لحينهم لو يظفون بين العلم ما ساروا^(١)
دلام بتروء ثم أسلمهم إنست الخليلت لمن والاه غرار^(٢)
وقال : إني لكم جار فأوددم در الوارد فيه المزى والمار
وبعض شر السلفين يسجل على قريش بنينا وبطرها الذي سجد القرآن من قبل ،
فقال كعب بن مالك :

حجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد ، ليس لله ظم
ففضى يوم بدر أن تلاقى مشراً بنواً وسبيل النبي بالناس جار
وقد حشدوا واستنفروا من بلهم من الناس ، حتى جمعهم متكأ

أما من فر من الشركين يوم بدر ، فقد اشتق منهم شر السلفين بالصير ، والمز
والزواية ، ومن أوجع ما قبل في ذلك ما أنشأ حسان في قصيدة تمد من أقوى ما قبل
من الشر في غزوة بدر ، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام وتركه أخاه عمراً (الأجمل)
يتقل في ميدان القتال - هذه القصيدة التي بدأها حسان بقوله يتنزل :

تبت فؤادك في النمام خريدة تسقى الضجيج يسارد بسام
ثم يخلص من النزل إلى قوله :
إن كنت كاذبة القى حدثنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحية إن يتائل دونهم ونجا برأس طمرة والجسام
وبو أبيه ووهظه في شرك نصر الإله به ذوى الإسلام

(١) الخن : الملاك .

(٢) دلام بتروء : أي إن الشيطان تدميم وفرم ويزن لم عارة السلفين فاسلمهم فهلاك .

لولا الإله وجربها لتركته جزر السباع ودمته بجواهي^(١)
ومن أكثر ما ردهه شعراء السليبيون يومئذ ، تندبهم الصريح من عطاء قريش
ووصف هوانهم وقد التوا على أرض المركة بانتظارهم معبر آخر مؤلم في نار جهنم ،
ووصفهم الأسرى وقد شدوا بالأغلال وقيدوا بالأصفاد . وما هو ذا حسان يصف
المركة التي دارت على الشركين فيقول :

ملعنهم والله يفتنئ أمره حرب يشب سيرها بضرام
من كل مأسور يشد صفاده صتر إذا لاق الكتيبة حاي
وجسدل لا يستجيب لمعوة حتى تزل شولمخ الأسلام
بالسار والقل الثين إذا راوا بيض السيوف تسوق كل حمام
ويقول كعب بن مالك :

بين أيدنا جهم فتسددوا وكان يلاق الحين من هو غاير
نفر أبو جهل حريماً توجهه وعدية قسد غادرته وهو عاير
وشية والتميس غودون في الرعي وما منهم إلا بنى العرش كافر
فأسروا وقود النار في مسطرها وكل كفور في جهنم صائر
نظلي عليهم وهي قد شب حيميا بزير الحديد والحجارة ساجر
ولم يأس السلون ما هددهم به الشركون من الإغارة عليهم والأخذ بالقار ، فهون
شعراء السليبيون من ذلك ، بل أكدوا أن سيأتي يوم ينزون فيه مكة ويستولون عليها ،
وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

فلا تسجل أبا سفيان وارقب جباد الخليل تطلع من كداء
أما موقف شعراء الشركين من تلك النزوة ، فيظهر أن قريشاً توامت على أن
تحقق حزنها في صدرها ، وأن لا تبوح بألامها أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن انطلق

(١) راجع : الأثر القرآني في الصورة الأدبية ص ٢٤٧ : رسالة باينبيرد . صلاح الهين
محمد عبد التواب ، من النقد والأدب د . أحمد بدوي ص ١٤ - ١٦ .

الشعر من عظامه ، مبرأ عما يجيش في النفوس إزاء هذه المذبحة التي حالت بتريخ ،
وإزاء تلك السخريّة اللاذعة التي تطلق من إثمات السليخ .

وكان مما قاله شداد بن أوس يبيّن من أقي مصرعه في وادي بدر ويعدد عظامه
التلل ويصف مشاعره إزاء قتلهم :

نحيب بالسلامة أم يسكر وهل لي بد نوى من سلام
فإذا بالقلب قلب بدر من التينات والشرب الكرام
وهذا هو أمة بن أبي الصلت يبيّنهم ويثني عليهم ويصف مقدار ما آلم مكة
لتقدم :

ألا بيّيت على الكرام م بي الكرام، أولي اللامح
ماذا يسدر فالتفصل من مرآة ججاج
شيط وشبان بهاليسل مناوير ولوح
ألا ترون كما أرى ولقد أبان لكل لامح
أن قد تسيّر بطن مكة نة نعى موحشة الأطلح
ومضى بعض الشعراء يسكون مصابهم انخاص أو يندبون بني قبيلهم أو يرون
بعض عظامهم ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله الحارث بن هشام يرى إناء أبا جهل :

ألا يا نوى العصابة والهجر وللحزن مني والحارث في الصدر
وقدمع من عيني جرأاً ، كأنه فريدهوى من سفك ناطمة يجرى
على القبط الحلو التناقل إذ نوى رهين مقام للركبة من بدر

وتوجد بينهم الأوس وهدمم بالانتقام والفار ، وأخذ يخفف من غلواء
الأنصار فيما ملامح من الاتهاج بالنصر ، ويدعو السكيين بأن ينامروا على الضيم ،
وفي ذلك يقول ضرار بن الخطاب :

حجبت للنصر الأوس والمجن دائر عليهم غمداً والمهزبه يماثر
وتغرر بي التجار أن كان معشر أسويوا يسدر ، كاهم ثم سار

فإن بك قتل غودوت من رجالنا فإن رجلاً يمدم سنانا
وتترك صرعى تمصب الطير حولهم وليس لهم إلا الأمان ناسر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لمن يسا الليل عن النوم ساهر
ولقد أسهمت المرأة بدورها في البكاء على صرعى يدر من الشركين، وبما يروى
من شعر عبد بنت عتبة في هذا الضمار : قولها تبيكي أياها عنتة بن ربيعة^(١) :

أحبي جودا يدمع سرب على شير خندف لم ينقلب
تدأى له رهطه غمدوة بنو هاشم وبني العلق
يذوقونه حد أميائهم يملونه بد ما قسد علق
يجرونه وعير التراب على وجهه غاربا قد سلب

وكان من أجل ما قالت المرأة من الشعر في هذه القزاة ، شعر عنتة بنت الحارث
تبيكي أياها الفضر ، وتماثب الرسول صلى الله عليه وسلم فتقول^(٢) :

يا رابكا إن الأثيل مظنة من مبيع خامسة وأنت موقن
أبلغ بها ميتا بأن تحببته ما إن تزال بها العجائب تخفقن
من إليك وهيرة مسفوحسة جادت بواكدها، أو أخرى تخفقن
هل يسمن الفضر إن ناديه أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أحمد ، يا شير شنء كريمة في قومها ، والفحل غل مرق
ما كان شرك لو مفت وريما من القسنى وهو اللبظ الحقن
والفضر أقرب من أسرت وسيلة وأحتمم إن كان حق يمشق
ظلت سيوف يبي أيبه نوحه لله إرحام هناك تشفقن
قسراً يناد إلى اللبسة متبا رسف اللبى وهو عان موقن

(١) راجع : شعر المفترين وأثر الإسلام فيه ليعلى الجورى طبعه بغداد س ١٧١ ،
١٧٢ - والأثر الفرآني في السورة الأدبية ص ٣١٩ ، صلاح الدين محمد عبد التواب ،
(٢) الرجز السابق ، من النقد والأدب ٢ - أحد يدوى س ٢٣ - ٢٤ .

وتنبا يروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ما بلغه هذا الشعر :
« لو بلغت هذا قبل قتله لنت عليه » .

ولقد كان من الذين حاجتهم انتصارات المسلمين في بدر وأغرمت بيران الحفد
وطلب القاتل في نفوسهم : أبو أسامة معاوية بن زهير حيث يقول :

ولسا إن رأيت القوم خفوا وقد ذلت نائمهم لفرق^(١)
وإن تركت سراة القوم صرعى كأن خيرهم أذبح عتر^(٢)
وكانت حجة وقت حسانا ولتينا النايا يوم يسعد^(٣)
فأقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجبهات منس^(٤)
لسوف ترون ما حسي إذا ما تبدلت الجلود جسود نمر

ويتهنئ شاعر يهودي قد ملقّب له نبطاً وحققاً على محمد صلى الله عليه وسلم
ودعوته ، وقد رأى في موقعة بدر نذر سوء عليه وعلى قومه وعلى دياره في يثرب
وما حولها فيذهب إلى مكة مستهتماً فريشاً مستتيراً رجلاً يأخذوا بشارت قتلام
في بدر فيقول :

طلعت ربي بدر لمصرع أهله ولتسبل بدر نستبل وتدفع
فتفت سران القاص حول حيانهم لا تبسدوا إن اللوك تصرع
نشت إن الحارث بن هشامهم في الناس بين الصالحات ويجمع
ليزود يثرب بالجنوح وإنما يحسى على الحسب الكرم الأروع

ومهما كان القول من جانب شعراء المسلمين ، أو شعراء المشركين فقد كان لواء
الشعر مفقوداً على حسان ، حيث كان يضرب بشمرة في مقاتل فريش ، ويهدد كل
إمكانياته البيانية في إظهار إيمانه اللبح العميق ووجهه برسول صلى الله عليه وسلم ،
وكان مما قاله كذلك في هجاء فريش والتهكم بهم بعد بدر :

(١) زالت نائمهم : دعيت نفوسهم . (٢) عز : ضم .
(٣) أذبح : الجماعة من الناس . (٤) منر : جمع أمر : من : أمر .

وقد زعمتم بأن نحموا ذماركم وماه بدر زعمتم غير مسوود
تم وردنا ولم نسمع لتولكم حتى صرنا رواه غير تصدير
ويعرض حسان للريش ولأبي سفيان بسفة خاصة ، وقد عادى النبي صلى الله
عليه وسلم عداً شديداً ، وهجاء وسخر من دعوته فيقول حسان :
هيبت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكنة فشاركك في الشركاء السدا
فإن أبي والله وعرضي لعرض محمد منكم وفاء
وإذا كان حسان لم يكن وحده الذي يصور أحداث الماركبين السلفين والشركين ،
وإنما شاركه في ذلك أيضاً كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، غير أن حسان كان
قد غلبهما في كثرة النظم ، وكثرة ما أجاد أيضاً ، حتى علت مترلته واحتل من قلب
الرسول صلى الله عليه وسلم المسكاة الأولى بين الشعراء .

وكنا قد وقفنا من قبل على بعض أشعار كعب بن مالك في تسجيل بعض الأحداث
في غزوة بدر . .

أما عبد الله بن رواحة فقد أسهم بدوره بقدر لا بأس به في معركة الإيمان ضد الشرك ،
وكان يفتي على الرسول صلى الله عليه وسلم من رائق القول ما يميز عن إحساس صادق ويتبين
خالص ، وكان مما قاله في وداع النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى غزوة مؤتة :
ثبت الله ما آتاك من حسن نبييت موسى ونصراً كالتى نصروا
أنت الرسول فمن يجرم نواله والوجه منه قد أزرى به القدر
ولكن يبدو أن حسان كان قد غلب على كل أحداث عصر الرسول صلى الله عليه
وسلم يشمره ، بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء الشركين ، كما نزل في
رده على ابن الزهري أو الأعمش بن زرارة اللبيبي حليف بني نوفل بن عبد مناف ،
فقد كان كلاماً يسي على بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش ، ومن هذه
الرافضات والتضاللات التي قالها حسان :

ايك بكت عيناك ثم تسادرت بدم تمل غروبها سجام
ومنها :

تلت فؤادك في النمام خريدة نسق الضجيج يارد بسلام
ومنها :

غابت بدر أسد وآب عزيم يوم الغلب بسومة وفتوح
ومنها :

جحت بدر جمع لشقوة جسدك إن القليل موكل بذليل
إلى غير ذلك من القصائد والناقصات التي سجل بها حسان أخبار غزوة بدر .

أما في أحد ، فتراه يؤدي دوره كما أداه في بدر ، فهو يرد على الشركين حين أخذتهم الحمية في هذه الغزوة بعد أن قدر لهم فيها النصر ، وكانت مهمة حسان فيها فتلك أشق ، ولأنه مطالب بأن يقاتل من نشوة الشركين بالنصر ، وأن يؤكد - في هذه الظروف - أن التولية للمسلمين ، فهو يرد على أبي سفيان بن حرب اقتضاره بأبياته التي أولها :

ذكرت القروم العبيد من آل هاشم واست زور غلثسه بمصيب^(١)
كذلك بدير فريشاً بأن أعطت لواءها لبيد حبشي يسى (سؤاب) وهو في كل
ذلك يسجل المركة بتفاسيلها وبقتلاها وهداياها ، فتراه يقول :

نقرتم بالهوا وصر نغسر لواء حنين رد إلى سؤاب
جسهم نقرم فيه بسيد والأم من يطا غير القراب

وها هو ذا يججو عتية بن أبي وقاص لأنه روى رسول الله صلى الله عليه وسلم في
أحد فسكر رابعيته النبي السليل وجرح شفته السهلي صلى الله عليه وسلم ، فيسجل
حسان هذه الحادثة في جهاته فيقول :

فأخزأك روي يا عتيب بن مالك ولذاك قبل الثوت إحدى الصواعق

(١) القرم : اليد .

بسطت يدياً للهبي تهنئة فأدعيت له ، قطعت بالبورق
وتسكرو الصورة - والحرب سجال - وحسان يرد على الشركين ويمدح الرسول
سلي الله عليه وسلم وينتصر للمسلمين ، ويؤدى دوره في كل ذلك خير أداء ، فهو مراسل
حربي ، يسجل الأخبار ، وهو صحيفة يومية ينشر هذه الأخبار ويلونها بما يتفق
وهدف المسلمين^(١) .

إلى أن كان الفتح الأكبر ، وهو الذي امتد له كل شعراء المسلمين حتى
لا تتوهم فرصة للمشاركة فيه - فتح مكة .

فشارك حسان بشعره منذ أول هذه الفزوة استعداداً لها ، فقد أخذ يمرض
الأصبار هل الفتح ، وبذكركم بما فعلت بهم قريش :

عناق ولم أهدد يطعاه مكة رجال بني كعب تحمز رطبها
بأيدى رجال لم يسأوا سيوفهم وقتل كثير لم يحسن ثيابها
ألا ليت شمرى هل تانن نصرتي سهيل بن عمرو وغزاه وعتابها

إلى أن يقول :

ولا تجزها منها فإن سيوفنا لها وقفة بالوت ينتج بابها
ثم يتم فتح مكة ، ويدخل الجيش الإسلامي وعلى رأسه قائده محمد صلى الله عليه
وسلم ، فيعلن حسان انتصار الإسلام ، وانتصار الأصبار ، بقصيدته التي عرف بها
ومعلقها :

عنت ذات الأسابع فالجواء إلى عذراء منزلها خسلاء
وفينا تلك القدمة التي استنكرها السفون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للضمر
وعربها، ولكن عائل ذلك الفقاد بأنها من نطفه في الجاهلية وأكلها في الإسلام^(٢) .

(١) راجع : حسان بن ثابت شاعر الرسول ص ١٦١ د . سيد حق حنين .

(٢) المرجع السابق ١٦٤ .

ومن هذه القصيدة يقول حسان :

عدمتا خيلنا إن لم تروها تثير القبح مومسدها كداء
يتأزمن الأسفة معنيتا على أكتافها الأسل الظاء
تظلل جياتنا مقطرات بلطهم بالخر النساء
فإما ترضوا عنا اعترنا وكان القبح وانكشف القناء

وتتوالى الأحداث ، وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو في كل مرة يسجل الحدث ، مبرراً عن شعوره بإزاءه وشعور سائر المسلمين .

ثم يأتي يوم بيض الرسول صلى الله عليه وسلم - فيه ، وتصمد روحه إلى السلا الأطل ، فيكيه حسان ، لا كما يكيه كل المسلمين ، ولكن كما يكيه شاعر رافق الرسول في أم فترات حياته ، وشارك في كل حدث مر به صلى الله عليه وسلم - بقلبه ولسانه ، وأحس بمشاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه ، فكان بكاءه تسجيلاً لهذا الحدث الجلل، وتعبيراً عن أحزان أمة أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم برسائه وإرشاده وقدرته ، وكانت أم قصيدة رثى بها حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلك التي مطلعها :

بطيبة رسم للرسول ومسيده مثير وقد تنفوا الرسوم وتهمد^(١)

هذا هو حسان بن ثابت . الذي يمكن أن نلحس في شعره - وبعض شعر صحابه الذي تخلقا به - روحاً جديدة ، وصحة من الإيمان العميق بالدين القنصرا به قانتقوه ، متخلين بذلك عن الأسلوب الذي تعودوا أن يلزموه في الجاهلية . ومن هنا جاء الشعر أغزر معنى وأقل أسلوباً ، وربما يكون حسان نفسه قد أحس ذلك ، ومن ثم كان يمد بين الجاهل والمجن إلى الأسلوب الجزل الذي كان يعاربه هو نفسه له وتغرب لسامعه الأذان ، ومن أمثلة ذلك قوله في قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق ، وكان الأول قد شهب بنساء المسلمين ، وألب قريشا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الثاني قد حارب الأحزاب ضد المسلمين .

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول ص ١٦٥ .

قال حسان :

لله در عصابة لاقيتهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأعراف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم مرما كأسد في عرين معرف
حتى أتوكم في محل بلادكم فسقوكم حلقا بييض ذنف
مستقصرين لنعصر دين نبيهم مستغربين لسكل أسمر جعيف

وكان حسان يحن إلى هذا اللون من الشعر الجزل اللين والفحولة التي تمود أن
ينوره في الجاهلية كما كانت للناسبة عظيمة ، وأي مناسبة أعظم من فتح مكة ، ذلك
الحادث الذي هز أعطاف الزمان ما عاش رواة التاريخ ، في معركة فتح مكة انتصار
للمؤمنين على عبدة الأوثان ، وتوكيد وتثبيت للرسالة السماوية ، واسترداد للبيت
الشيقي ، وتغلب على معدن الكيد للرسول ورسالته في شخص قريش ، ولذلك فقد
أطلق حسان لشاهريته النعان ، فرجعت به في تحليتها إلى نمط الأسلوب الجاهلي فقطً
واسطلاحاً^(١) فقال :

عنت ذات الأسابيح قالجوا . إلى عذراء مزلها خلاء
دوار من بين المحاسن قدر تظفها الرواس والسياء
وكانت لا يزال بها أبيض خلال مروجها نم وشاء
عندما خيلنا إن لم نروعها تشير القنق موعدها كداء
بنازمن الأعنة مصنجات على أكتافها الأسفل الفلاء

والقصيدة طوية موسومة بالفحولة ، ولم يتخرج الشاعر فيها من ذكر الخمر إرضاء
لشيطان شره الأسيل ، مشيراً إلى الأماكن النسائية التي تتصل بعرف من حياته
القديمة قبل الإسلام في ظل النساسة مارك الشام .

(١) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٢ . د . مصطفى الكنتبة .

لقد كان شمر حسان وصحابه من شمراء الرسول - وعامة في تلك الفترة وهذه الظروف ، حيث كانت المناقصات والمناظرات ، حيث كان الدفاع عن الإسلام ورسوله - فكان شمر حسان وصحبه إذن جامعين غزوة شمر الجاهلية وبين اللذان الإسلامية ، فإذا كان حسان جاهلياً في تصديقه الهزبية السابقة ، ورغم أنها قبلت في أمر مناسبة إسلامية أراد أن يخلدها بكل إنكارياته ومواجهه ، فأخلق لشاهريته اللذان ينسب نحرز ، فإنه هو نفسه القائل في رثاء حمزة بعد أن قتل في موقعة أحد ، موازناً بين ميثاقه في جنة الخلد ، ومثوى المالكين من قريش في النار ، مركزاً على اللذان الإسلامية:

وإنت جنان الخلد منزله بها وأمر الذي يقضى الأمور وبيع
وقهلاكم في النار أتمنل رزقهم حيم ممأ في جسوتها وشرع

ويمكن القول بأن الشعر على السنة الشمراء السابقين عن العقيدة ، كسماة وعبد الله بن رواحسة وكعب بن مالك ، كان مكدواً ثوب الإيمان ، ملتزماً اللذان الإسلامية ، طالما كان في التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة ، جانحاً عنها إلى أسلوب الشعر الجاهل متى كان في ذلك قائمة الدعوة أيضاً^(١) ، وبعبارة أخرى ، كان الشعر يلزم اللذان التي تؤدي نفوس قريش بالمحديث عن الأنساب والوقائع والأيام والمآثر ، وهو السلاح الذي يتفق مع قريش ، ذلك أنها لم تكن تحفل يومئذ بالشرك والكفر وعبادة الأوثان ، لأن ذلك كان مصدراً للفخر والاعتزاز بدين آبائهم ، فكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يبدونه حقاً جهاداً^(٢) .

ولله من أم الملاحظات في هذا الشعر الإسلامي - في إطاره العام - أنه شعر مقطوعات ، وليس شعر قصائد ، وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع

(١) تاريخ الشعر السياسي للاستاذ أحمد الناب ، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .
(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٦ د - شوقي شيبه ، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .

الشاعر إلى موضعه مباشرة دون تقديم ، وكانت الظروف التي يعيشها السلون -
وخاصة الشعراء منهم - تقتضي أن يكون شعرهم سريعاً في مقاومة الشركيين حتى
يردوم غداً.

ومن هنا كانت الأحداث التي تحضى سراً لا تدع للشاعر فرصة أن يتأمل
ويستكر ليظم ، وإنما كانت تلح عليه إلحاحاً من أجل أن يلاحتها بنفس سرعتها ،
ومع ذلك لم يخل هذا الشعر الإسلامي من روعة وجودة وإتقان .

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه

فهرس للموضوعات

صفحة	
٦	القسم الأول : الحياة الأدبية لجمالين
٦	الفصل الأول : مقدمات في أصول الأدب العربي
١١	العوامل المؤثرة في الأدب
١٢	اللغة العربية
٢٤	أطوار تهذيب اللغة
٢٣	اختلاف اللهجات العربية
٣٦	خصائص اللغة العربية
٣٧	عوامل نمو اللغة
٣٩	خاصة لغة فريش
٤٠	اللغة العربية ومزاتها بعد نزول القرآن
٤٣	الفصل الثاني : النثر الجاهل
٤٨	مميزات النثر الجاهل
٥٠	أشعة نثر الآثور في العصر الجاهل
٥٣	أقسام النثر الجاهل
٦٠	المطالفة في الجاهلية وماذا لها
٦٦	المجاورات وسور لها
٧٧	مدح الكهان وسور منه
٨٠	الفصل الثالث : الشعر في العصر الجاهل
٩٠	أنواع الشعر
٩٧	الشعر القاصون
٩٩	رواية الشعر ورواها
١٠٨	نظرية الاكمال في الشعر الجاهل
١٢٦	قنن الشعر
١٤٣	خصائص الشعر الجاهل
	مدارس الشعر الجاهل
١٥٦	١ - مدرسة شعراء اللغات
١٥٨	عربن عام قسملات

١٧٦	٢ - مدونة الشعراء الصالحين
١٨١	٣ - عيب الشعر
١٨٣	الشعر في إطار الثقافة والناسخة وأسباب ازدهاره
٢٠١	شعراء القرى العربية
	القسم الثاني : الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام
٢١٧	الفصل الأول : عصر صدر الإسلام
٢٢١	أثر الإسلام في حياة العرب الاجتماعية
٢٢٣	أثر الإسلام في الأدب
٢٢٤	أثر الإسلام في اللغة
	الفصل الثاني :
٢٢٧	القرآن الكريم بلانته وإيمازه
٢٤٠	الصورة الأدبية في القرآن الكريم
٢٥٦	أثر القرآن في اللغة والأدب
	الفصل الثالث :
٢٥٩	المحدث النبوي وأثره في اللغة والأدب
٢٦٧	خطبة بيوتة في بحر الكندي
٢٧١	الفصل الرابع : النثر الإسلامي
٢٧٣	المطالعة الإسلامية
٢٨١	الكتابة في صدر الإسلام
٢٨٩	وصف النثر الإسلامي
٢٩٢	الفصل الخامس : الشعر الإسلامي
٢٩٦	أدبنا الشعر في صدر الإسلام
٢٩٨	معايير الشعر في صدر الإسلام - أسلوب الشعر والنقطة
٣٠٢	أشهر الشعراء المحضرين
٣٠٣	صور من الشعر الإسلامي
٣٠٧	شعراء المدينة ومناظرهم لشعراء مكة
	دخا من الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم